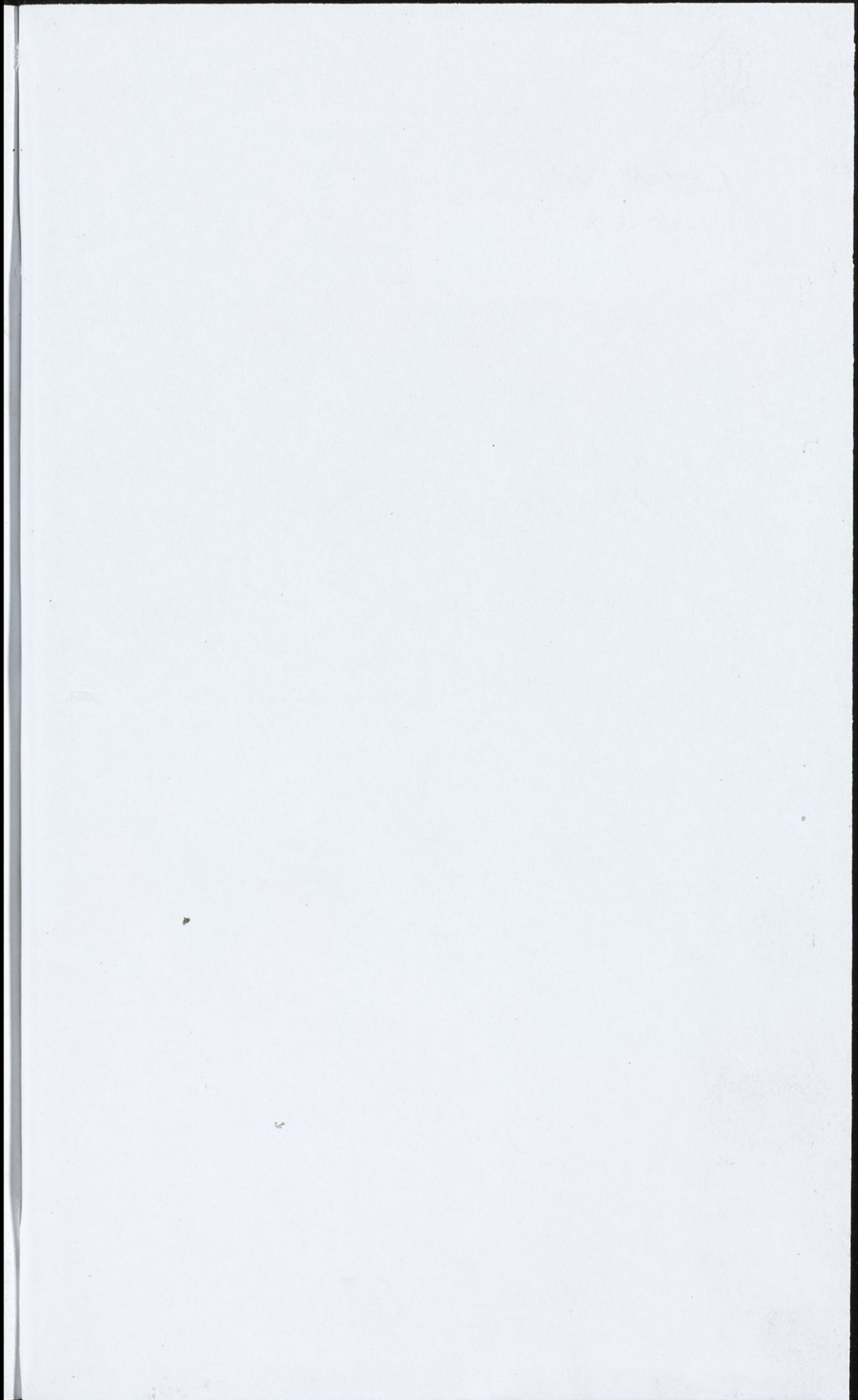


0111
DS
97
.5
M57
1908a

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY



3 1924 109 680 201



Cornell Univ.

Enval dtd 1.11.07

كتاب

مشهد العيان

بحوادث سوريا ولبنان

جامع حوادثه

الدكتور فخايل مشاقه

منشاه

مكتم فليل عبود

واندراوس منا سخايري

طبع بمصر سنة ١٩٠٨



b

مقدمة

لنسى الكتاب

لما كانت العادة المتعارفة بين الفئة المنشئة واصحاب التأليف ان يصدر المؤلف كتابه بكلمة اجمالية كقدمة يظهر فيها الغاية التي من اجلها تحمل عناء الانشاء ومشتة التعبير ويبين للفئة المطالمة ما يتوخاه بكتابه من الفائدة لها والمنفعة العامة المحضة وان لا مطعم له غير الافادة وخدمة بني نوعه على الاطلاق واطهار الحقيقة بثوبها الناصع التي لا تمسها شائبة وان طال على ابرازها الامد

رأينا من الواجب الادبي ان نراعي العادة في هذا المقام ونحترم جانبها فعذرنا في انزالنا نفسنا منزلة المؤلف هو كتابتنا الكتاب من بدايته الى نهايته لان عبارة المؤلف غير صحيحة وجملة الكتاب غير وافية للنشر وقد اضفنا الى حوادثه فذلكه تاريخ لبنان التي لا شك تلاقي من المطمع عليها من سكان تلك البقعة المحبوبة اشتياقاً وهدى

وهناك داع آخر وهو في اعتقادنا اهم واجدر يدعوننا الى ارسال كلمة مقدمة لهذا الكتاب الجليل الذي توقعنا به صدفة وقادته اليه التقادير على غير انتظار نيسط للقارىء ماهية الكتاب ونحفظ لجامع حوادثه الفضل المتقدم فالقرار بالفضل لمستحقه من اجل غاياتنا ونقدير رجاله قدرهم فرض مقدس علينا في كل حين وقرارنا للمؤلف بوضع حوادث الكتاب فقط لا يحيط من شأنه ولا ينقص من فضله كما يتضح لكل ذي بصيرة

اما الغاية التي دعمتنا الى ابراز هذا التأليف بعد عثورنا عليه ميلنا الفطري الى خدمة الانسانية وبحث الحقيقة متى ظهرت لنا فضلاً عن وثوقنا بعد مطالعته

ان في نشره فائدتين لا يحسن بقاؤها طي الكتمان الاولي صدق حوادثه الماثلة
التي يجهاها السواد الاعظم والتي من الواجب اذاعتها ونشرها على رؤوس الاشهاد
لثبوت رقايعها واعلامها. والفائدة الثانية نكون قد انفذنا غاية واضع تلك الحوادث
واعتبرنا جراته الادبية التي نشمر بحاجة الى تلبسها والاقندان بها فآظهرنا فضله
واحينا ذكره

وحسبنا ما تقدم برهاناً على قولنا وشاهداً وافياً على تبرئة صاحبنا من تذييل
الكتاب باسمنا اذ لو كانت عبارة المؤلف صالحة للنشر رأساً لا كتفينا من خدمة
الحقيقة بنشره له ولنا . ولك والهدى من الله انه هو الهادي وهو صاحب
الحق والانصاف





تاريخ عائلة مشافة

وترجمة حياة بعض افرادها

اذا كان تكريم رجال الفضل واجباً وهم احياء فانه مقدس وهم اموات
فالدكتور مخائيل مشافة صاحب هذه الحوادث وجامعها قد صرف ايامه بين
قومه كرجل عظيم من رجال هذا العصر دأب به بث الالفه ونشر الاصلاح وخدمة الانسانية
ولما كان العدد القليل من الجالية السورية يعرفون سيرة حياته والعدد الاكبر لا
خبرة ولا معرفة لهم بها اغتنمنا هذه الفرصة لندون في مقدمة الكتاب هذا الفصل
احتراماً للفقيد الذي عاش عظيماً ومات عظيماً واجلالاً لمقامه السامي والذي نوره في
هذا الباب هو غاية ما وصلت اليه معرفتنا والله وحده صاحب العصمة والحكمة

كان يوسف بركي يوناني المتمد يقطن مدينة كرفو من اتمال جزيرة كرفو
بالارخبيل اليوناني وكانت كرفو تابعة لجمهورية البندقية . ولا نعرف عن هذا الرجل غير
نزوحه من تلك الجزيرة وحلوله في مدينة طرابلس الشام حيث اتخذ التجارة صناعة له
في ارض الفيحاء وكانت تجارته محصورة في المشافة لذلك لقب بيوسف مشافة وهو اول
من تلتب بهذا اللقب . وكان يوسف مشافة المذكور ذا وجهة ونشاط وتجارته كانت تعد
عظيمة في ذلك العصر وكان يملك سفينة شراعية ينقل عليها صادرات وادي النيل
واسا كل سوريا على الاجمال ووارداتها وكان يفضل الإقامة في مدينة طرابلس لما اختبره
باسفاره المتتابة

فحلت قدمه في تلك المدينة حوالي اوائل القرن الثامن عشر للميلاد وظلت معاملته
قائمة مع معامل المراكب في البندقية عاصمة ولاية مسقط رأسه .
وقد علق بفتاة من عائلة القلنفاط من سكان قرية انفه وهي الآن اسكلة انفه وتبعد
عن طرابلس الشام ساعتين ونصف ركوباً وهي قرية ساحلية . فقدم اليها باحدى سفرائه
وقد وقع نظره على نصيبه الاول فتزوج الفتاة ورزق منها ولداً دعاه جرجس ثم ادركه
العجز وتوفي وتوفيت عميلته قبله بمدة قصيرة

فعم جرجس مشافة بعد وفاة والديه على الانتقال من مدينة طرابلس فباع ما
خلفه له والده من العتار وقام ومعه مال وافر الى صيدا مركز الولاية وتعاطى بها تجارة

التبغ وكان يورد منه للقطر المصري كميات وافرة وبذلك تمكنت صلته بمشايخ آل الصغير
حكّام بلاد بشاره والشقيف الشيعيين حيث كان يشتري منهم حاصلات اراضيهم
الواسعة من التبغ

وقد اتخذ له شريكه من عائلة منسى من انفه مسقط رأس والدته بعد ان نزلت
الى صيدا وعوات على البقاء فيها . وكانت هذه العائلة على مذهب الروم الكاثوليك
فاعتني جرجس هذا المذهب واظهر لرجاله بعد مدة ميله الشديد الى تعظيمه بتبرعاته
العديدة . ومن جملة ما وهبه الى دير الرهبان قبة ومسلات رخام احضرها من اوربا وغير
ذلك فضلا عن انه اكمل بناء ذلك الدير على نفقته

ولم يكتف بما تقدم بل اوقف للدير المذكور قرية الوردية بجبل الديمان واربعة
بيوت للسكن بمدينة صيدا وكانت مساعداته للاعمال الخيرية عموماً وللدير خصوصاً
متابعة متلاحقة

وقد نقش على جانب الهيكل اسمه على هذه الصورة « لقد احب جمال مجدك جرجس
مشاقفه عبدك »

فكافاه اولياء الدير بترتيب قداس يتلى عن نفسه يومياً الى ما شاء الله و باحتفال
بعيد مار جرجس سنوياً . وكان ذلك سنة ١٧٥٧ هذه هي الملاقة الاولية المتصلة بين
عائلة مشاقفة ودير الرهبان الى يومنا هذا

ثم اضطرته المصلحة ان يقوم من صيدا الى صور فانتقل اليها لتسهيل سبل تجارته
مع مشايخ المتأولة القاطنين في جوارها والذين لهم من اغلالها النصيب الوافر مثل التبغ
والحبوب والاشخاب ولم يكن وقتئذ في تلك البلدة مسيحياً غير جرجس مشاقفه وحاشيته
وبانتقاله اليها تكاثر عدد النصارى حتى ادت زيادتهم الى تشييد كنيسة . وكان جرجس
المشار اليه هو البادى بتأسيس جدرانها فبنى الكنيسة على اسم القديس توما الرسول .
وبعد ان اتم بناء الكنيسة رأى من الحكمة ان يجعل له مأثرة خارجة عن حدود مذهبه
واذ لم يكن في صور جامع للمتأولة يؤدون فروضهم الدينية فيه عزم على ان يبنى لهذه الفئة
جامعاً على نفقته لان اختلاف عقيدة المتأولة الشيعيين لا يميز لهم ان يؤدوا فروضهم
في جامع السنيين لذلك باشر بناء مسجد للشيعية على نفقته . فدرى بعمله والى صيدا فارسل
واستقدمه ولما امثل امامه ساله الوالي عن عزمه بشأن بنيان المسجد فحقق له الخبر فصرفه
وانعم عليه بفر و من جلد النمر وطلب منه ان يشركه معه في العمل الخيري فاجابه الى ما

يريد وسمح له ببناء للأذنة وهكذا تم بناء المسجد على نفقته
ثم اعاد بناء بيته في صور وبني بيوتاً ومحلات عديدة في تلك المدينة وقد توفاه الله
في صور وله من الاولاد ابراهيم وبشاره . وهذا الاخير هو جد عائلة مشافة القاطنة الآن
بالاسكندرية (مصر) وهي مؤلفة من بشاره والياس وابناء يوسف بن بشاره
واولادهم

وقد مر بنا ان ابراهيم مشافة هو جد عائلة مشافة وهو جد مؤلف هذه الحوادث
كان على جانب عظيم من الذكاء والوجاهة عند احمد باشا الجزائر كما سندكره في حينه
فاقطعه بلاد بشاره والشقيف فقام بجهته خير قيام . وكان عاقلاً وله اعمال مبرورة قد
حفظها له التاريخ وسوف ترد في الكلام عن الجزائر

انما قبل وفاته بايام معدودة ارتاب به الجزائر فكاد يبطش بشيخوخته الا انه
فضى نخبه مغموماً على نكبة اصدقائه آل السكرج الذين نكل بهم الجزائر وقتلهم
وخلف من الاولاد بضعة منهم جرجس مشافة الثاني وهو بكره وقد توفي عن اثنين
واربعين عاماً

وبعد وفاة ابراهيم مشافة ارسل الجزائر فاستحضر ابنه جرجس مشافة الثاني ولم يمهله
ان يدفن والده . ولما وصل الى عكاء امر بالحجز عليه اياماً طلب منه في خلالها مطالب
جمة ومستحيلة ومازال الجزائر يعاوده الطلب يوماً بعد يوم حتى انفذ ثروته ولم يترك له من
الاملاك والمتاع شيئاً ثم اطلق سراحه

وجرجس هذا كان ابوه قد زوجه قبل وفاته بفتاة من عائلة عنخوري وهي كريمة
حنا عنخوري جد حنا عنخوري احد اعيان تجار دمشق الآن ثم وشى به بعض النصارى
للجزائر فعاود الكرة عليه فاصبح لا يملك شروى تقير

وبعد ان اطلق سراحه اشار عليه احدهم ان يذهب الى دير الرهبان لعل رجاله
الابرار يأخذون بيده ويمدون به شيء من المال فعمل بموجب التصيحة وسار الى الدير
وبعد ان اطلعهم على حاله وكيف قبض الجزائر على ما يملكه اظهروا له كدرهم
ودفعوا له خمسمائة غرش . فسألهم اذا كان والده قد ابقى له شيئاً عندهم فاجابوه بالسلب
فعاد الى بيته فترك لعائلته المال الذي احضره معه من الدير الا خمسين غرشاً ابقاها
معه ليستعين بها على المسير الى وادي النيل فقدم مدينة دمياط ميناء القطر المصري في
ذلك العصر ونزل ضيفاً كريماً على اولاد عمه شقائقي عقيلته وهم ينجائيل وروفاثيل

وبطرس عنخوري من كرام تجار دمياط وعمدها
ولما قابلهم اوقفهم على حاله مع الجزار وطلب منهم المساعدة فلم يروا من الحكمة ان
يمدوه بمال تظهر جسامته لجواسيس الجزار فيلحق به الاذى ثانية وهناك الطامة
الكبرى . وبناء على ذلك لم يعضدوا صهرهم وانما نقدوه مبلغاً يقوم باوده و اشاروا عليه
بالذهاب الى جبل لبنان . وفي اثناء اقامته في مصر انفذ الى عائلته خمسمائة قرش . ولما
انقضى فصل الشتاء رجع الى سوريا عن طريق بيروت وقصد ديز القمر فاقام فيها
وغير اسمه مخافة ان بدري به الجزار فتسمى جرجورا فقط ولم يعلم عائلته بوجوده في دير
القمر من خوفه الشديد من الجزار . ومن حظه لم يكن في تلك المحلة من يعرفه غير
ابراهيم داود منسى نسيبه وجرجس بطرس وهذا كان يشتغل بالصياغة فعقد جرجس
النية على انقان هذا الفن عن صديقه المار ذكره وقد حصل على اربه من ذلك الفن
وبرع فيه ولا يزال بعض مصنوعاته باقية الى يومنا هذا تشهد له بالانقان وطول الباع
وفي اثناء مهاجرته من صور كانت عائلته تشتغل بالخيازة وتقوم باودها من تلك
المهنة . وفضلاً عما اصاب هذه العائلة من جور الجزار حتى ادركت الحضيض بعد ان
كانت ترتع بسعة العيش والرفاه حمل عليها الدهر حملة عنيفة فقتل بعض افرادها بدءاً
الجدري منهم نقولاً وقسطنطين وذهب هذا الداء ببصر مريم شقيقتيها التي قضت نحبها
في دمشق بالوباء سنة ١٨٤٨

ولما اثرى رجل هذه العائلة الذي نحن في سياق حياته بعث فاستحضر عائلته الى
دير القمر سنة ١٧٨٦ وفي هذه السنة رزق غلاماً فاصبح اولاده ابراهيم واندراس
اما شقيقه انطون مشافة فلم يشأ الحضور الى دير القمر والقيام معه فيها وفضل
الذهاب الى مصر فشنخض الى دمياط ونزل على سكانها الافاضل فاكرم وفادته وثقفه
على نفقته وكان يصحبه معه في سفراته الى اوربا غير ان المنية عاجلت هذا المحسن
فاضطر انطون ان يترك محله ويستغل في محل آخر واخيراً دخل في شركة بطرس
عنخوري وتوفي سنة ١٨٢١ عن ثلاثة واربعين عاماً واخلف ثلاثة اولاد
ولنمد الآن الى حرجس الذي فرضنا على انفسنا ترجمة حياته فهناضل في دير القمر
مع عائلته . واتفق ان الامير بشيراً الكبير زار عكا ومر بصور فتنقذ عائلة مشافة وبحت
عنها فرأى حاكم المدينة يقطن احدي دورهم فقصوا عليه ما اصاب هذه العائلة فاسف
لذلك اسفاً شديداً

وفي حين وصوله الى دير القمر استخضر جرجس المشار اليه وجعله كاتبه الخاص وأمر له بكسوة واجزل له العطاء وبقي جرجس مشاقفة بخدمة الامير حتى توفاه الله سنة ١٨٣٢ فاقام الامير بمركزه ولده اندراوس فقام بعبء الخدمة باحلاص ونشاط

ميخائيل مشاقفة

صاحب حوادث الكتاب



هو ميخائيل بن جرجس بن ابراهيم بن جرجس بن يوسف مشاقفة وهو اوسع افراد مشاقفة شهرة واعلام منزلة ولد في ٢٠ اذار (مارس) سنة ١٧٩٩ في قرية رشميا من اعمال جبل لبنان

ولما بلغ السن الذي يؤهله لتلقي علوم زمانه درس على والده القراءة والكتابة واتقن بهض المهن الا ان نفسه كانت اكبر من ان تقف عند هذا الحد وقد ظهر فيه ميل فطري الى درس النلك والعلوم الطبيعية ولم يكن له في ذلك المكان واسطة تنيله اربه ولا كان في تلك المدينة (دير القمر) من يعرف فن الحساب حتى الضرب والقسمة وكان ميالا كما نندم الى العلوم العالية وكان يسمع ان اليهود يدركون مواقع الكسوف والخسوف وبقية العلوم على انواعها انما يحفظونه بصدورهم ولا يطلعون عليه احدا فصار يتردد على رجل منهم اشترى بالعلوم الطبيعية على امل ان يحصل منه على بغيته وقد

تأكد خيبة امانيه بعد اختباره مقدره الرجل . والذي وقف عليه منه هو ان اليهود يعرفون هذه المعرفة السطحية عن الكسوف والخسوف من الرزنامة التي ترددهم من اوربا وفيها مواقع حركات القمر والشمس وبعض الفوائد السلكية فاقطع عن زيارة اليهودي وعن الافتكار بحصوله على الفوائد الجملة من اليهود

وحصل له مثل ذلك عندما بعثه والده بمهمة الى القس كيرلس اذ شاهد هذا يطالع كتاباً مخطوطاً وفيه اسماء الشمس والقمر متواليه فظن انه حظي بضالته ولما سال ذلك الراهب عن ماهية الكتاب فاجيب انه 'كتاب الكيكلس تأليف احد الآباء يستعين به على مواقع الاعياد المارة الى بضع سنين وعن مواقع القمر والشمس وغير ذلك من المعارف التي لا تدركها عقول العامة . اراد هذا الراهب ان يوهم مخائيل ان منزلته من علم الفلك والفلسفة مثل منزلة ارسطو وسقراط اونيوتن . غير ان مشافة تساهل معه حتى حصل على نسخة من الكتاب ولما طالعه رأى ان معارفه لم تنزل كما هي فرجع وهو في تمنّ وتردد

وفي سنة ١٨١٤ جاء دير القمر خاله بطرس عنجوري ومعه كتب خطية فطالع منها كتاباً في علم الهيئة والكواكب لديبلاند الفرنساري وآخر في تقويم الكواكب له ايضاً وآخر في حواشي الارشمندريتي افتموس غازي لبنيامين فرنكلين الاميركي في علم الطبيعة وآخر في العلوم الطبيعية للاستاذ رينا البلاتي واخر في المآخذ الحديثة في تقويم الكسوفات لبطرس عنجوري . وبعد ان طالع تلك القوم درس على خاله مبادئ علم الفلك حتى تمكن من تعيين خسوف القمر

وفي سنة ١٨١٧ قدم الى القطر انصري ونزل على انبياء عنجوري ودرس عليهم علوماً حديثة . وفي سنة ١٨١٨ فادته افكاره الى البحث في العقائد الدينية شان المتوغل في العلوم الطبيعية وجاهر بارتياجه في صحتها وكان لا يأنف من الجدل وهو الذي زاده ثباتاً في صحة معتقده وعاد من سفرته الى دير القمر سنة ١٨٢٠ وشرع في تجارة الاقمشة الحريرية ولكنه لم يزاوئها الا مدة قصيرة حيث قام لقيام الامير بشير الكبير الى حوران فراراً من مطالب عبد الله باشا والي عكا فاقام مشافة في دمشق متخفياً مدة وقد اشيع ان مع اخوته خزينة الجبل التي اودعها معهم اميره . مرت الايام ولم يحدث له مكروه وقد اب مع الامير الى دير القمر ورجع الى تجارته التي تحسنت من صلته مع مشايخ الدرور وخصوصاً الشيخ بشير جنبلاط التي كان سببها الامير بشير لما رحل الى مصر . وفي عودة

الامير من مصر قر به وعهد اليه جمع الخراج من اهالي لبنان ودفع الغرامة الى عبد الله باشا وفي هذه الاثناء حصل سوء تفاهم بين الامير بشير والشيخ بشير جنبلاط كان العامل على اثارته وتميزه رؤساء الدين الذين دابهم القاء الفن والمداخلة بما لا يعينهم في كل زمان وحبذا لو تلتزم هذه الفئة المباركة نصوص الكتاب المقدس وتترك الشؤون المدنية على عاتق اربابها فتحفظ بذلك مقامها وتجله . وكان غيظ مخائيل مشاقة من القاء بذور الفن بين الامير والشيخ عظيماً حتى انه جاهر بالملامة على الطغمة الاكثريكية في نشوب المخاصمة ولم يرهب لومة لائم . وقدم في تلك الاثناء الى دير القمر احد المبشرين الاميركان فصار مخائيل يتردد عليه احياناً الى ان ظهر ارتياحه الى اعتناق المذهب الانجيلي لان ما ناله من سوء المعاملة من رهبان دير الخالص لقاء تبرعات جده الغزيرة الى ذلك الدير جعله يحنق عليهم ويعرض باخلاصهم الذي لا صحة له ولا اساس

ولما حطت اوزار الفتنة المار ذكرها بين الامير بشير والشيخ جنبلاط وجه اليه الامير وظيفة شبه مدير لحكومة حاصبيا وراشيا فاقام بها مع امراء تلك المقاطعة فوق ما ينتظر منه واحبه الامراء لما ابداه من حسن السلوك معهم الى آخر ايامه وفي سنة ١٨٢٨ اصيب بجمي وافدة حملته على العودة الى دير القمر طلباً للابلال والراحة من عناء الاعمال . وقد خطر بباله ان يدرس فن الطب ولم يلبث طويلاً حتى باشر اظهار خاطره الى حيز العمل وبدأ يطالع ويدرس على نفسه لعدم وجود معهد لتدريس الطب بسوريا ولا ريب انه لاقى صعوبة وعقبات حمة وكان يلاصق كل طبيب يقدم الى تلك الديار بايعاز او مهمة لشدة ولوعه بهذا الفن فنال بذلك خبرة واسعة يصعب على الطالب القانوني نيلها فكان الاهالي يدعونه لتطبيب مرضاهم وكانت الثقة به قوية قبل ان يحصل على الشهادة القانونية . وفي سنة ١٨٣٣ انتقل الى دمشق واتخذ شريكة لحياته فاقام بها الى آخر ايامه . وجاء دمشق بايعاز من الدولة المصرية الدكتور كلوت بك ناظرًا على المجلس الصحي في دمشق فكثرت اجتماعاته به الى ان اصبح صديقه الحميم فكان يصطحبه بمهامه الطبية وقد افاده افادات عظيمة فاهداه كتباً غزيرة الفائدة وادوات للجراحة مستحدثة . وقبل حصوله على الشهادة اقامه شريف باشا رئيساً على اطباء دمشق بمدة استيلاء المصريين على سوريا . وفي سنة ١٨٤٥ قدم الى الديار المصرية واجتمع بالدكتور كلوت بك صديقه القديم الذي ساعده اولاً وآخرًا على نيل الشهادة

ونالها بعد ان قدم فحماً للجنة اطباء قدموا من جامعة باريز الى القطر المصري لتلك الغاية . وقد زار الآثار المصرية وشاهد موانع حربية متقف على اخبارها في بابها . ودرس علم المنطق وكان كثير التمني لكل العلوم وكان صديقاً حميماً لبحري بك وشريف باشا وغيرها من وجهاء القوم . وبعد عودته من مصر طالع كتب الفلاسفة وقرأ نوتر ونيوتن فارتاب بهما وقرأ تأليف الاستاذ كيدن الانكليزي فاعجب به واتخذة دستوراً لرجوعه الى احترام الاديان . وقد ثبت لديه من هذا الكتاب صحة الديانة المسيحية فاعتنق مذهب البروتستانت تاركاً اهله مفضلاً عليهم راحة ضميره . فعل ذلك سنة ١٨٤٨ وقد بذل غبطة البطريرك مكسيموس جهده في ارجاعه الى مذهب اجداده ولم يفلح فلاقى اضطهاداً عنيفاً من غبطة في وعظاته واجتماعاته وكان يكيل له الكيل وازيد ان شفاهاً او كتابة الى ان فصل الموت بينه وبين خصمه فارتاح من عنف الاضطهاد اذ ذاك ولكنه بقي على جلده ونشاطه في الجدل والمحاورة الى ان قضى عليه

وقد عينته حكومة الولايات المتحدة قنصلاً في دمشق ثم استعفى

وشاهد مذبحه الشام وكاد يذهب بتيآرها وشاهد اكثر حوادث هذا الكتاب وعاصر اكثر ابطاله والرجال الذين لهم ذكر بوقائعه وكنف وجيهاً ومحبوباً لدى الامير بشير وامراء حاصبيا ورشيا من آل شهاب وصادق نخبة القوم وعرف بينهم بالزاهة والصدق

مؤلفاته

- (١) رسالة الدليل الى طاعة الانجيل سنة ١٨٤٨
- (٢) اجوبة الانجيليين ضد اباطيل المقلدين سنة ١٨٥٢
- (٣) جواب صديق من طائفة الروم في حمص واقناعه سنة ١٨٥٢
- (٤) كشف النقاب عن وجه المسيح الكذاب سنة ١٨٦٠
- (٥) البراهين الانجيلية ضد الاباطيل البابوية ردّاً على اليسوعيين سنة ١٨٦٣
- (٦) تبرئة المتهم من قذف البطريرك مكسيموس مظلوم سنة ١٨٥٤
- (٧) رد على منشور البابا بيوس التاسع الذي يدعو فيه البروتستانت الى الاشتراك في المجمع الفاتيكاني وترك الضلال
- (٨) رسالة البرهان على ضعف الانسان ردّاً على تعاليم الفيلسوف فولتر
- (٩) الرسالة الشهائية في قواعد الحان الموسيقى العربية

- وكل هذه الرسائل طبعت . ومن مؤلفاته التي لم تطبع
- (١) رسالة في ترجمة حياة البطريك مكسيموس بين فيها كيف اتصل الى درجة
الخبرية العظمى
- (٢) رسالة رد على ابن الحموية واعتراضاته على مذهب الانجاليين
- (٣) التحفة المشاقية مطول في علم الحساب
- (٤) كتاب المعين على حساب الايام والاشهر والسنين
- (٥) وهذا الكتاب الذي جمع حوادثه وسماه الجواب على اقتراح الاحباب
صفاته واخلاقه

لا حاجة بنا الى الاسهاب لبيان صفاته واخلاقه بعد ان اسهبنا بتعداد اعماله وما
جد له من الافكار والاختار غير اننا نوجز في تدوين ما يلي :

فكان المغفور له جامع حوادث هذا التاريخ رجلاً مقدماً متوقداً للذهن عالي المهمة
ذا عزيمة شماء لا يقعه في سبيل ما يريد مقعد ولا يصده في سبيل مبتغاه مانع
وقد حصل على العلوم بجده واجتهاده كما تقدم . وكان محباً للرفق كثير الاعتماد على
نفسه ذا استقلال اداري وقد زادت الاضطهادات التي لافاها من رجال الدين وثوقاً
بمقدرته وكان شديد التعصب لدينه قوي الحججة شديد الالتهج الى ما وراء الاعتدال
انما كان ضعيف الانشاء ركيك العبارة شديد الجنوح الى اللغة العامية بكتاباته
وكان قوي الناقة حسن السلوك لين المعاشرة

اخلف له ثلاثة اولاد وهم ناصف واسكندر وسليم . وقد انتهى كتابه هذا عن
حوادث سوريا ولبنان سنة ١٨٧٣

الفصل الاول

ملاحظة وتهد

لما كان المرحوم الدكتور مشاقة مؤلف حوادث هذا الكتاب ضمنه تاريخ عائلة مشافة الكريمة من الجد الاول اي من اواخر القرن الثامن عشر الى سنة ١٨٧٣ ولما كانت حوادث الكتاب تشغل قرناً من بدايتها الى نهايتها ولم يصدر كتابه بفدلكة تاريخية تربط حوادثه بحدوث العصر الغابرة وجدنا ان الحاجة ماسة الى لمحة عن تاريخ جبل لبنان مع الاسهاب في جغرافية لبنان القديم والحديث وفي اصل القبائل والامم التي توطنته قديماً وحديثاً وما طرأ عليها من التغييرات السياسية والاجتماعية من اديبة ودينية ومدنية منذ ابتداء التاريخ الى عصر الجد الاول لعائلة مشافة فنقول

الفصل الثاني

في مساحة لبنان القديمة

لبنان سلسلتا جبال الاولى داخلية تدعى لبنان الشرقي والثانية ساحلية تدعى لبنان الغربي وتبديء من حدود آسيا الصغرى وتنتهي بحدود حيفا وجبال اليهودية وبينهما التلول والمفاوز الفسيحة التي قيل عنها انها تدر عسلاً ولبناً واعظم النقط التي جرت فيها حوادث هذا الكتاب هي حاصبيا وراشيا من اعمال الجبل الشرقي ودير القمر وزحلة والمختارة وصيدا وصور وعكا من اعمال الجبل الغربي ومن اهم القرى الواقعة في الجبل الشرقي حاصبيا وراشيا وكانتا مركز حكومة الامراء الشهابيين

ومن اهم مدن الجبل الغربي صيدا وعكا وبيروت وصور ودير القمر وكانت صيدا مركز الولاية وعكا في غنى عن وصفنا فهي اشهر مدينة دارت فيها رحى الحرب وأهرق على اسوارها دماء الالوف من البشر فالتاريخ وحده كفيل لحفظ ما دار فيها من المواقع الهائلة . فنابليون العظيم بعثه مطامع الاشعبية لذلك حصونها ولكنه رجع بالفشل والخيبة

و بيروت كانت قبل انفصالها عن الجبل وبعده مدينة تجارية لحسن موقعها الجغرافي

ودير القمر كانت مركز حكومة امراء شهاب وخصوصاً كبيرهم واعظهم مقاماً الامير بشير الذي بعد نفيه الى جزيرة مالطة عرف بالمالطي . والمدن المتقدم ذكرها هي اهم الامكنة التي لها علاقة بجمادات تاريخنا وفيها جرت معظم وقائمه وفيها سيرت الجيوش لاختراع لبنان واذلاله وفيها عقدت المجالس والمؤامرات السياسية على سطوة الامراء واضعاف شوكتهم الى آخر ما هنالك من الاعمال الجائرة والسديدة كما يرد في حينه .

الفصل الثالث

في سكان لبنان الاولين

يقسم علماء الاجتماع الانساني الانسان الى اربعة اصناف القوقاسي والمغولي والزنجي والاسمر ولا يهمننا من هذه الاصناف غير اولها اي القوقاسي لان سكان لبنان منه

ولامشاحة في ان جبل لبنان وارضيه الفسيحة وثرثه المخصبة كانت آهلة بسكنها الناس قبل زمن التاريخ بقرون متطاولة

والعلماء متفقون على ان جنة عدن التي أوت الانسان الاول موقعها اما في ارض شنعار على حدود الفرات واما في ارمينيا وسواء كانت في هذه ام تلك فهي على تخوم سوريا ولبنان ومن الادلة القاطعة على وجود الانسان في تلك الامكنة قبل فجر التاريخ قلعة بعلبك فان في شكل بنائها وهندسته ما يدل على قدميتها فهي اندم من اهرام الجيزة بمصر . ومما تقدم يتضح لك ان اسلافنا كانوا على جانب عظيم من الادراك في فن البناء والمدافعة وآثارهم الباقية لهم التي عجزت عن ابادتها السنون والعناصر تشهد لهم بالمقدرة وتهزأ بالابنية من نوعها التي اقامها وقيمها اهل هذا العصر . ولكن الى اي عصر بالقدم يمتد تاريخ تمدنهم لا نستطيع اثباته في هذا المقام

الفصل الرابع

في سكان لبنان بعد الطوفان

لنا في التاريخ هداية ورشاد نقصها نتمياً للفائدة التي نتوخاها . عرفنا حينما انفجرت انوار التاريخ على المعمور عموماً ولبنان خصوصاً ان جماعة من بني سام بعد خروجهم من الفلك هاجروا الى سوريا ولبنان . ثم لحق بهم ولد حام وكان ذلك قبل الميلاد بقرون عديدة وبعد ذلك بمدة قدم ابراهيم جد اليهود مع افراد من حاشيته فالساميون اقدم من سكن سوريا ولبنان وامتدت تخوم عمرانهم الى شطوط بحر الروم . ومن المدن التي شادوها وتوطنوها جبيل وبيروت وعمكا . وفي الداخلية مدن وقرى كثيرة العدد اشهرهن دمشق وبلبك وحلب وحماة .

اما الحاميون لما راوا ذلك من الساميين اندفعوا بعامل المزاحمة فاقبلوا من بابل والعراق وابتنوا لهم من المدن صيدا وصور وطرابلس والبسترون واللاذقية وطرسوس وغيرها ومن المدن في الداخلية حمص وكركيش واورشليم وبعض احياء من مدينة بلبك وخصاصون تامار وسادوم وعمورة .

الفصل الخامس

في ان المزاحمة وان تكن علامة العمران فهي تودي الى الفتنة وذلك لما بين بني سام وحام من المزاحمة والمنافسة في العمران التي سببت لكل فئة منهما ميلاً الى استفراغ جهدها وقواها تمحوز على السبق في مزاحمتها ومن البديهي ان المزاحمة اذا وقعت بين قوم او امة ادت الى الاستعمار والتطرق الى المدينة وقد نتوغل الامة المزاحمة في ضروب الابداع والتفنن حتى تبلغ حدّاً تفرغ به جمعيتها وتفني اعاضم اموالها وهي تكون شجرة في سكرة الجلد والمزاحمة الى ان يقوم عليها بعض افرادها ويطالبونها بالحساب عن اعمالها ونتيجة ما وصلت اليه فنعلموا الضوضاء ويكثر اللغط وتنظاها الطائفتان بالاسبقية وتمتدح افراد كل امة اعمال امتهما وتباهى بها على سواها وعند المقابلة يتبين الافضل منها والانسب يبقى . ولو كان الانسان مطبوعاً على الافرار ببطائه وسقطته عن رضى وتعبدته ويعان الحق متى رآه وعرف بحله سواء كان الحق بجانبه

او بجانب خصمه لما كانت الحروب التي ذهب وبذهب بها ملا بين من النفوس البريئة في
 الهيئة الحاضرة ولا قامت الدين والمخاصة بين البشر . ولكن لسوء حظ العائلة البشرية
 خلق الانسان مطبوعاً على محبة الذات والانانية يرى الحق بجانب خصمه ويتنازل عنه
 — ذلك او مثله حدث لبني سام وحام عندما اشتدت مفاعيل البراحمة بينهما وافضت
 الحال الى تخاصم وتنافر وعداء واحراق دماء الالوف من رجالهما بعد ان كانتا على وفاق
 ووثام فقس على ما تقدم ما تجري عليه في يومنا هذا الدول وامم الارض فاطبة تر
 الاصابة معنا فيما قلناه والله الموفق الى السواء

الفصل السادس

اذا كان القتال وانما بين امة واخرى وهجم عليها عدو تعاضدنا على التنكيل به
 والسبب في ذلك ما يكون للامة المتقاتلة من الحق والحق في صدرها على خصمها
 وقد اوجدهت بها محبة الفرد في السلطة والسيادة على اقرانها ولما كانت هذه الاماني من
 اوليات امانها فهي تسترخص كل عزيز لديها في تحقيقها ولا ترضى في تنفيذ ما ربهها
 والبغش في ما يحول دور باوغها ما تشتهي بسنك آخر نفس من حياتها ومما لا ريب في
 حدوثه اذا كانت الحرب واقعة بين امة واخرى ودهما عدو انهما تتكاتفان الى البغش
 به والفتك بعدوه وحاميته ذلك ما حدث لبني حام وسام وهما في حرب سجال اذ دهمها
 البابليون والاشوريون في قيادة بطاهما سرجون الاول فانضمتا بداً واحدة على التنكيل
 بخصمهما والدافع لهما على ان ذلك الانضمام ميل غريزي بالانسان وهو حبه اظهار
 مقدرته ولو سحق بها انفس بريئة وميله الى البغش في الحوائل التي تصده عن تنفيذ
 رغبته في خصمه فبنو حام لما رأت العدو مقبلاً نحوها حولت سهامها عن بني سام اليه
 خوفاً من انها اذا ترددت لحظت عن ذلك تحسبه بنو سام عامها وجلاً وجبانة وهكذا قل
 عن بني سام . ومما حدث لهؤلاء القوم هو من حوادث يومنا وحدث في كل زمان ويمكن
 وقد تمكن اهل بابل واشور من اخضاع بني حام وسام قبل الميلاد بقرون وارغموها على
 دفع الجباية والغرامة الى ان تعززت لهما القوة وتوفرت لديهما النجدة فنقضتا نهضة
 واحدة على طرد اولئك الفاتحين وقد تم لهما النصر بعد حروب طال امدها

الفصل السابع

في اجتياح المصريين سوريا ولبنان

وكان ذلك في نحو القرن الثامن عشر قبل الميلاد لما زحف المصريون بقيادة تحتمس
وابلوا بلاءً حسناً ووضعوا على سوريا ولبنان الجباية . ولكن ذلك لم يطل حتى قامت
رجال سوريا ولبنان وطردهوا المصريين من البلاد واذ ذلك كتب المصريون معاهدة
هجوم ودفاع مع امراء سوريا ولبنان وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد حمل رعمسيس
الثاني بطل مصر المشهور على سوريا ولبنان واخضع الحثيين واخذ منهم الجزية لكنه
عجز عن اخضاع امراء لبنان خصوصاً شماليه حيث اهدن وبشري فوقفتنا بوجهه وردتا
مطامعه وقد كاذ يفرغ قواه ويفني رجاله من ارساله النجدة وراء النجدة واخيراً
ارتضى الفريقان ان يكون له السلطنة الاسمية على تلك الربوع فقط

وما لبث رعمسيس ان آب الى مصر مدحوراً وعلى غير ما كان ينتظر ورضي ان
يتخذ ملك سوريا الحثي صديقاً فابرم معه معاهدة دفاعية وبعد زمن ترك الجندية
وبعد خروج المصريين انقسم السوريون الى قسمين قسم استقل بحلب وكر كيش
واعالي سوريا يترأسه الحثيون والقسم الثاني الكنعانيون استقل بلبنان وسواحل سوريا
البحرية وفلسطين وبعض بلاد العرب ثم انقسم الفينيقيون الى امارات صغيرة نازعت
بعضها بعضاً وكانت اقواها وافضلها الباقية

الفصل الثامن

في اجتياح موسى فلسطين

وبينما كانت القبائل المتقدم ذكرها في مناوشات وخصام اقبل عليها اليهود
ويشوع بن نون فدوخوا بلاد فلسطين وازاحوا الكنعانيين عن ارض اليهودية
وقد حدث للكنعانيين ما حدث لبني حام وسام من التعاضد والتكاتف حينما هجم
عليهما بنو بابل واشور فقد اجتمعوا تحت راية واحدة ونكلوا باليهود واذلواهم ثم غزا
سوريا الاشوريون واوجبوا عليها ثمانية اعوام في نهايتها رجعوا عنها بالفشل وتواصلت

الحروب بين اليهود واهالي لبنان ومرت الاعوام على مخاصمتهم الى ان عاد الاشوريون الكرة عليهم فاخذوهم على غرة وبسطت سلطة الاشوريين عليهم وزعموا استقلالهم ومن الامم التي تداوت الحكم على اهالي سوريا بعد الاشوريين البابليون فالفرس فاليونان فالرومان فالعرب المسلمون فالأتراك السلاجقة فالأكراد الايوبيون فالصليبيون فالملاليك الاولون والآخرين فالأتراك الحاليون

الفصل التاسع

الأتراك العثمانيين

الأتراك قبيلة طورانية احتلت اسيا الصغرى وبعض شطوط البحر الاسود وارمينيا ونزحت الى تلك الاقطار من اهالي اسيا التركية على حدود الصين في القرون الوسطى هرباً من وجه جنكيزخان الفاتح التتري المشهور وفي احتلالهم اسيا الصغرى وبلاد اخرى تسمت على اسمهم التجاوا الى السلاجقة المسلمين فحموهم واقطعوهم اراضي لمواشيهم وكانوا يقتصرون على الماشية من اعمالهم وهم كثير والشبه بعرب ايامنا وكانوا يعتمدون في حل ما يطرأ عليهم من المشاكل على عثمان وهو زعيمهم بل قائدهم في كل اعمالهم وكانت الحروب الصليبية دائرة رحاها في ذلك الوقت وكان آل سلجوق صحاب السيادة الاسلامية تطوع عثمان المشار اليه مع اولاده وبعض من رجاله في نصرة بعض سلاطين السلاجقة واظهر شجاعة وحسن دراية مما استدعى الانتفاة الى مكافأته وتقديره حقه فرقي الى درجة الامارة وعينوه حاكماً على مقاطعة وبعد بضع سنين توفي السلطان السلجوقي الذي لجأوا اليه فانتهز هذه الفرصة الامير عثمان وجاهر باستقلاله وقد نخدمه حسن الطالع فاسس له ولولده دولة مستقلة لم تنزل اعلامها مرفوعة الى الآن

الفصل العاشر

في فتوحات السلطان بايزيد

فالانسان كان ولم يزل لا يحترم حقوق جاره وفي امكانه الاستيلاء عليها فالسلطان بايزيد لما آتس ضعف المملكة الرومانية الشرقية واقترابها الى الهرم جمع شتات رجاله ونفخ في صدورهم روح المجد والحمية فتمألبوا ورفعوا الاعلام وزحفوا على المملكة الرومانية وهم يستطيون الموت في بناء مجدهم الذي كاد يذهب منهم ضحية على مذبح الشقاق والمشاكسة فدوخوا اكثر ايلاتهم ما عدا عاصمتها القسطنطينية التي كادت تدخل في مطامعهم لولم يعترضهم تيمورلنك الثري المشهور بين قواد العالم اذ ذلك ويصدهم عن متابعة فتوحاتهم وقد جرت بينهما موقعة عظيمة في انقره اسفرت عن وقوع السلطان بايزيد اسيراً بيد تيمورلنك فقبض عليه واخضع رجاله وبعد ذلك خلا له الجو فاستولى على مملكة الترك وتمكن من جمع الجباية من مصر وملك الروم واسكره النصر فقاده الى فتوح الصين لكن المنية عاجلته وهو في الطريق ونوفي السلطان بايزيد بعد وفاة تيمورلنك بمدة قصيرة

الفصل الحادي عشر

في ان الملك المستبد تموت دولته بموته

كان لتيمورلنك الهيبة والعظمة بين رجاله حتى كانت ترتعد فرائصهم عند مواجهته فتفرد برأيه واستبد بحكمه لما ناله من النصر في فتوحه والطاعة العمياء من رجاله وكان يأنف من مكاملة اخص رجاله في أهم الشؤون وكانت مملكته بما اضاف اليها من الممالك متعلقة به رأساً لذلك لما انتشر خبر وفاته بين رجاله وسائر مملكته تقوضت اركان سلطته ودكت الى الخضمض لانه لم يكن بين رجاله رجل به الكفاءة لادارة شؤون المملكة فتبعثرت ولعبت بفتوحاته ايدي سبا ولو كان تيمورلنك في حياته قرب اليه رجلاً او بضعة رجال وكان يتظاهر بالاعتماد عليهم في حل المشاكل لحفظ لهم في مماته رهبة في قلوب جنده وساعدهم على احياء مملكته وتعزيز شوكتها الى ماشاءت اللقادير ولما رأت الاتراك وبقية الممالك التي اجتاحها تيمور وملكها ما وقع لجنوده بعد وفاته جاهدوا

استقلالهم ورفضوا ان يكونوا تحت سلطة النتر . اما الاتراك العثمانيون فاقاموا عليهم اميراً من سلالة الامير عثمان وطابت لهم الفتوحات ومد سلطتهم فاجتاحوا القسطنطينية وتملكوا على بقية الدولة الرومانية . وبعد ان عرفوا بطشهم طلبوا سوريا بقيادة السلطان سليم الفاتح فاستولوا عليها وعلى مصر وفيها بقية الخلفاء العباسيين فبايعوه بالخلافة العربية فاصبح اعظم ملوك الاسلام بطشاً و سطوة واعرفهم نسباً و صلة

الفصل الثاني عشر

في امراء المماليك البحرية

هو لاء الامراء يقال لهم مماليك البحرية نسبة الى بحر النيل لانهم كانوا يقيمون في جزيرة من جزره جعلوها حصناً لهم فهو لاء المماليك وضعوا ايديهم على مصر بعد الدولة الكردية الايوبية وكانت السلطة نداول بينهم لا عظمهم سطوة وكانت سوريا تابعة لهم ولما اذلم السلطان سليم واخرج الدولة من ايديهم عينهم جواسيس على رجال دولته في مصر وسوريا فظلوا في خدمته ولكن مطامعهم كانت تحذتهم بطرد العثمانيين وارجاع دولتهم الى الوجود . ولما درت الدولة العثمانية بما يضمرونه في صدورهم عليها من الحقد او عزت لرجالها في قطع دابرهم وراحة البلاد من شرهم ولم يتمكن من تنفيذ اوامرها الا سنة ١٨١١ على يد محمد علي باشا فقد محا آثارهم بالمكيدة المذكورة . اما قبل ذلك فكانوا يترقبون الفرص لاعادة سيادتهم حتى قام بهم علي بك الكبير وادعى قيادتهم وقام بهم بعد ان در بهم على الحرب وكفاح وطرد الاتراك من مصر وامّ سوريا وغيرها من ايلات الدولة العثمانية وكان النصر حليفه ولما رأت الدولة سطوته وشعرت بانتصاراته العديدة اوجست منه فبعثت اليه صهره لينتكم به غدرًا فتقبل المهمة التي دعته اليها الدولة ومضى قاصداً حماه وبعد ان غدر به وناز بعمله الشنيع حدثته نفسه ان يتولى قيادة الجيش ويحل نفسه محل عمه . لكن الدولة اوفدت جيشاً كبح مطامعه وغل يده و بقيت مصر في حوزة المماليك وتحت رعاية الدولة العثمانية الى سنة ١٧٩٨ حيث اقبل اليها نابليون الاول فانتحاً بجنده الفرنسي ثم خرج هذا الجند منها سنة ١٨٠١ وعادت الى كنف الدولة وتولاها محمد علي سنة ١٨٠٤

وهو الذي قرض المالك سنة ١٨١١ كما تقدم

الفصل الثالث عشر

نوع حكومة سوريا في عصر حوادث هذا التاريخ

ومما يجدر بنا ذكره هو ايدع كتابنا هذا لمحة اجمالية عن نوع حكومة الاتراك بسوريا بعصر حوادث هذا الكتاب ليحيط القارئ بها علماً ويعلم ما كانت حالة الحكومة القانونية والمالية وكيف كانت تضبط امور الدولة بذاك العصر ونعتمد هنا على ثقات المؤرخين وخصوصاً تاريخ حسر اللثام عن نكبات الشام فنقول : مما لا يختلف فيه اثنان ان العدل اساس الملك بكل العصور الغابرة والتي سوف تأتي . فالدولة التي ساد العدل فوق ربوعها وعمت المساواة افرادها تنمو وترتقي وتوسع املاكها وتعم سطوتها ويتوافد القوم لطلب نصرتها والاحتماء بظلمها من مغالب الاستبداد والجور وحسبنا ما رواه التاريخ شاهداً لما قلناه وما نراه يجري بالممالك الحية دلالة قاطعة على ان العدل والمساواة امام النضاء ودستور الدولة واعطاء كل ذي حق حقه هي اساس الارتقاء . على هذا الطريق مشيت دول التمدن والارتقاء القديم وعليها تجري الدول الحية بايامنا

وعلى هذا الطريق تمشت الدولة العثمانية باول ادوارها في عهد السلاطين العظام الفاتحين الذين وسعوا نطاق المملكة واجروا العدل والقسط في الرعية فتهاوت للخضوع لهم الربيع والوضيع حتى ارتقت دولتهم من مقاطعة صغيرة الى مملكة واسعة الارحاء وهضى عايتها عصر كانت به اعظم دولة بالعالم على الاطلاق

وكان يستظل عشرات الملايين من البشر بظلمها الزاهر ومجدها الباهر يتسابقون الى احراز حمايتها من كل صقع وناح

انما عند وقوع حوادث كتابنا هذا كان العدل والقسط قد تركا ربوعها لفساد الامور بين وجهالة الشعب الذي بفضل عسف الحكام وجورهم واعل سيره للوراء في عصر حوادث هذا الكتاب لا يختلف عن الشعوب الهمجية باواسط افرقيا الا ببعض الشرثون الثانوية

كل ذلك من فساد الحكام وتشويش نظام الدولة وخروج مهايتها من صدور اولئك

بين كانوا يعيشون في الارض فساداً
 كان همهم ابتزاز مال الرعية وتعزيز الحمجية ومحااربة العلم واستئصال شأفته حتى
 لا ترى في سوريا واحداً من مائة يحسن مبادئ القراءة فما قولك بالعلوم الاخرى
 كان كل منهم دأبه جمع المال والتعم بالملذات وانيان المحرمات كيف ما كانت
 يقعده عن فصدته دين ولا ذمام ولا يعتبر نظاماً وكثيراً ما كان يجرد سيفه لقتال
 ادويه ويرغمها على الرضا بالسلطة الاسمية فقط لقاء مال يدفعه لها
 فكانت الدولة لا يهتمها من امور الرعية شيء شقيت ام سعدت اذا كانت تدفع
 المال المطلوب لها فاستبد الحكام وعظم شرهم وكبر امرهم واصبح من المستخيل ردهم
 فتأصل بهم هذا الخلق حتى تحتلوا به وبئس المسير والمصير

الفصل الرابع عشر

تقسيم الايالات

وكانت البلاد السورية تقسم الى اربعة اقسام ادارية او اربع ايالات • الاولى
 ايالة حلب والثانية آيالة دمشق وهذه كانت تتناول اواسط البلاد مما يلي الشرق •
 والثالثة ايالة صيدا او بيروت وكانت تتناول اواسط البلاد مما يلي الغرب • والرابعة
 ايالة القدس الشريف

وكان لكل ايالة وال مستقل عن الآخر يصعد بامر الباب العالي رأساً في امور
 — الا ان البلاد او الايالات كانت تخضع عسكرياً لسلطة قائد عام يقيم بدمشق
 ويدعى مشير العرضي الهمايوني الخامس • وكان هذا المشير وظيفته ادارة
 جنديتة بسوريا كلها ولم يزل هذا النظام للآن

وكان رجال الجند بذاك العصر الا نقر صغير منهم اجانب اخلاطاً من ولايات
 باوربا وبلاد الاتراك باسيا الصغرى والعرب بينهم قليلون لان النظام لم يكن

فيهم

يكان لكل ايالة مجلس شوروي مؤلف من بعض علماء المسلمين والوجهاء
 النفوذ والباشا يترأسه الوالي • ومن شأنه النظر في الامور المالية واحوال الجنديتة
 ذلك من المهام

وكان الحكم في الدعاوي الجمائية منوطاً بتناضي ناشي ومركزه في باب السراي
الاميرية ثم بالتعكجى باشي وهؤلاء الجماعة كانوا رؤساء القراقولات في المدينة . كانوا
قوم أميون لا يعرفون الكوع من البوع يحكمون بحسب ما تقودهم
وافكارهم وكية الرشوة التي يدفعها اليهم المجرمون ولم يكن لهم قانون يعرف ولا
نظام يوصف

هكذا كانت تضبط الحقوق بذلك العصر الى الاحكام الحقوقية وما شابهها فالذي
يسلم من تداخل الوالي وارادته مجال للشرعية — اما الخصوصيات فكانت تتساقط
بطوائف الاديان تحكم بها كل طائفة حسب تقاليد دينها

الفصل الخامس عشر

في اسباب الثورات والقلاقل

وكانت القلاقل والثورات والاعتداءات متواصلة على التتابع ومعظمها يقع على
المسيحيين واهل السكينة من فقراء المسلمين . وكان اكثرها يقوم به الجند وكانت
رجل الجندي بالاجمال جماعة غطى الجهل والحمق ابصارهم وضربت القحة اظنابها
فوق رؤوسهم . وكان انفجور والفسق ديدنهم اذ لا رادع يردعهم ولا نظام يقيدهم
ولا قوة تصدهم قهاروا بالاثوم والدناءة لدرجة الوحوش الضارية

وكان الجند يقسم الى ثلاثة اقسام اولى منها اثنان وطنيان يلعبان بالوجاقات وهما
وجاق الانكشارية ووجاق القديقول والقسم الثالث مأجور يحضره الولاية كحرس
خصوصي لهم . وكان هذا الوجاق يؤلف من اخلاط الامم كالغاربة والتكارنة والترک
والدلاة والارناووط وغيرهم

وكانت المداوة متصلة بين هذه الفرق او الوجاقات وقد قامت بسببها حروب كثيرة
بين هذه الاقسام المتضاغنة هرقت بها دماء غزيرة فتسبب من جراء ذلك مخوف
وويلات عديدة وقعت على الشعب — حيث كان هؤلاء الرعاع يهبون الدكاكين
وتقفل الاسواق وتوقف حركة الاعمال ويستحيل على ابناء السبيل الخروج من
بيوتهم لتحصيل طعامهم

ومرات عديدة كان بعض المدن السورية مرسحاً لنوراتهم وتطرفهم وكثيراً

ما اوقدوا النار باحياء المدن السورية وخصوصاً دمشق وحلب ولا ينفذ المشكل الا
بتدبير الولاة او بعض الاعيان . ولا تلبث ان تعود الثورة الى حالها الاول بعد ايام
قائمه . كانت احوال الشعب السوري بنذاك العصر
وكان الدافع لذلك عدم مقاصة المجرم وقلع جرثومة الفساد واكراه الاوباش
على احترام الشريعة ولاجل هذه الاضطرابات ومثلها كنت ترى شوارع المدن
وحاراتها كثيرة الابواب العظيمة . تقفل وقت الثورات وقاية لمن ورائها
وكان اكثر رجال الوجاقات نفوذاً الانكشارية لكثرتهم وشدتهم وصدقاتهم للوالي
ويأتي بعدهم القبية قول وغيرهم وكان زعماء هذه الفئات يلقبون بالاغوات وكانوا يرسمون
على ايديهم الوشم شعار الفرقة التي ينتمون اليها حتى كانت القهاوي التي يتردد اليها
هؤلاء ينقش فوق بابها اسم الوجاق الذي يتردد اليها
ولم يكن لهم نظام عسكري يرحمون اليه . وكانت الاحياء المدنية تخضع للاغا الذي
يقيم بها وهذا يخضع الى زعيم الوجاق المنتخب من الاغوات لشدة بأسه او لصداقته
لوالى او غيره

وكان الاحداث والنساء لا يتجاسرون على المرور بمجتمعات هؤلاء الجهلة خوفاً من
الاغتصاب وكان ذلك عظيماً على الرعية وكان المنتقمون اليهم كثيرين لعناية الحماية
او للمشاركة بالقبائح وما شابه

وكان ما يصلهم من مال الخزينة لا يكفي نفقاتهم لكثرة اتباعهم فاضطروا
للعمل . فكانوا يذهبون للعمل مثل بقية الناس وعليهم السلاح ليسهل لهم الانضمام
الى فرقهم متى دعت الحاجة

اما الخاملون منهم واهل الفسق كانوا يجتمعون في القهوات ويعاقرون الخمر وبعثدون
الى القوم ويصادرن اموالهم ويفترسون نساءهم واولادهم . وكثيراً ما كانوا يقتلون الناس
بسيب كنجربة سيف او بندقية باحد المارة ولم يخلوا من بعض اهل الشهامة والمروءة
كانوا يعدون على الاصابع

لهذه الاحوال الفوضوية جعلت الرعاع تتأدى بالقحة والنجور لدرجة قصوى
بسبب ضعف الحاكم وقصوره عن ردع القوي عن الضعيف وكانت الباعث على اظهار
هذه الافراد فكثير بنذاك العصر الجبابرة الاشداء من مسلمين ونصارى من غير المنتمين
لحزب الاحزاب الجندية والملكين على انفسهم وشدة بأسهم

وكان القوم يحسبون لهم الحساب ويخافون بطشهم ويحترمونهم ويدعونهم بالمعتبرين وكانت هذه الفئة صاحبة مروءة وشهامة يحكي عنها حكايات عديدة تظهر مروءتها للعيان نسبة واحدة منها للقياس وترك الباقي لتصور القارىء

قيل ان رجلاً من وجهاء المسيحيين مرت زوجته بالشارع مقبلة من الحمام فنظرها احد الانكشارية فراقت بعينه فتعقبها لبيتها وبعد ان علم المكان وسأل عن زوجها قيل له انه ' يعمل بتجارته فقصدته وقال له : يا فلان استعد لتدبير عشاء ومسكر وقل لزوجتك ان نتحضر لاني سوف اضيفكم بعد ساعة

ففهم الرجل ما يريد هذا الوغد من هتك عرضه فكبر عليه الامر وكان له صديق من الجبارة مسلم فقص عليه مصيبتة فقال له : افعل ما امرك به وسوف احضر لبيتك واريجك من شره . فاقبل الانكشاري حسب وعده فاكل وشرب الخمر وبينما هو يستعد لهتك عرض الرجل حيث طلب المرأة لتسقيه الخمر ذهب الجبار واحترز رأسه وعلى هذا المنوال كانت تجري الاحوال



الفصل السادس عشر

نظر عام في حالة المسيحيين

وكان التعصب الديني بالغاً اشدّه بشعب ذلك العصر حتى تجاوز به القوم حدود الافراط . وكان المرء منهم يحسب كل رجل غير متدين بدينه جازله قتلته والاعنداء عليه لا اثم في ذلك ولا تريب في ابتزاز ماله وعرضه . وانتشرت هذه الروح حتى عمت السواد الاكبر من القوم . وكان فريق من العلماء واهل التقوى يرون معاملته الذمي بالحسنى تبعاً لقواعد الدين الشريفة — ولكنهم لم يتوقفوا لردع الرعاع في زمان عمت فيه الفوضى وساد الجهل والهمجية على عيون القوم

وكان المسيحي عرضة للاهانة والذل بينا مرّ او حلّ وكان المسلم يسيء معاملته لدرجة مفرطة حتى الف الذل كما الف مذله اذلاله . فكان النصراني حينما مر وتوجه ينعت بالكافر ويشتم صليبه ويحترق وقلب عمامته ويدفع ويرفس الى غير ذلك من الاهانة

وكان اذا مرّ في حي المسلمين لحقه صبيان الازقة معبرين قائلين له « نصراني

كلب عواني . رقبوله بالصرامي . . . قالت امه فينه . ضربة ثقلع عينه « وغير ذلك
من القبائح
فكان يمتثل كل هذه الاهدانات بصبر لا يفوه بكلمة دفاع ولا يقدر على غير
الاستجارة بتقي مسلم اذا صدفه فيحاول هذا ابعاد الصبيان عنه والا فلا
وكان المسلم اذا مر بمسيحي يقول له : اشمل . . . يريد بذلك ان يسير عن يساره
فيفعل صاغراً . واذا كثرت الناس بالطريق بين ذاهب وآيب كثر شقاؤه ولا يعلم
كيف يذهب فيدعى للطورقة فيطورق اى يمشي في الطاروق . . . والطاروق عبارة
عن منخض في وسط الشارع تسير به البهائم ينحط عن رصيف المارة قدماً تقرباً
وعرضه من اربعة الى ستة اقدام تُجمع به الدواب محملة وفي فصل الشتاء يجتمع به ماء
الشتاء وفي الصيف الاقدار . وكان يصادف هذا التعيس الاماً مبرحة من
الحيوان والانسان على السواء هذا الحيوان يدفعه وذاك يزحمة والسائق بوخزه وغيره
يلكمه . وهنا نمسك القلم ونترك للقارىء تصوير حالة هذا التعيس وكيف كان يسام
العذاب من الحيوان والانسان ويعامل اقباح من الرق
وكان كثيراً ما يستخره اصحاب الدكاكين لقضاء حوائجهم . او يستعملون اهانتهم
واسطة لازهاب ملههم وتفريج كربهم فيناديه بعضهم تعال يا معلم فيذهب اليه فيصنعه
ويكفنه ان يذهب بحاجته او يلبسه حذاءه او يشتغل عن شغلاً ما - واذا كان
مازحاً يمس في اذنه شتماً أو اهانة
او يأخذ عتمته ويصفعه على ام رأسه ويرمي العمة الى جاره وهذا الى الذي يايه وهلما
جرأ ويقول له : اذهب وخذها منه فيذهب فيكررون عليه العمالية الى ان يملوا
فيتركوه - وكانت تلك العمامة كبيرة مستحكمة الربط كي تتغلب على ما تقدم وتقي
ضمنها ورقة الجزية لانه لو سار خطوة بدونها عرض نفسه لخطر الامانة لانه قد
يفتش كل يوم مراراً وتكراراً وويل له ان لم يبرزها عند كل سؤال عنها
وكان قانون الحكومة اذذاك يكره المسيحي ان يحمل على كتفه كيساً يسمونه
كيس الحاجة وليس له ان يخرج من بيته بدونه والمقصود من هذا الكيس ان يضع
به من الاغراض وحوائج المسلمين ما يستخره هؤلاء بحمله من بقول - يضار وغيرها
واتفق غير مرة ان النصراني كان يقضي بومه مسخراً ببعض الاوقات رغماً
عن كونه صاحب عائلة تعيش من عمله ومضطراً للعمل لتحصيل قوتها ومتى قضى

يومه مسخراً باتت تلك العائلة بدون قوت او تقمات على صدقات اهل الرحمة . . .
وتكرر عليه الاذلال حتى الفه وحسب نفسه خاق ليكون رقاً لقوم ليس بتلوهم رحمة
ولا حنان

وكانت اموال المسيحيين مطمناً للحاكم وغيره فلا يعدم من استحال الاعذار
لاستزافها فان لم تكن بالخراج والجزية فالقروض والمطالبة وما شابهها ومن لم يدفع
سجنه حتى يدفع او يقتله وكثيراً ما قتل جماعة منهم خنقاً وشنقاً لكونهم لم يدفعوا
ما يطلب الحاكم منهم القروض وغيرها . ولم يكن الحاكم وحده يضغط على النصراري
مالياً بل هناك كان يؤدي جزية لزعماء الرعاع من المسلمين ليركوا له حياته ثم الى
المتشردين من (الابضيات) واهل البأس من الذين متكيب على كسبهم هذا فضلاً عن
مغارم الجند واصنافها العديدة وقد لا يمر به اسبوعاً الا يدفع به غرامة وكانت الحياة
ضعبة على من رزى بحكم الوحوش الضواري الذين سولت لهم النفس انه يجوز لهم
تعذيب من كان على غير دينهم

وكان اكثر التعدي الذي يقع باهل الذمة من الجند والاولاد باش ورعاع الاسلام
كثيراً ما اضطر بعضهم لاعتناق الاسلام هرباً من الحيف والذل وفات هؤلاء ان
الدين لا يقوم بالاكرام بل يأمر بالحسنى والمعروف لمن لا يتدين به وقد كان هناك
جماعة من الفقهاء المسلمين لم يرضوا بهذه المعاملة لكنهم كانوا القليل من السواد العظيم
ولذلك لم يجد منهم نفعاً ولا رد سهام الرعاع عن المسيحيين

وقد حظروا على النصراري لبس شيء يقترب من الملون ولو كان لهم مقدرة مادية
على الحصول عليه ولا ركوب المطايا الا بطير ركوبهم فهذا كان يسمح له بالركوب وحصل من
جاء ذلك امور تترق منها الاكباد ويتفطر لها الفؤاد كظلم وشتم وهتك اعراض
وسلب الروح والمال . ومن غريب عادات ذلك العصر انهم كانوا يعتبرون اذلال
المسيحي تديناً . ولا ثبات ما تقدم نثبت منشور درويش باشا وهو واحد من مئات
تقدموه وعقبوه فيعلم القاري العزيز منزلة اولئك التمساء وبقيس عليها حالة غيرهم من
تقدمهم وعقبهم وهذا هو بنصه الحرفي :

« صدر مرسومنا هذا المطاع الى مشايخ واختيارية اهالي قرية سيدنايا المسلمين
ليجروا بحسبه ويعتمدوه فالبادي هو ان النصراري عندكم عمال بقلدوا الاسلام في
ملايسهم وعمائمهم ونعالهم وتعدوا درجاتهم وخالفوا فهذا ضد ارادتنا ولم يعطي به رخصة

منا فبناءً على ذلك بعثنا لكم مرسوماً هذا لاجل ان تحذروهم وتنذروهم من عواقب ذلك
 حالاً وتنبهوا عليهم لا يلبسوا الا ملبوس ازرق وعمامة سوداء ونعال سود ولا تدعوهم
 بقلدوا المسلمين بشيءٍ لانساء ولا رجالات وان بلغنا ان واحد تعدى الحدود المذكورة
 فماله لا يعني عنه وخطيئته في عنقه ونطلع من حكم وحقه فبناءً على ذلك ارسلنا لكم
 مرسوماً هذا من ديوان الشام على يد رافعه فخر اقرانه جندي باشي ارقداش محمد اغا
 فبوصوله تعملوا بموجبه وتناشوا مخالفته اعلموه واعتمدوه والحذر من الخلاف
 في ١٩ رمضان سنة ١٢٣٦ هجرية »

الخطم

محمد درويش

هكذا كانت حال المسيحيين في عصر حوادث هذا الكتاب واكثرها كانت تقع
 ودامت على هذا المنوال لفتح ابراهيم باشا سوريا فرفع عن اعناقهم الاستعباد
 والاضطهاد

الفصل السابع عشر

في نسب امراء لبنان ومشايخه

من اعظم امراء لبنان بعد امراء معن المنقرضين امراء شهاب الذين يرجع نسبهم
 الى اقدم عصور الاسلام . ولما قدم العرب لفتح الشام بقيادة ابي عبيدة بن الجراح
 وخالد بن الوليد قدم معهم بطن من بني مخزوم الذي يرجع اليه تاريخهم بالشام
 وقد توفي جدهم الاول بحصار دمشق وبعد الفتح اقطعهم الخليفة ارضاً واسعة في
 حوران واقاموا في مدينة شهباء من اعمال جبل الدروز ومنها اخذوا لقبهم المتعارف
 بالشهابيين

وفي تلك الاعصر امتنعت امراء لبنان وولاة اموره عن طاعة دولة العرب فبعثت
 اليه بني مخزوم وغيرهم من بطون القبائل العربية وامراء معن ليرغموا امراء لبنان على
 الطاعة للدولة وكانت الدولة ترسل النجدات وتعد صاحب الغلبة بالولاية على لبنان وما
 يتبعه من الولايات وقامت الحروب اعواماً عديدة ولم يكن النصر ليمت لفريق الا ويعبس
 له الى ان دالت دولة امراء المردة وقامت على انقاضها دولة امراء معن واخلفت دونه امراء
 الشهابيين

اما المشايخ فدرجات متفاوتة فمنهم الحاكم الكبير والصغير
ولفظه شيخ عربية وهي لقب يراد به وصف وجيه القوم او زعيمهم واحياناً يقصد بها
الطاعن بالسن

وفي الطبقة الاولى بين مشايخ لبنان ممن حكموا في ناحية الجنوب بيت علي الصغير
فامتدت حكومتهم من جسر انقاسمية الى النهر الليطاني بما يتخلل هذا القسم من القرى
والمدن ومن بلاد بشاره الى حدود الكرمل ومن الكرمل وناحية صدمع مدينة عكا
كانت تحت سلطة مشايخ الزبادنة ومن النهر الليطاني من ناحية صيدا فاقليم الشوير
وبلاد الشقيف كانت بيد مشايخ الصعبة الشيعيين او المتأولة
ومن خارج صيدا بميل بيتدي اقليم التفاح وهو آخر حدود لبنان جنوبياً وتحكمه
آل شهاب من صيدا لحدود ولاية طرابلس شمالاً

الفصل الثامن عشر

في حكومة لبنان وسوريا الاهلية واستعباد الشعب

فالمشايخ الذين تقدم لنا الكلام عنهم كان يتولى امرهم شيخ منهم توليه عليهم الدولة
بعد ان تعرض عليه الجباية وتطلق له التصرف باحوال الشعب وراحته وكانت شريعة
شيخنا هذا ارادته

وكان هذا الزعيم او شيخ المشايخ يقيم له معاونين ووكلاء ويطلق عليهم اسم مشايخ
تعزيراً لهم وكان يفرض عليهم مالاً محدوداً ويعدهم ان لا يتعرض لاعمالهم فيمرحون
ويطلقون لمطامعهم الاشعبية الاعنة في مص حياة الشعب من عروقه بلا شفقة ولا
حنان وكانوا يستعبدون وبأتون المنكرات في كثير من اعمالهم الجائرة
وكان الشعب المسكين يوردي الطاعة العمياء الى حكامه ويأتمر عنواً باوامر ولاية
ادره ولم يكن ادراكه يخوله معرفة انه ما خاق ليكون عبداً عتيقاً لحاكمه . وكانت
الدولة علة وجود هذا الاعتساف في اعمال رجالها الامناء حيث كانت تطلق للوالي
حقوق التصرف بولايتيه بعد ان تنال منه الرسم المعين وكان هذا يولي شيخ المشايخ وهذا
يولي مشايخ ومعاونين على سلب مال الرعية بما تتوصل اليه يدهم ويقدررون عليه
وكان الشعب لا يرد لهم طلباً لجهله القانون ولذلك كان كفيلاً قوياً لاملأه
بطون مشايخه وهو زعيمها وهذا مكلف باشباع بطن الوالي ومن الوالي يرسل ما بقي

عن تلك النفوس الجائعة والبطون المحاوية الى الخزينة الملتببة ومن سوء طالع الشعب
لا الخزينة ولا بطون المشايخ والوالي تعرف الامتلاء فكانت البلصات متناجعة والنهب
فائم على قدم وساق
فتأمل وما ترجوه من ذلك الشعب الذي طاب له الذل والفساد العبودية

الفصل التاسع عشر

في ان الاستبداد يذهب بالوطنية

كان شيخ القرية ينظر الى الشعب نظر السيد ويسلمه راحته فضلاً عن ماله اين
شاء وكيف شاء كما تقدم وكأن الشعب تعود الطاعة والوفاء الجبابة فنام الى الذل وحسب
لشيخه مزية عليه ومقدرة له لا مناص ولا مهرب له من جور حاكمه فكان كالنحلة
تساق الى الذبح بلا معارضة او اقل مدافعة عن حياتها ومن البديهي من شب على هذه
العوائد والفساد تلك الاعمال الجائرة - والانسان ابن عوائده ومألوفه - يستطيع
الذل والخضوع وكيف لا يذل وحالته كما عرضناها لك كيف يقدر على رد الغزاة وتلك
جامعته ومع هذا الانحطاط الذي كان فيه شعب لبنان لو قدر لزعامته الاتفاق والانضمام
ربما كان له النهوض ونض الشعب على مناصرته في رد الاتراك والاجانب غن وطنهم
وحنظوا استقلاله ولكن اين كان ذلك الشعب حتى وولادة اموره لم تكن تعلم من الوطنية
غير جمع مال الشعب والتمهار مقدرتها عليه
وبعد ان علمت حاة الشعب في عصر حوادث كتابنا صار من السهل علينا اقتناعك
بصحتها وثبوتها وما نحن شارعون بسردها

الفصل العشرون

في نشأة وسيرة احمد باشا الجزائر

جل ما نعرف عن نشأة هذا الرجل انه قدم من بشناق احدى الولايات العثمانية الى
«صرو قيل انه دعي بالجزار بعد ان شاعت اعماله البربرية ومما جاء عنه في تاريخ نابليون
بعد حصاره عكا ورجوعه عنها بالفشل والخيبة مانصه «وكان من قبل الدولة التركية وال
على عكا يدعي احمد باشا الجزائر سمي بالجزار لظلمه الشنيع وذبحه الإبرار ذبح الداج

ويعنون بلقبه جزار الغنم صاحب المقصبة لظلمه وكثرة شروره وقساوته حتى على عائلته
التي ذبحها ذبح النعاج»
وسواء دعي جزار الظلمه وغدره او كان ذلك له فلا يهيننا اثباته الآن ولما من
اعماله التي نوردتها عبرة للبصير

وكان احمد الجزار داهية كبيرة ذا مطامع شعواء وشجاعة نادرة واقدماء ورجل
مثله اتصف بمثل هذا الاخلاق تحتاج اليه الدولة وهي تفتش عن امثاله
لتجعله من اتباعها الامناء فقد بعثت استحضرت اليها المشار اليه وحالا ارسلته
الى مصر ليفتك بالامراء المماليك ويريجها من شرهم فقدم الجزار الى مصر ودخل في
خدمة فرسته ولما توطن البلاد وعرف مالكمها وكان في ذلك قد قطع الجانب الاعظم
من مهمته التي حضر لاجلها حيث توصل بدهائه الى جلب ثقة اسياده المماليك به
واجماع من عرفه منهم على محبته والاعجاب بنشاطه وحقى ينفذ ما رُب الدولة اولم وليمة
على نفقته دعي اليها جماعة من الامراء المماليك فالذي حضر منهم واجاب دعوته كان
ذلك النهار آخر ايامه لان المذكور صاحب الولاية اكثر لضيوفه من الخمر حتى فقدوا
رشدهم ثم نهض فذبح الواحد بعد الآخر الى ان قتلك بجميعهم وقد عرف
بعد ان اقدم على هذا العمل الابتدائي انه غير كاف لتحقيق امانه في اعادة مصر الى
الدولة ففر الى سوريا من وجه المماليك وحول نيته الفاسدة عن المماليك الى
امراء لبنان

الفصل الحادي والعشرون

في وصول احمد الجزار الى دير القمر

واول مكان حط ترحاله فيه دير القمر مركز الامارة حيث كان مركزها بها
حيفا وبيروت شتاء • وكان امير لبنان وقتئذ الامير يوسف الشهابي الذي كانت
تمتد سطوته على تخوم لبنان الغربي والشرقي وعلى مسافة ميل عن صيدا الى عكا
شمالاً فخص واحياناً جلب

وهذا الامير كان نفوذه على سوريا برمتها فضلاً عن شرقي لبنان وغربه حيث كان
له نسيب حاكم على لبنان الشرقي وهو مقيد بارادته

وكان غرض الجزائر التقرب من امراء لبنان لاغراض اثيمة وهي الغدر بهم وابقاد نار الفتنة بينهم وبين المشايخ

وكان يتردد على قهوة الميدان بالقرب من مسكن الامير ومن دهائه ومكره كان يتردد الى ذلك المكان باوقات معلومة طمعا في ان يراه الامير من احدى نواهد القصر وكان ظاهره يدل على المسكنة والفقر مما جعل الامير عند ما اتفق له وراه اكثر من مرة ان يبحث عنه وقد سأل بعض رجاله ف قيل له انه تركي قدم من مصر مطروداً

وللحال امر الامير كاختيه الشيخ غندور الخوري ان يحضر الجزائر اليه (وكاخية لفظة تعبر عن كاتم اسرار الامير او نائبه والشيخ غندور الخوري هو جد غندور بك القاطن بلدة عندار والمدرسة التي انشأها بطريك الكاثوليك فيها هي نفس بيت الشيخ غندور) ولما مثل الجزائر امام الامير سأل كاتم سره الشيخ غندور ان ينظر في امره ولم يكن من حضرة الشيخ الا الاعجاب والاطناب به امام الامير الذي سمح بادخاله في بطانته وربما كان رأي الشيخ الاستعانة به لدى والي صيدا لان واليها تركي مثله

والامراء كانوا يكثرون اعداد حاشيتهم واتباعهم ويرحبون بكل من يعرض لهم نفسه لخدمتهم

ولم يكفد الامير بلفظ جعل الجزائر من اتباعه حتى سر من هذا الفوز وبش له وقد امر له الامير بكسوة وجواد مع بقية ما يلزم الفارس من السلاح وعين له مكاناً لياوي اليه وقربه اليه وفي الوقت القصير اصبح الجزائر اقرب الى الامير من بقية رجاله

الفصل الثاني والعشرون

في ارتقاء الجزائر الى منصب الحاكم

ومن ذلك الحين اخذ الجزائر يعد المعدات لاتمام حياته واول اعماله كانت ترمي الى تحقيق ثقة الامير به والاعجاب باعماله التي تجعل صاحبها ان يكون ذا نشاط وحذق وقد تحققت امانيه حيث اخذ الاعجاب من الامير به مأخذه وقد رفاه الى رتبة

اغا ووجهه حاكماً على بيروت

فاظهر الجزائر حزمًا غريبًا وحكمة في منصة الاحكام يبرز بها على معاصريه ولم تتالك

الرعية عن الاطناب به والثناء عليه حتى بلغ اعجابهم به مسامع الامير فزادت ثقته به
وسر بالصدفة التي قادته اليه ولو كان للامير علم الغيب لتخلص من الجزائر وعفى نفسه
من شروزه وويلاته

ولما انسّ الجزائر ان ثقة الامير به قوية عرض عليه ترميم اسوار بيروت وحسن له
السرعة في العمل خوفاً من بطش الدولة به واستيلائها على البلاد ولم يعلم الامير ما يمكنه
صدر ذلك الجزائر من الشرور والمقاصد الفاسدة فاستحسن رأيه ووافقه على ترميم اسوار
المدينة على نفقة الحكومة وفوض اليه مراقبة العمل وفي الحال قام الجزائر ونادى بالسخرة
فاجتمع اليه عدد غفير من الاهالي وبدأوا في العمل الذي اوجبه عليهم الجزائر حاكم
المدينة وقد ناظر العمل بنفسه وانتهى من ترميم الاسوار في مدة قصيرة ولما درى الامير
به اثني عليه وانعم عليه باللقاب وكان يخاطبه كقرب اناس اليه . ولم يكن اعجاب الشيخ
غندور يقل عن اعجاب الامير باعمال الجزائر وما ابداه من الصدق والاخلاص (ولو)
كلمة يقال مع الاسف فلو دريا ان هذا الرجل سوف يجلب على سوريا مجازر وكروباً
تنفطر لها القلوب دماً لكانا اول من سعى الى التنكيل به

الفصل الثالث والعشرون

في ترقية الجزائر الى منصب الولاية وسلخ بيروت عن حكومة الجبل

ومما يجدر بالذكر ان احمد اغا الجزائر بعد ان انجز عمله من تحصين مدينة بيروت
ورأى ان الفرصة لو ثبته الاخيرة قد حانت عمل على انتهاء تعليماته ورغائبه الخصوصية الى
الدولة على يد من بثق به ولم يكن له غير ناظر قافلة البريد او سواه وفي ذلك الوقت لم
يكن بريد الدولة منتظماً كما هو عليه الآن فكانت الاخبار تصل الاستانة ببطء عظيم
وكان رجال الدولة حكام الولايات ومن شاء المخاربة مع رجال الاستانة ينتظرون قدوم
قافلة البريد المؤلفة من بضعة انفار وما ينيف عن ثلاثين جواداً لنقل البريد والمبادلة في
اثناء الطريق . وكانت الاهالي مضطرة ان تقدم لرجال البريد من طعام لهم وخبول
مع عايقتها متى شاعت السؤال عنها كل ذلك لوجه الله . وقد يموت للرعية من الخيول
في هذا الطريق عدد وافر في كل سفرة والمسافة بين صيدا والاستانة ركوباً تستغرق
اربعين يوماً ورجال البريد كانت تقطعها في اسبوع او اقل . فتأمل رعاك الله كم

كانت الاهالي تشكبد من المشقات والخسائر
 وكان هذا البريد يمر ببيروت اولاً وصيدا ثانياً وكان كلما وصل الى بيروت يظهر
 الجزار لرئيسه كل حفاوة واكرام وكان يظهر للامير انه يفعل ذلك حبا بمصلحة الجبل
 التي هي مصلحته

وفي المرة الاخيرة مرّ به مع البريد احد ثقات الدولة مرسلًا من قبلها للمراقبة
 وفحص اعمال رجال الولايات وامرائها ومشايخها وقد سر اليه الجزار نضج معدات
 مهمته ولا ينقصه لابرازها الى حيز العمل غير توليه على صيدا واذ ذاك يسهل عليه
 الفتك بامراء ومشايخ البلاد ويخضعها للدولة بعد ان يرفع عنها سلطة الامراء الحالية ولما
 بلغت رسالة الجزار الى مسامع الدولة على يد ذلك المندوب من قبلها ارسلت له فرمان
 ولاية صيدا

ولما رقي الجزار الى رتبة الولاية واصبح اليًا على صيدا لقب بالوزارة والبشوية
 وولاية صيدا تضم نصف سوريا تقريباً واصبح سيده الامير يوسف يصدع باوامره
 ويرهب بطشه

وكانت ولاية صيدا توجه حكومة الجبل الى الامير الذي تختاره من آل شهاب
 وترى فيه الكفاءة بعد ان تفرض عليه جزية مهوراً لاستقلاله الداخلي . وعلى جاري
 العادة وجه الجزار ولاية لبنان الى سيده الامير يوسف وكان بإمكانه تعيين سواه
 ولكنه راعى في هذه المرة خاطر من كان السبب في ارتقائه فابقاه بوظيفته بعد ان
 ساخ بيروت عن حكومة لبنان واصبحت تلك المدينة تحت سلطته

وبعد ان كان والي صيدا لا يحكم من الولاية غير صيدا وضواحيها فقط وما بقي من
 البلاد والقرى يحكمها الامراء والمشايخ اصبح والي صيدا على عهد الجزار يحكم بيروت
 علاوة عن ولايته المحدودة

فقبل الامير يوسف الولاية بالرغم عن كدره الشديد من اخراج بيروت عن حكمه
 وبدلاً من ان يقيم الاعتراض على الجزار ويناقشه الحساب ويرد له الكيل فيطرده عن
 صيدا ويريح لبنان منه ومن فساده ابدى شكره له وامتنانه من بقائه في منصبه
 وانى له مقاومة الجزار والتغلب عليه وامراء لبنان في ذلك الحين لاهون عن

العموميات بالخصوصيات

وسيان عندهم عمرت البلاد او خربت . لذلك نلوم الامير يوسف على تقاعده

ونعذره في عدم اظهار مقاومته للجزار والسبب الذي يحمانا على ملامته هو ما اظهره من الجبانة في مقاومة خادمه واذا كان عذره عدم الالفة ومعاذته من الرعية فوجوده حاكماً عليها يولد الالفة بين افرادها والمحبة في نصرته على العدو الممازق - ونعذره لان الشعب كان لا يفرق بين من حكمه في الامس ويحكمه في الغد لان الحكم كانوا يضرّبون على وتيرة واحدة وهي اذلال الشعب وتجسيم خسارته من يوم الى آخر

الفصل الرابع والعشرون

في الاستيلاء على عكا وقتل الشيخ ضاهر العمر

وبعد ان تربع الجزار في دست اباله صيدا شرع في تنفيذ ما ربه باهلها وكانت باكورة اعماله فرض سلطة المشايخ الداخلية وقد حدثته نفسه بالاستيلاء على عكا وفرض سلطة مشايخها آل ضاهر العمر وكان صاحب الوجاهة والحكم على عكا له النفوذ عند الدولة لمناعة حصون المدينة وما نالته من الشهرة في حروبها القديمة . وحاكم عكا على الاطلاق وخصوصاً من وقعت على ايامه هذه الحوادث الشيخ ضاهر العمر كان له السلطة في عزل والي صيدا وتعيينه سواء محله متى شاء فتنبه له الجزار واخذ بقده فكرته في ايجاد واسطة يتوصل بها الى الفتك به والاستيلاء على منصبه

ولما كان الشيخ ضاهر ذا ثروة طائلة كان من السهل على الجزار ان يوقع به ويعلق مطامع الدولة في ماله الكثير فتبدده واذا رفض طلبها تبطش به . ولما حسن لديه هذا الرأي بعث الى الدولة فاخبرها عن تصرفات الشيخ وعظمته الفائلة وثروته الفادحة وفي الوقت ذاته اخلص له زمرة من الرجال وارسلهم الى عكا وسعى لهم لدى الشيخ ان يدخلهم في خدمته فاجاب الشيخ طلبه غافلاً عن غدر الجزار وما خبأت له الاقدار . فدخلهم حصن عكا واوكل بهم معدات الدفاع في وقت النزال

وما حسبه الجزار حدث تماماً فالدولة بعثت عمارة للتطواف وزيارة المدن الساحلية بقيادة حسن باشا وكانت اول مدينة رست العمارة في مينائها عكا فعرض حسن باشا للشيخ ضاهر العمر طلب الدولة وقدره نحو ستمائة الف غرش فرفض الشيخ الطلب

حيث داخله ريب في صدقه وكان الشيخ يعتمد على المعلم ابراهيم الصباغ فاستحضره وعرض له المعضلة فاشار عليه بعدم الدفع ولكن بعض مستشاري الشيخ خالفوا رأي المعلم ابراهيم واوجبوا على الشيخ تقديم الطلب للدولة من الخزينة وجمعه من الشعب بعد حين فقال المعلم مسكين الشعب يكفيه ما هو عليه من الفقر والمذلة . ثم قال ان الدولة طلبت الآن هذه القيمة فاذا قدمت لها زادتك مثلها وطمعت بك وتظل تجدد الطالب الى ان تثق بفراغ يدك وعند ذلك ترغمك على ترك منصب الولاية وهناك البلية وفضلاً عن ذلك كله انت تعلم ضعفها وعجزها عن مقاومة عكا فلا فضل لك ان ترفض طلبها الجائر ولا تطعمها ببال رعيتك وان تحرشت بك فاسوار عكا تنزاً براكبها وقوتها

فارتأى الشيخ رأي الصباغ ورفض اجابة الدولة على طلبها وعده جائراً فعاد حسن باشا الى عمارته فانزل جيوشه وشرع يواصل قلعة عكا ناراً حامية ونهض الشيخ ليقابل القوة بالقوة ويحلي العماره ناراً من مدافع القلعة المشهورة لكنه حظي بالفشل والحقارة من رجاله الذين هم صنيعه الجزار وسخروا به ولم يحفلوا بامره بل عطلوا المدافع وانضموا الى عسكر حسن باشا ولما نظر الشيخ ما وصل اليه امره مع رجاله وما حل بقاعدة دولته فر من عكا نجاة لنفسه لكن رجال الاتراك لحقوا به وقتلوه خارج السور ودفنوه هناك وبموته انتهت دولة مشايخ الزيادة في عكا بعد ان حكموها اعواماً طويلاً ولما انتشر مقتل الشيخ في المدينة هان على حسن باشا الدخول اليها بجنوده وقد تم له فتح عكا في سنة ١٧٨٠ . وبعد المعركة قبض حسن باشا على اولاد الشيخ و ابراهيم الصباغ وقبض اموالهم واملاكهم واطلق لرجالهم التصرف في نهب المدينة فنهبوها . وفي عودة حسن باشا الى الاسكندرية اصطحب اسراه و اموالهم بعد ان تصرف باموالهم وبلغت ثروة الشيخ ضاهر التي دخلت خزينة السلطنة فقط ثلاثة وثمانين الف كيس فضلاً عن بعض امنة ثمينة وكان نصيب اولاد الشيخ السجن . اما الصباغ فاطلق سراخه بعد اشهر مرت على وصوله . وقيل في سبب عفو الدولة عنه انه وصف دواء له نيلة السلطان التي كانت مريضة وعجز الاطباء عن معرفة مرضها انما العلاج الذي وصفه لها الصباغ كان العامل الوحيد على ابلالها فكان جزاءه اخراجه من السجن ووجهه حريره فسعى جهده ليخرج اولاد الشيخ من السجن ويرجع بهم الى عكا فلم يفلح . وتبل ان ينوي على الرجوع دعاه حسن باشا الى وليمه اعدها على ظهر العماره ولم يبلغ المسكين ظهر السفينة

حتى امر حسن باشا بشنقه فذهب الصباغ وذهبت امواله الوافرة
ونال الجزائر بعد رجوع حسن باشا الى الاسنانة انتقال مركز ولايته اليها وفي
ذلك اضافها على ما اضافها الى ولايته قبلاً ببيروت فامتدت سطوته واصبح نفوذه يمتدق
هضاب سوريا ولبنان

الفصل الخامس والعشرون

في مطامع الجزائر

لما تربع الجزائر في كرمي عكا شرع في ترميم حصونها واذخار المؤونة الحربية وقد
تجدت في انتقاله الى عكا فانتحل لنفسه عذراً وذلك انه لما كان للشيخ ضاهر العمر واولاده
احزاب يخشى من وجودها على الراحة العمومية اقتضت الحاجة خروجها اليها بنفسه
لاخضاع تلك الاحزاب ولذلك اضطر الى نقل مركز الولاية . ولكن كثيرين كانوا على
المعرفة الاكيدة من قصد الجزائر من هذا الانتقال . وكان الجزائر يستعد لانشاء دولة
مستقلة عن دول الارض قاطبة . فرأى في حصون عكا عوناً كبيراً لتتميم مطامعه
ولذلك كان يكثر عنده من رجال البشناق ووطنه الاول والاكراد العتاة وقرب اليه
المشايع ليعضدوه في اعداد دولته العتيدة وكان بين المشايخ اقوام الشيخ طه الذي اشتهر
بظلمه وجوره

الفصل السادس والعشرون

في ايقاد الفتنة بين مشايخ صعب وامراء لبنان

وبعد ان تمكن الجزائر من عكا واخضع البلاد التي كانت تتولاها مشايخ
الزيادنة وصدف نواحيها اضرم الفتنة بين الامير يوسف الشهابي وبين مشايخ صعب
حكام بلاد بشاره والشقيف وقصده من ذلك اضعاف الفريقين ليستولي على بلادها
غنيمة باردة وبذل اهلها في الحروب الاهلية بدون ان ينفق عليها مالا او رجالاً وكان
يخشى اتحادهما عليه اذا تظاهر بعداوة فريق منهما

فاصبحت الحرب سجلاً بين الفريقين وطال امد اشتغالها حتى اسفرت عن انتصار
البنانيين وفشل مشايخ آل صعب وعجزوا عن حفظ استقلالهم

الفصل السابع والعشرون

في خروج الجزائر على آل صعب

ولما رأى الجزائر فشل آل صعب الشيعيين انتهز الفرصة لاعمال سيفه في رقابهم فخرج
عليهم بعسكره المؤلف من الاكراد والأتراك واعمل بهم السيف واستباح اعراضهم
ونهب اموالهم بعد قتل عميدهم الشيخ ناصيف الضاهر وبدد رجاله وتعضت بقية
المشايخ وفروا من امامه لا يلوون على شيء . فكان ذلك يوماً شديداً الهول على الشيعيين
المتأولة اشياح صهر النبي علي بن ابي طالب امام المسلمين العظيم . ولا بدع فهتك
حرمة العرض واغتصاب العذارى من شيم اللثام واذا كانوا استحلوا هذه الاعمال الوحشية
في اقرب الناس اليهم مذهباً فكيف يكون شأنهم مع قوم يختلفون عنهم مذهباً

الفصل الثامن والعشرون

في توجيه ابراهيم مشافة حاكماً على بلاد بشاره والشقيف

ولما وضعت الحرب اوزارها واصبحت بلاد بشاره والشقيف تابعة لولاية الجزائر
مقيدة باوامره وارادته استخضر اليه ابراهيم مشافة جد جامع حوادث كتابنا ووكل اليه
ادارة الحكم على تلك المقاطعة مع معاون له من المسلمين . وكان ابراهيم علي جانب عظيم
من الذكاء صاحب ادارة وفضل وكان يعاطي قبلاً تجارة التبغ مع اهل بلاد بشاره .
لذلك رأى الجزائر انه قد اصاب الغرض بتوليها لانها الرجل الذي يريد لعظم ثقته
به ولما عرفه عنه بن الشيعيين سكان البلاد

فتوجه مشافة الي ولايته وجعل مركزه في قلعة مارون وقد احسن الادارة وعامل
الرعية بالقسط والعدل ونال ثقة الاهالي فضلاً عن ثقة الجزائر وظل في منصبه الي آخر
ايام حياته مكرماً ومعزز الخاطر . ومن اعماله الماثورة انه كان في اثناء تجوله في ولايته

يرى بعض العيال من النصارى مهضومة الحقوق ومحرومة من تأدية فروضها الدينية فكان يساءوا على نيل حقوقها المدنية والدينية وبنى للروم الكاثوليك كنيسة واحضر لها كاهناً

وهكذا كان شأنه مع بقية الطوائف والمذاهب وظلت فئة من المشايخ حافدة على الجزائر ومن لف لفه فكانت تعيش في البلاد فساداً وتسلب الامنية بالرغم عما احرز ابراهيم من الثقة في استقامته وانصافه . وكان الجزائر يقتني آثارهم ويفتك بمن لحق به وادركه حياً منهم . واتفق لابراهيم مشافة وهو في زيارة الجزائر انه شاهد في محل الاعدام خارج سور عكا مشهداً تصطك له الركاب رأى ما ينيف على اربعين شخصاً من سكان ولايته مسافين للاعدام فصاصاً لما كانوا يقدمون عليه من سلب الراحة وفقد الامنية كما تقدم ولم يكذب بل بلغ المحلة الاً وشاهد ستة وثلاثين منهم كان قد قضي عليهم واربعة منهم لا يزالون في انتظار فراغ المحل . وطريقة الاعدام في ايام الجزائر متنوعة واغلبها على الخازوق فكانوا يجلسون المجرم على الخازوق جلوساً عادياً او باقونه على بطنه او جنبه وتدخل حربة الخازوق في جسمه من جانب وتخرج من الجانب الآخر . فتوسط ابراهيم للاربعة لدى رجال التنفيذ ريثما يقابل اميره الجزائر بشأنهم وقد حصل على وعدهم في ان يوجوا تنفيذ الحكم بهم ريثما يعود اليهم اما بالعمو عنهم او في بقاء الحكم على اعدامهم . . . ولما كان لابراهيم المنزلة الرفيعة عند الجزائر وسمعه يخاطبه بشأن المجرمين عفى عنهم وسلمهم اليه فوعده ابراهيم بتقديم فدية عنهم فضلاً عن تعهده بان لا يعودوا الى اعمالهم السابقة . ولما درى الرجال بالعمو عنهم وبمن كان السبب في بقائهم احياء بعد ان شارفوا الموت تقدموا الى ابراهيم وقالوا له نحن الان طوع بنانك . فطلب منهم الذهاب الى بيوتهم والاخلاق الى السكينة والسلام . فأبوا ان يتركوه وقالوا له لا تغارقك ايام حياتنا فقد اشترت لنا الحياه بنفوذك ومالك فاصبنا عبيداً لك ونريد ان نخدمك بارواحنا لانها منك وقد كنا من المعدمين كرفاقنا الذين ماتوا اشنع الميثاق وافتديتنا دعنا نقيم على ابوابك الى ما شاء الله فقبل دعوتهم وارجعهم معه الى ولايته . ومأثرة كهذه تشهر فاعلمها ابن كان ومهما كانت منزلته في قومه ولا مشاحة انها جعلت اسم مشافة اشهر من نار على علم واجمعت قلوب رعيته على محبته والافتار بشهامته وكان الاربعة المذكورون اصدق خدمته واكثرهم نشاطاً واخلصهم على مصالح فادبهم

الفضل التاسع والعشرون

في المؤامرة على قتل ابراهيم مشافة

ولما كانت المتأولة اهالي بلاد بشاره والشقيف خاضعة للجزار خضوع المغلوب لبثت
تترقب الفرض لارجاع استقلالها واعادة الحكم لرجالها فتفرد منهم عصابة وقر رايهم على
الغدر بالجزار وقتله وقتل ابراهيم مشافة وطرد جنود الجزار من بلادهم
وفي ثاني الايام دخلوا على ابراهيم مشافة وطلبوا مواجهته وبينما كان يخاطبهم بلطفه
المعهود وثب عليه احدهم مشهراً بيده خنجرأ يريد زرعه في صدره ولولم يرم بنفسه
رجل (وهو احد الاربعة المار ذكرهم) امام سيده ابراهيم ويتلقى بصدرة الطعنة لكان
قضي على مشافة كما قضي على رجال الشهم الذي لفظ روحه بعد دقائق قليلة وقبل ان
يلفظ تلك النفس الشريفة من صدره قال لسيده ابراهيم انني اشكر الصدفة التي
ساعدتني على مكافئتك

وعند ذلك هجمت رجال مشافة على العصابة وبددت قواهم وفتكت ببعضهم وكان
ابراهيم شجاعاً فابلى بهم بلاءاً حسناً

وبعد هذه الحادثة بلغ مسامح ابراهيم عن ثقة ان المنزعين سوف يعيدون عليه
الكرة بعدد اوفرولما لم يكن لديه حامية كافية طلب تجانبتهم فجمع حاشيته وقام بها الى
عكا حيث قص على الجزار ما حدث له وكيف جماعته لا يقل عددها عن الالف لحقت
بهم ولما لم يظفروا بوطرحهم نهبوا ما وجدوه في بيته وطلب منه ان يعفيه من الوظيفة

النصل الثلاثون

في توجيه ابراهيم مشافة حاكماً على بلاد بشاره والشقيف ثانية

ولم يكن ماسمعه الجزار من ابراهيم مشافة بالامر السهل عليه فقام وقعد له وبالحال
امر بتجهيز عسكر لاختضاع العصابات ولم يقبل طلب مشافة من حيث اعفائه من
الوظيفة بل طلب منه ان يعود الى تلك البلاد مع الحملة
وقامت الجنود ومعها قام ابراهيم مشافة الى ولايته لينفك بالعصابات ويرغمهم الى
المسالمة وقد التفت الجنود بالعصابات على حدود البلاد الميمنة ودارت رحى الحرب بينهم

وبعد قتال شديد انجحت المعركة عن ثلثائة قتيل من المتأولة وعدد وافر من الاسرى
وانهمزامهم . اما الاسرى فسيقوا الى عكا حيث جرى اعدامهم على الخازوق في حال
وصولهم . وظلت الجنود تطاردهم وتوغل في النهب والسلب الى ان اخلد المتأولة الى
السكينة ودفع غرامة الحرب

ثم نشر الجزار امره بينهم وهو ان كل من اشتبه اوسطا على ابناء السبيل واخذ
براحة البلاد وسكانها فصاصه الخازوق
وهذه الثورة كانت الاخيرة فاخذوا للطاعة رغماً عن انوفهم .

الفصل الحادي والثلاثون

في عزل امير لبنان

وبعد ان اذل الجزار الزيادة والصعبيين وأمن على نفسه منهم عمد الى الاستيلاء
على لبنان والضغط على سكانه

وكانت باكورة اعماله سلخ بيروت عن حكومة الجبل كما تقدم في حينه اما الآن
فبعث بسأل الامير يوسف (سيده سابقاً) اجابته على مطالب مستحيلة وارفق طلبه
عدم قبوله عذراً عن تاخيريه وما ذلك الا ليحبره على شق عصا الطاعة ليكون له العذر
في الهجوم عليه والتنكيل بمن صده

وفضلاً عن جسامته طلبه المالي سال الامير ان يرفع يده عن اقاليم الخروب والتفاح
وجزيرين . وكان من الامير يوسف انه اجاب مطالب الجزار وامثل لاوامره الصارمة .
وكان من الجزار تكرار عطائه حيناً بعد الآخر حتى ابلغ الامير عجزه عن القيام بها
واضطره الى الجلاء عن دير القمر مع حاشيته فقام الامير مع افراد عائلته وبعض اتباعه
من دير القمر وتوغل في بعض قرى لبنان الداخلية خوفاً من بطش الجزار ولم يتخذ له
مركزاً معروفاً فكا ينتقل من دررورت ومجدل معوش الى عبية وشحلال حتى لا يهتدي
على محل اقامته جواسيس الجزار وكان الامير يوسف ظالماً عاتياً فظ الطباع كثير
السيئة في اقرب الناس اليه وقد حدث له فقتل اخيه الامير افندي وسمل بصر اخيه
السيد احمد والد الاميرين سليمان وفارس المتوفيان بقربة الحدث من عهد قصير وفنك

باخواله الامراء اسماعيل و بشير خوفاً من مزاحمتها له في السيادة . و اذا كانت اعماله
 تركت هذه الآثار في اهله فكيف تكن تصرفاته البربرية في افراد رعيته
 وكان عند الامير يوسف فتى شجاع وهو نسيبه الامير بشير الكبير بن الامير فاسم بن
 الامير عمر بن الامير حيدر الجمد الجامع لعائلة الامراء الشهابيين وهذا من امراء حاصبيا
 ابن الامير موسى الذي حفر اسمه على جسر نهر حاصبيا ونسبه بانقي بنسب الشهابيين في
 لبنان ونسب الامير سعد الدين امير حاصبيا الذي قتل في حادثة الستين
 وهذا الامير تزوج بارملة الامير بشير خال الامير يوسف الذي غدر به الامير
 يوسف بعد استحضاره من ولاية حاصبيا ففني ذهب الامير الفتى الى تلك الولاية وضبط
 متروكات خاله رأى ارملة المغدور به فاحبها وتزوج بها وكان لها اولاد من زوجها الاول
 الامير نسيم والاميرة خدوج
 والارملة هي الامير شمس المديد شقيقة الامير قعدان قاطن عبية وكانوا يتزوجون
 من بعضهم لا العقائد المذهبية ولا لجة القرابة تمنعهم
 وقد ولدت له ثلاثة اولاد الامراء امين و خليل وقاسم . ولما كان الامير بشير
 الكبير شب في بيت الامير يوسف نال ثقته واصبح من الذين يعتمد عليهم في كل شؤونه

الفصل الثاني الثلاثون

في تعيين الامير بشير الكبير كما على لبنان ونفي الامير يوسف
 وبعد ان فرّ الامير يوسف برجاله من وجه الجزائر كما تقدم فاوض الامير الفتى
 (الذي عرفنا ثقة الامير يوسف به من الفصل السابق وكيف كان معروفاً بالامير بشير
 الكبير) في الذهاب الى عكا ومقابلة الجزائر وكان قصد الامير يوسف ان يجعل الامير بشير
 الكبير حاكماً على الجبل حيث يأمن جانبه ويوثق به اكثر من سواه
 فرفض الامير بشير الذهاب ومقابلة الجزائر في بادىء الامر وقال للامير يوسف :
 اخشي من الجزائر ان يحملني على قتالكم ولكن الامير الخ عليه حتى اقنعه بالذهاب
 وتقديم واجب الطاعة للجزائر مع الجزية بعد ان اشترط عليه اذا جعله الجزا حاكماً
 على لبنان وامره بمقاتلته وطرده من البلاد يركن الى الفرار وقد صمم ان يجعل ابن رجاله
 ورجال الامير يوسف فسحة تمكنه ابلاغه في قدومه اليه وتمكن الامير يوسف من القيام في

وجهه . كل ذلك حتى لا يجعل هذا الامير الشهم سبيلاً الى رجال الجزائر من الفتك
 باهل لبنان فقبل الامير يوسف هذا الشط وقبل الامير بشير الكبير اذ ذاك القيام
 الى عكا فتمام واصحب معه عددًا من وجوه القوم مثل ابراهيم الطرابلسي ويوسف عزيز
 وسواهما من البواسل



الامير بشير الشهابي الكبير

وفي طريقه مرّ بصور ونزل ضيفاً كريماً على ابراهيم مشافة الذي اكرم وفادته
 وانزله على الرحب والسعة ومن ذلك التاريخ اصبح ابراهيم مشافة من المقربين الى
 الامير بشير وفي ثاني الايام قام الامير الى عكا فارفق ابراهيم مشافة رجل ثقة مع الامير
 وحمله توصية الى الشيخ طاها كاتم اسرار الجزائر ومستشارة واخرى الى اولاد السكروج
 اصحاب النفوذ عند الجزائر وحضهم على مساعدة الامير . ولما وصل الامير الى عكا
 وقابل الجزائر حصل على الاكرام اللائق وفي الحال عينه الجزائر حاكماً على لبنان والبسه
 خلع الولاية بعد ان استوثق منه على العهد النظامية وكان ذلك سنة ١٧٨٥

الفصل الثالث والثلاثون

في رجوع الامير بشير الى دير القمر وغدر الامير يوسف به
 وبعد ان وجه الجزائر ولاية لبنان الى الامير بشير الكبير امره على قيادة الحملة في

مقاتلة الامير يوسف واخراجه من لبنان . ولما الحملة اعدت استلم الامير بشير قيادتها وعاد بها الى دير القمر . وهنا لا بد لنا من ارسال كلمة نذكر بها الفاري . ان الامير يوسف هو الذي احتفل بالجزار وادخله بخدمته وولاه على حكومة بيروت وخطابه مخاطبة الصديق ووثق به وسعى في ترفيته .

ولما وصل الامير بشير الى صور بعث امامه اعلام تعيينه الى الجبل وانبا الامير يوسف بالحملة التي يقودها للتنكيل به وطلب منه ان يبر بوعده ويقوم من الجبل ولا يفتح سبيلاً لحدوث الفتن واهراق الدماء وافاده انه مأمور باخراجه وسوف يقوم من صور الى دير القمر بعد يومين من تاريخ الرسالة .

وفي ثاني الايام عرج الامير فنزل صيدا ومنها قام الى دير القمر فلاقاه وفد من اعيان لبنان وهناؤه بعودته ظافراً واخبره بعضهم عن قيام الامير يوسف عن طريق المتن واخر الامير وصوله الى الدير يوماً آخرًا ليجهل للامير يوسف فرصة وافية للفرار من وجه جنوده . وبعد وصوله لمركز الولاية بايام نهض الى مطاردة الامير يوسف الذي ظنه اعقل من ان يجعل سبباً لسفك الدماء ولم يدر في خلداه غير اعتقاده الشريف بقيام الامير بوعده شأن الحر المستقيم .

اما الامير يوسف كان يضم شراً وينوي فساداً فقد وطد رأيه جماعة التفوا حوله وحسنوا له الايقاع بالامير بشير غدرًا وتبديد رجاله فوراً فكمن مع عصابة لجملة الجزار في مضيق وبات يترقب قدوم فريسته اليه ليقبض عليها ويريح البلاد شرها من ولم يعلم انه اضاع الفرصة حين كان له ان يفتك بذلك البشناقي ويريح نفسه ووطنه منه وفضل الشخصيات على العموميات واشغل نفسه عنه بقتل اخوته واخواله واذلال اتباعه المخلصين وانى له الآن ان يقهر الجزار بعد ان امتدت شوكته وملك حصن عكا واصبح امنع من عقاب الجو .

فلو لم يشهر العداوة لمشايخ آل صعب المتأولة بل سالمهم واتفق معهم وقتئذ على مقاتلة الجزار وطرده من الوطن واعفاء بنييه من ظلمه لو فعل ذلك لكان بالامكان ترجيح نصره اما الآن فيعد عمله تجرشاً وطيشاً .

وبينما الامير بشير مع رجاله يعبرون مضيق كان قد كمن فيه الامير يوسف ورجاله اخذته الخيرة بغتة حيث رأى على حين فجأة الامير يوسف شاهراً بوجهه الحسام ووراءه عصابة فتبين له اخلاف الامير وعده .

وفي الحال امر رجاله بالمحجم عليهم وكان هو اول المهاجمين لانه اتصف بالشجاعة
 وكان قائداً محمداً وخبيراً بننون الحرب والشاهد انه في حروبه الكثيرة كان النصر دائماً
 رائده وبعد ساعات قليلة انجحت المعركة عن انهزام الامير يوسف وقتل عدد من رجاله
 وظل الامير بشير يطارده الى ان اخرجته من حدود لبنان او بالاحرى ولايته
 التي امره الجزار عليها . واذ ذاك عاد عنه الى دير القصر وفي حال وصوله ارسل فاختبر
 الجزار بما جرى له مع الامير يوسف من الوقائع وكيف انه تغلب عليه فيها وبعده عن
 حدود لبنان حسب ارادته وتعليماته

فسرّ الجزار من اخبار الامير بشير وما ناله على يده من المال الكثير الذي اضافه
 الى الخزينة

الفصل الرابع والثلاثون

في شوق الامير يوسف وعدد من اتبائه

وبعد خروج الامير يوسف من حدود لبنان ظلت امانيه تحذره بالعودة اليه والتمتع
 بالسلطة عليه . وكان الشيخ غندور مستشاره يحمي نظامه فقال له اذهب بنا الى
 الجزار وذكره بالايام التي صرفها بخدمةك وكيف كنت السبب في ترفيته الى آخر ما
 هنالك فلا شك انه يندم على معاملته اياك هذه المعاملة ويرجعك الى مركزك الاول
 فجاء كلام الشيخ مطابقاً لاماني الامير فعمل به ففقد عكاً ومعه الشيخ وبعض اتبائه
 ولما دخل على واليها هش له الرجل بما عنده من المكر واحتمل باستقباله ومن معه وعين
 لهم محلاً فخماً ولكن لم تطل اقامة الامير والشيخ في ذلك المحل طويلاً فامر الجزار
 بسجنهما مع المجرمين وكبلهما بالقيود والسلاسل القوية وكان عمل الجزار مع الامير يحدث
 نعمته كافراره بانفضل لصاحب الفضل عليه ولكن متى كان مثل هذا شهياً وقادراً حليماً
 وكان مع الامير ابراهيم غفار سجنه الجزار مع جملة اتبائع الامير ورفض اطلاق سراحه
 ما لم يرفع الفدية عن نفسه مع ان ولده خليل غفار كان في ذلك الحين مستخدماً عند
 الجزار في ثكنة الذخائر الحربية

وصدق في تلك الاثناء ان ثار على الجزار اهالي صفد وتوابعها وامتنعوا عليه فخرج
 اليهم بنفسه واصلاهم حرباً طاحنة وحاصرهم مدة بالقرب من قلعة واخيراً لما طال عليه
 الامل ولم ينل منها ما رغب اليه التلعة وكان من انفجار النغم خسارة فادحة عليه وعلى

رجالهم ولم يلحق بالقلعة ضرراً يذكر فظهر على الجزائر الحيرة ولو لم تدركه النجدة وراء النجدة لادركه الفشل . ولما رجع خليل غفار الى عكا كتب الى والده في السجن عن الواقعة وبشره بفشل الجزائر وقرب انحلال دولته وراحته البلاد من جورهم وظلمه فتوصل الجزائر الى الرسالة وعرف مضمونها فاجس بالامير يوسف واتباعه ان يكون لهم يد بثورة صفد عليه فامر بشنق الامير والشيوخ غندور وابراهيم غفار وولده خليل وتعلقت للحال المشنقة وسبق المجرمون في اعتقاد الجزائر وهم ابرياء من السجن حيث صار تعاقبهم فذهبوا ضحية الوهم



الفصل الخامس والثلاثون

في نكبة موسى رزق

وفي رجوع الجزائر عن صفد منتصراً وتنكيله بمحدث نعمته طيشاً بدأ من ذلك الحين يعاقب الخيرة كأنه اراد ان يخدر خلايا ذاكرته ويتناسى عمله النظيم امام الله والهيئة وكان ضعيف الاسلام متهماً به فسخط عليه المسلمون سرّاً ومن غريب حسناته انه كان يعامل الرعية على السواء وظلمه بنال الكبير والصغير بالقسط فكان يسجن علماء ومشايخ المسلمين وكهنة الازمنة وعقال الدروز وحاخام اليهود ولا يفرق عنده اختلاف مذاهبهم وكان يعذبهم المذابات البربرية بلا ذنب ولا جرم كأنه يريد التمرين على عوائده الجائرة وتشغيل رجال التنفيذ عند ما يراه لا عمل لديهم . . . لذلك كان في اغلب الاحيان يخترع من عنده الذنوب ويلقيها على من يعثر به اولاً . وكان يقيم بين الرعية جواسيس يتنصرون له الاخبار ولغظ القوم عليه وكان الجاسوس يأتيه بالاخبار التي يشاء واذا عثر على مثري كان له بوجوده بشري امام سيده . وكان الجزائر يرسل يستحضر المشبه به اليه ويسأله كمية وافرة فاذا ابدى بملاحظة او تردد في اجابة الطلب كان ذلك من اجل مقاصده فيأمر للحال بتعذيبه او شنقه

وقد بلغ الجزائر خبراً عن موسى رزق انه وقف على كنز من المال في حقله وهو يحرثه وانه مصر على عدم اعلام احد عن محله وقيل له ربما يكون لابراهيم مشاقفة شركة معه ويعلم مقر الوديعه فاستحضر الرجل وهو من رعية ابراهيم مشاقفة اليه ووعد ان يجزل له العطاء وينعم عليه بوظيفة اذا دلّه على محل المال — ولما رآه مصرّاً على الكتمان امر

بمعدنيه فطال عذابا اياماً الى ان دخلت اليه عقيلته بامر الجزار ربما يخلص لها
ويرشدها عن محل الكنز . وفي الوقت ذاته بعث معها جواسيس يلتقطون كلام الرجل
وزوجته ومن حسن الطالع عادت الجواسيس واخبرت الجزار بما سمعته من الرجل
يحدث امراته ومن بعض ما نقلوه اليه ان المال وفرته لا توصف وان لا شريك له به
ولا احد يعلم بوجوده لا ابراهيم مشاقه ولا احد من الناس سواه وانه لن يعلم
الجزار به لانه يتمكن ان يناطح الدولة وتزداد شروره ويعم فسقه . ولما سمع الجزار ما قاله
موسى رزق لزوجته تآكداً كد براءة ابراهيم مشاقه وعمل على ايجاد المال فامر بتعذيبه مع
حفظه حياً ولكن شفقة رجاله الا كراد ابت ان تخفف من الرحمة في صدرها . فقضى
الرجل وهو بين يدها يتألم من الاوجاع ألواناً بدون ان يهدي على مضمورة الذهب احدًا

الفصل السادس والثلاثون

في المائتين والثلاثين

ومن اعمال الجزار البالغة حد القساوة والظلم انه في ذات يوم امر بتخضير ارباب
الحرف والصنائع اليه وكان تنفيذ هذا الامر سهلاً على من تعود الشنق ومشاهدة
سفك الدماء فحضر اليه التاجر والفاعل والاسكاف والحجار وكل صاحب حرفة من
المدينة وامر ان يدخلوا عليه فرداً فرداً وكان الداخل اليه يكشف عن رأسه ويتقدم
من الجزار ليتوضح جلياً في تكييف حجمته وكان يطلق سراح البعض ويبقي على
البعض الآخر وكان عدد البقي عنده مائتين وثلاثين رجلاً على اختلاف نحلهم وجرفهم
وعرفنا منهم روفائل قنواقي ومخابيل الباشا

وفي موخر النهار امر بدبجهم ظهرياً عن شاطيء البحر وابقائهم طعاماً للوحوش
الى ثاني الايام فيدفن فضلات الوحش فساقتهم رجاله الزبانية الى النقطة المعينة وبدأت
بدبج القطيع دفعة واحدة فما هو ذنب القطيع حتى استحق الذبج او ما هو جرمه لا احد
يتعلم غير الجزار نفسه وقد يمكن انه هو لا يعلم ايضاً فتأمل في شهداء الظلم والاستبداد
وفي حكم تلك الايام كيف كانت تختلق الاعذار في تجريم الرعية ولا تحترم لها وجوداً
ولا ثريها انصافاً

الفصل السابع والثلاثون

في نجاة مخائيل الباشا عن يد مسلم

اتفق ان رجلاً مسلماً من اهل التقوى والشهامة اتى عكا لقضاء بعض الحاجات ورام الدخول اليها فوجد البوابة مقفلة وتخيّل ان ينتظر بينما تعود الرجال من المجزرة وقد قص عليه خبرها وكيف ان الجزار امر الزبانية بذج مائتين وثلاثين رجلاً ظملاً فتمرر القروي من صدى الخبر وظل واقفاً الى ان رجع الجزارون عن القطيع وقد حدثته نفسه ان يريد بحل المذبة ولما فعل ذلك رأى بين المذبوحين رجلاً لم يزل يتحرك فاقرب منه وفي نيته اغاثته . لكن الجريح لما شعر بوطء اقدام اليه اخلد الى السكينة فنادى به القروي على ما في صدره من العواطف الاليفة اني نظرتك ايها التعيس تتحرك فاقدمت لاسعافك لوجه الله فثق بي ولا تحشني ساعدني على الهداية اليك

فاجابه المذبوح بصوت متقطع نعم اني حي ولم امت بعد
فترجل القروي عن جواده وتفحص الجريح فرأى ان جرحه لا ينذر بالخطر لان الضربة كانت لحسن حظه خفيفة فلم تقطع شرايين الرقبة واوردها فضمده له الجرح على قدر معرفته وانفضه الى ظهر جواده وسار به الى بيته وظل يستحضر له الادوية سرّاً الى ان عادت الى ذلك المذبوح مخايل الباشا حياته واستحوذ على جانب عظيم من العافية فشكر القروي على معرفته وقام الى دمشق هرباً من الجزار فودعه القروي وساعده على القيام من مال ومتاع

الفصل الثامن والثلاثون

في قطرة من بحر فظائع الجزار

ومن افعال الجزار الذميمة المستعجبة وجوره في الرعايا التي ارسلته الدولة للذب عن حياضها ودفع المكروه عن ديارها وتأمينها على مالها وحياتها من عدو مداهم وتشربها عوائد التمدن التركي — فبدلاً من ذلك كانت اعماله تناقض النظام وتختلف عن نصوصه تمام المخالفة

ففي سنة ١٧٩٧ م . توجه اولاد عطية اخوة خليل عطية المهندس المشهور في دير القمر بتجارة الى وادي النيل فاقاموا هناك سنة قدم الفرنسيون في نهايتها الى مصر بقيادة بطلم العظيم اعظم قواد العالم حنكة وشهرة في الحرب وهو نابليون الاول بونابرت الشهير وتولوا السيادة على تلك الاقطار وطردها منها الامراء المماليك فلجأ هؤلاء الى الدولة التركية التي اشتهرت على نابليون الحرب طمعا في اعادة مصر الى حظيرتها فحاصرت المواني البحرية المصرية واصبح الداخل لا يقوى على الخروج منها بتلك الظروف . ومن جملة من وجد في داخلية مصر في اثناء الحصار اخوة عطية المار ذكره وكاهن ماروني من عائلة قبالة قادم من مدرسة رومية الى الجبل

وفي احدى الطرق سافر الاخوة مع الكاهن وسبعة وثلاثون نفسا من السوربين الى سوريا عن طريق صيدا لكن الرياح فذفتهم الى عكا فقبض عليهم الجزار بعد وصولهم بضع دقائق وقيدهم بالقيود الحديدية وعاملهم بفظاظته ولو انه المشهورين . ولما بلغ الخبر الى دير القمر ودرى آل عطية بما حدث للاخوة نهض منهم اشجعهم واتى عكا ليقابل اخوه وبينما هو يقدم الى اخوته في السجن بعض الطعام نظره الجزار فسأل عنه ولما قيل له انه اخ لولدي عطية المسجونين امر بسجنه معها ويقال انه لما تكاثر عدد المحاميس وضافت بهم سجون عكا على رحبها ولم يعد للسجان قيد لمن يدخل اليه بعدهم امر الجزار ان القطيع الذي قدم من مصر حديثا وبينه اولاد عطية يساق الى الذبح وكان عدد من جاء من مصر اربعين كما تقدم وزاد الجزار على كلامه الاول انه امر السجان بعد ان يلقي جثث الاربعين في قاع البحر بأخذ القيود التي كانت مطوقة ارجلهم واذا كان ذلك العدد من القيود لا يكفي فليأخذ القطيع الثاني المؤلف من مائة رجل ويفتك بهم كالاولين ويداوم على ذلك حتى يصير لديه عدد كاف من القيود فقام السجان وتصرف بمهمته كما شاء وكان يعدم السجين القديم اذا احتاج الى قيده ليضعه على السجين الجديد

الفصل التاسع والثلاثون

في نكبة السكروجيين

ومن اعمال الجزار—وهل لاعماله حد— نكبته عائلة السكروج صاحبة التفوذ عنده

في اول مدة ولايته وكان افرادها مستلمين خزينة الولاية وكان ابراهيم مشافة صديقهم الحميم وكان الجزار شعر بثقاهم لطول مدتهم عنده فاحب ان يستبدلهم بسواهم فاطهر الريبة بمال الخزينة وعين عليهم مالا تعويضا فدفعوه اقساطا ولما دفعوا آخر قسط جدد الطلب وضرب على ذات الوتر وظل يمتلب ما لهم حتى استنفده وابقاهم صفر اليدين ومع ان الجزار علم ان لا مال بقي عندهم عاود الطلب

فارسلوا يستشيرون ابراهيم مشافة صديقهم المخلص فجاوبهم ان يتعهدوا بالدفع ولا يعرضوا ارواحهم الى التهلكة وقال لهم اذا لم يكن لديكم مال فانا ابذل اخر باره في سبيل نجاتكم ولكن النفس الايية اذا مسها ضيم فضلت الموت على النذل وازدادت عتوا وتوغلا في الالباء

لذلك رفضوا ان يعملوا بوصية مشافة ورفضوا ان يتعهدوا للجزار بدفع ما هو فوق طاقتهم فامر الجزار في الحال كانه منتظر هذه الكامة لذبجهم وقطع دابهم وضبط محلاتهم واملاكهم وامر بتحضير اوراقهم ومن جملة الاوراق التي عثر عليها بين اوراق اولئك التعمساء رسالة مشافة لهم فاضمر له السوء

الفصل الاربعون

في وفاة ابراهيم مشافة

وكان لانتشار خبر ما حل بال سكر وج وقع عظيم في قلوب معارفهم والم شديد في عواطفهم ومن الذين اثرت بهم الحادثة تأثيرا بالغا ابراهيم مشافة لانه كان كما مر صديقهم الحميم فكان اسفه عليهم شديدا كره لاجله الحياة وعول على الاقالة وربما كان اضطرابه لم يبلغ شدته لانه لم يكن له دخل معهم فلما علم باطلاع الجزار على رسالته تاكد ان دوره اصبح على الابواب ومن كثرة مخاوفه والافتكار بقساوة الجزار اصابته حمية شديدة اعتزل لاجلها مركز اشغاله فتقدم الى صور للمعالجة وكان الحمي وددت ان تكون الغالبة والسابقة في قطف زهرة حياته فلم يمهله الجزار الا فرصة بسيرة فابل رجاله على بيت ابراهيم مشافة ليبلغوه امر سيده في الحضور اليه ولما كانت انة س ذلك الرجل الذي بذل حياته في الخدمة الصادقة تودع مقرها وداعا ابديا

ولما عادت الرجال بالخبر الي الجزائر امرهم بالعودة واحضار اكبر انجاله
فعادوا الي صور وقبضوا على ولده الاكبر وهو جرجس وجاؤا به امام الجزائر ولدى
مقابلته طلب منه مبلغاً وافراً ولما لم يكن في طاقة جرجس تقديم الطلب امر بسجنه
وتصرف بتروكات والده من كلي وجزئي ولم يترك لولده ما يعمل عليه في قوته اليومي
وعند ذلك عفى عنه واطلق سراحه — فخرج جرجس مشاقفة من السجن بعد ان
فهم الجزائر جناحيه وهكذا كانت اعماله وتصرفاته مع من يدري ان لديه مالا وافراً
وكانت الضربة على عائلة مشاقفة شديدة حتى التجأت الي الاشتغال كهامة الناس
لتحصيل قوتها وسد جوعها وكان سقوطها سنة ١٧٩٠

الفصل الحادي والاربعون

في مدير خزينة الجزائر الجديد

وبعد ان فتك الجزائر بمدير خزينته السكروجي وآله والحق بهم هتك حرمة مشاقفة
وانكار خدماته النبيلة شعر بالحاجة الي رجل يشتغل مكان مديره الاول فانتخب لهذا
المركز المعلم حايمم فارحي وسلمه زمام شؤون الخزينة وكان حايمم على جانب
عظيم من العلوم التاريخية التلمودية وكانت اعماله التي ظهرت في ايام خدمته المركز
الذي دعاه اليه الجزائر شاهداً اقوياء على حسن ادارته وسداد رأيه ولكنه مع ما كان عليه
من النباهة واصالة الراي لم يعفه الجزائر من ويلاتة وشروره وكان يسومه العذاب
الوانا ويريه الموت اشكلاً فكان يامر بسجنه اباماً ويرجعه الي وظيفته بعد سجنه وقد
شنع سجنه فجدع انفه وقطع اذنه ويقال انه رأى قذى في عينه مرة فقلعها له وكان حايمم
اشبه بألة بيد الجزائر بل اطوع من الآلة عنده واتفق للجزائر انه تردد في ارسال
الجباية الي الدولة وشرع ينتحل الاعذار لنفسه وبعد ان سئمت الدولة من مماطلته
بعثت اليه كلامها الآتي :

« اما بعد ولما كنت عاجزاً عن اخضاع لبنان وظهر ضعفك الي هذا الحد رأيت
الدولة ان ترسل وزيراً يخلفك في الولاية على تلك الربوع يكون فيه النشاط والقوى
الكافية لضم تلك البقاع الي مملكته »

وفي الحال كتب الجزائر الى الدولة بعد ايام قليلة يبلغها اذلاله لامراء الجبل وجعله
من ابلاتها
وبعد بضعة ايام الحق برسالته المتقدمة هذا البلاغ الى الدولة « انه اخضع لبنان
وقهر رجاله البالغ عددهم من النصارى مائة وعشرين الفاً ومن الدروز ستين الفاً ومن
الشيعة المتأولة ثلاثين الفاً ومن المسلمين ثلاثين الفاً ولم يطل على جواب الدولة حتي
بعثت تطلب منه الجزية عن النصارى
فاشكل عليه الامر وكان حايم مسجوناً فصدر امره باطلاقه واحضاره اليه ولما
امتثل امامه طلب الجزائر رأيه
فقال له حايم بعد الروية الافضل ان تدفع جزية النصارى من مالك الخاص
هذه السنة وفي السنة القادمة تبلغ الدولة ان نصارى الجبل اعتنقوا مذهب الاسلام
فتسقط عنهم او بالاحرى يرفع عنك تقديم هذا المال
فاستصوب الجزائر راي حايم وعمل بموجبه

الفصل الثاني والاربعون

في ذهاب الجزائر الى مكة

ففي سنة ١٧٩٥ عزم الجزائر على الحج ليظهر تقواه لمشايخ الاسلام ويطلعي على
الرعية ورعه وايمانه ولم يكن لديه رخصة قانونية للذهاب الى كعبة الدين الاسلامي
فالتمس من الدولة ان تحوله الذهاب فورد اليه الاذن مع الفرمان في ضم ولاية
الشام واميرية الحج اليه ليذهب بالحفل الى مكة تقديراً لاعماله واقراراً بنضله عليهما من
تدويخ البلاد وضمها الى مملكتهما
وبعد اتمام معدات السفر نهض الجزائر بحفل الحج الى مكة مخلفاً وراءه قواد جنده
واخصهم سليم باشا حرساً على حريمه ونائباً عنه في شؤون المدينة مسئولاً عن ايجاد
الامن بين الرعية فقام سليم باشا وهو قائد الماليك بوظيفته كما قام سواه حتى القيام
فاكثر من التردد الى مسكن الجزائر وسمح لبعض رجاله في مشاركة الحريم والاطلة
معهن وقد اكثرت الاهالي من الطعن على حريم الجزائر مع الماليك واحتقروهن

ولما عاد الجزار لحظ امورا غريبة في حريمه فسخط عليهم واخمر لهم وللمالك شررا

الفصل الثالث والاربعون

في قتل الجزار حريمه

ظل الجزار بعد رجوعه من مكة اباما يقدر فكرته في استنباط طريقة للايقاع بحريمه والتخلص منهن ولم يكن ما يغفل يده عنهن غير خوفه من الممالك وحقد الجند عليه فتظاهر اسليم باشا قائد الممالك واسماعيل الكردي قائد الجند الكردي بالموودة وحسن لهما منزلة امراء لبنان وضمه الى ولايته والجندي الشجاع متى سمع بالحرب وقرب نشوبها يتهلل وجهه بعلائم الطرب ويعود وهمه الوحيد في دنياه اصلاء وطيسها وخوض عباها — ذلك ما حدث للقائدين عند ما طرح عليهما الجزار رأيه في مهاجمة لبنان وللحال جهز لهما مؤونة الحرب وامرهما بالقيام فقاما برجالهما ووجهة الحملة لبنان

وكان مع الحملة ابراهيم القاوش من الذميين الكاثوليك ربيب المشايخ الزيادة وكان شجاعا كريما . وله نفوذ حسن عند ممالك الجزار وكان قائد اربعمائة فارس

ولما بعدت الحملة عن عكا عوّل الجزار على انجاز وعده في قرض حريمه فامر خصيانه ان توفد نارا كبيرة في صحن الدار وتأتيه بحريمه واحدة واحدة . وذكروا ان الخصي كان يسوق الى الجزار سوته افرادا والجزار يقبض عليها من عنقها ويطرحها في النار على وجهها ويدوس على ظهرها ويضغط على رأسها حتى يتم شيها وتلنظ روحها فيأمر الخدي برفعها واحضار سواها . قالوا وعلى هذه الصورة الشنيعة اعدم الجزار سبعة وثلاثين امرأة ولم تنج واحدة من حريمه غير فتاة في الثامنة من عمرها

وبعد ان اتم الجزار مهمته في ابعاد الممالك وبقية من ظنه من العصابات وقرض حريمه تظاهر بالعداوة ومجازاة من امتن حرمته فبلغ سليم باشا وهو في صيدا مقاصد الجزار واخمر الشر عليه وعلى من لف لقه وكيف انه افنى حريمه وشواهن احياء

فعظم الامر على سليم باشا واطلع رجاله على فحوى الخبر فقام الجند وقعد وجاهر بصوت واحد بمقاتلة الجزار وقطع دابره وابادة قوته وللحال امر سليم باشا بالعودة الى عكا وعادت الحملة عن لبنان لوجود الخلل في رأسها وفي جسمها فرامت اصلاح شوؤونها قبل ان تباشر معالجة مريض لانتوجع لمرضه

ولما وصل سليم باشا برجاله الى صور وجد ابواب المدينة مقفلة بوجهه فادرك خطارة موقفه وعلم ان الجزائر اصبح خصمه

الفصل الرابع والاربعون

في فتح صور وارغام اهلها

وكان من حاكم صور انه بلغه الامر من الجزائر ان يقفل ابواب المدينة بوجهه سليم باشا وبقية الحملة ويمنع عنهم المدد فصدع بموجب الامر ولما رأى بوادر الحملة مقبلة بعث الى سليم باشا رسولا وبلغه اوامر الجزائر اليه وعند ذلك هجم سليم باشا برجاله وفتح المدينة عنوة وارغم حاكمها واهاليها على امدادهم من عقيق ومال وزاد واغتصبوا امتعة ثمينة فرضوا على اصحابها مالا لقاءها وقد لحقت الجنود امتعة لعائلة مشافة هي بجداتها تافهة لكنها كانت عزيزة على تلك العائلة بعد ان اناخ الدهر بكلكه عليها واصبحت بحالة محزنة يرثى لها

وبعد ان قضت الحملة وطرها من صور تقدمت الي عكا وقلتها بتدفق حقد آعلى
الجزائر وهي واثقة بالنصر لها والبطش به

الفصل الخامس والاربعون

في فشل سليم باشا

ليست هذه المرة الاولى التي رجع عن حصون عكا محاصرها بالفشل والخيبة وحفظت لقيامها الهيبة والصولة فكانت ولم تنزل تسخر بالقوة التي تريد ان تنزع منها تلك السيادة وسليم باشا وان كان معظم الجند معه لما حاصرها ورام اذلالها وليس في حصون عكا رجال اكفاء فان الجزائر تغلب عليه بدهائه وشتت رجاله ولولا ذلك لتم له النصر ونال مبتغاه من مجازاة سيده ولكن الجزائر لما رأى رجاله قليلين واغلبهم لا يصلحون للنزال استمال اليه قائد الاكراد اسمعيل الكردي ونال وعده ولما دارت رحى الحرب لحظ سليم باننا انفصال الاكراد عنه واعمال سيوفها برجاله فدارت الدائرة عليه وعلى عصابة ظلمه على عهودها معه الى ان تضععت قواه وطلب لنفسه مع رجاله النجاة ومنهم

القالوش الذي اتى الى الحصن ونزل على اولاد موسى الحنا حكام تلك المقاطعة فامنوه على حياته واقام بينهم مكرماً الى ان شعر الجزائر بوجوده فارسل يستخضره اليه ولما لم يكن له نفوذ ولا سلطة على الحصن تعذر عليه تنفيذ امره في حكامها كانت الدولة لم تعلن رسمياً تعيينه على ولاية الشام بعد

الفصل السادس والاربعون

في اعدام ابراهيم القالوش وآله

ولما فشل الجزائر وعاد امره مدحوراً بالخيبة بعث الى الاستانة وفدأ في طلب تعيينه رسمياً على ايالة الشام وتوابعها وما ذلك الا ليرغم حاكم الحصن على تسليمه القالوش ويفهمه ان امره لا يستخف به فرجع اليه الوفد مصحوباً بالفرمان القانوني فعزل عنها واليها واستخضر من الحصن ابراهيم القالوش وفي هذه المرة لم يكن بد من تسليمه ولكن رجال الجزائر لما وصلوا بالقالوش الى حماة اخبروه ان الجزائر يعني عنه اذا اعتنق الاسلام واذا اصر على الرفض ارسلوا رأسه اليه . . فرنض القالوش وآثر موته على دين اجداده مسيحياً من الحياة في الذل فقطعوا رأسه وعادوا به الى الجزائر اما اولاده ففروا الى عكار حيث التجأوا الى بكواتها وكان لابراهيم اخ في بلاد صفد امر الجزائر بشنقه الخافاً بجزيرة اخيه الشهم

الفصل السابع والاربعون

في القبض على الامير بشير

وبعد ان فرغ الجزائر من ثورة المماليك وجه مظامعه نحو لبنان فارسل الى الامير بشير يطلب منه مطالب مستحيلة وجائرة ليكره الامير على العصيان ويكون له عذر بارسال حملة عليه وكان الامير يماطله وفي ذات يوم مر الامير بساحل بيروت ومعه عدد قليل من رجاله فوثب عليه رجال الجزائر الذين كانوا ينتظرون هذه الفرصة والقوا القبض عليه وارسلوه مكبلاً الى عكا فامر الجزائر بسجنه مع رجاله وعين في تحله

رجالاً اقتبل ان يدفع مطالبه الفادحة
وكان الجزار يفعل ذلك كله ليضطر رجال الجبل على الثورة فيجعل له سبيلاً الى
المداخلة في احمادها ونشر علمه فوق ربوعه كما كان شأنه في ولاية المشايخ الصعبة وغيرهم
وما كانت غاية الجزار الا حشد الاموال لا خلاف عنده بطريقة جمعها قانونية كانت
او ظمناً

كل ذلك كان يجري على امراء لبنان والشعب يستجير من نقلاب الاحكام وتلاعب
السياسة وهم لاهون عن الاتجاد بالخصام والشقاق مفضلين الشخصيات على العموميات
والعداء الاهلي على الاتجاد وطرح نير النذل
فقبل الامير الجديد بمطالب الجزار المالية وجمعها له من الشعب المسكين وارسالها
الى خزينة عكا غنيمة باردة

وظل الامير في سجن عكا عشرين شهراً افرج في نهايتها عنه الجزار واعاده الى
وظيفته السابقة بعد ان استوثق منه بالعود حسب امياله وحتى يجعل الامير يصدق في
وعده ابني ولده قاسماً عنده في عكا ريثما يرسل اليه والده تمام طلبه فقبل الامير بشروط
الجزار ورضي ان يبقى ولده في عكا وقام الى دير القمر مركزه القديم

الفصل الثامن والاربعون

في تعيين الشيخ بشير جنبلاط حاكماً على اقاليم الشوف وجزين والخروب والتفاح

وبعد اياب الامير بشير الى دير القمر حاكماً على لبنان كما كان سابقاً — خرج
من سجن عكا الشيخ بشير جنبلاط الدرزي وصار تعيينه حاكماً على اقاليم التفاح
والخروب وتوابعهما وكان الشيخ جنبلاط فاضلاً ذا وجهة وثروة طائلة ومن اخض
اصدقاء الامير بشير الذين يعتمد عليهم عند الشدة وقد ذاق عذاب السجن الجزاري كما
ذاقه الامير في الوقت ذاته فقام الشيخ بماعهد اليه حق قيام

وفي هذه الاثناء بعثت الدولة تستحث الجزار على فتح لبنان وضمه الى ايلته ...
ولما لم يكن للجزار سبيل للمدخاله في شؤون لبنان وقتئذٍ ويعلم مناعة لبنان ونجاعة
رجالها وحصافة اميره لم يشأ التحرش به رأساً انما ارسل من قبله عصابة لالقاء نور

الفن بين مشايخ الدروز وبين الامير بشير

الفصل التاسع والاربعون

في اسقاط مساعي الجزار الفاسدة

وكان غرض الجزار من اشعال نار الفتنة بين الدروز والنصارى واضحا لا يحتاج الى تفصيل فكان ينتظر وقوع الحرب بينهما وعند شوب الحرب الاهلية يراقب الحزب الاقوى فيسالمه والحزب الضعيف فيطمس آثاره فانشرت جواسيسه بين الدروز وحسنوا للمشايخ الفتك بالنصارى واغروهم بواعيد الجزار بالمساعدة سواء كان بالرجال او بالمال فاجتمع مشايخ الدروز وعقدوا جلسة امضوا صكوكا على نفوسهم في الاتحاد على التنكيل بالنصارى وقد رفض ان يوقع على هذه المعاهدة الهجومية الشيخ نجم العقيلي وهو اعقلهم وافطنهم في عاقبة الحرب ولم يكتبف بعدم توقيعه بل اظهر للمشايخ غلظهم وطيشتهم وسوء مصيرهم وادعم اقواله في تبيين مقاصد الجزار الدنيئة وما زال يناضلهم حتى اقنعهم بابرهان وافلع من قلوبهم بذور الشقاق ضد اخوانهم النصارى وامرع الى الامير وطلب مقابلته واسر اليه ما وصلت اليه اعمال الجزار في تغريير المشايخ وطلب منه ان يتخذ الاستعدادات الكافية لمنع نمو بذور الجزار في قلوب رجاله واجلى له ما وقع للمشايخ وكيف تغلب على اقناعهم واخلادهم الى السكينة وسأله ان يعفو عنهم لقاء طاعتهم له . . . فاجابه الامير الى طلبه وعفى عن مشايخ الدروز وعادت المياه الى مجاريها وكان نائب الامير الشيخ ابا خطار سلوم الدحداح الذي هو جد المطران نعمة الله الدحداح صاحب كرسي دمشق على الموارنة في ايامنا هذه

الفصل الخمسون

في وصف اقسام اهالي لبنان

وان تكن مساعي الجزار في ابغار صدور الدروز على النصارى فسدت ولم يبق لها قائمة

فاهالي الجبل منقسمة طبيعياً الى قسمين من مشايخ وامراء اي دروز ونصاري وننتي الى
 حز بين سياسيين عظيمين هما حزب جنبلاط وحزب يزبك الا ان الامير بشير كان
 ميالاً الى الحزب الجنبلاطي وافرغ قصادي جهده في التوفيق بين الحزبين فلم يفلح
 وسبب ذلك هو ان آل يزبك لم يكن لديهم ثروة عقارية تقوم بمصر وقاتهم واودهم
 كما كان للجنبلاطين فزاد حنقهم عليهم وميل الامير الى جنبلاط كان يزيد في حقد
 يزبك الذي كان من اتباع الامير يوسف . ومن هذه الاسباب وعدة غيرها لم يحسن
 الامير ظنه بهم وكان يحترس منهم
 اما مشايخ آل نكد فكانوا يميلون مع من له الارحجية فتارة مع هولاء وتارة مع
 اولئك ولتعاسة الشعب كانت هذه الصغائن باعثة على الشقاء وجلت لاهالي الجبل
 وبلات الحروب الاهلية على التابع
 ومداومة المشايخ على ايقاد الفتنة واشهار القتال وابتزاز اموال الرعية زادت الشعب
 تباعداً وتفوراً وجعلت الاتحاد الوطني ضرباً من الخيال ومن جراء ذلك سهلت للدولة
 المداخلة بينهم وكان الجزائر يضحك منهم ويفريهم بعضهم على بعض لان ذلك من
 مرامي نفسه الشريرة

الفصل الحادي والخمسون

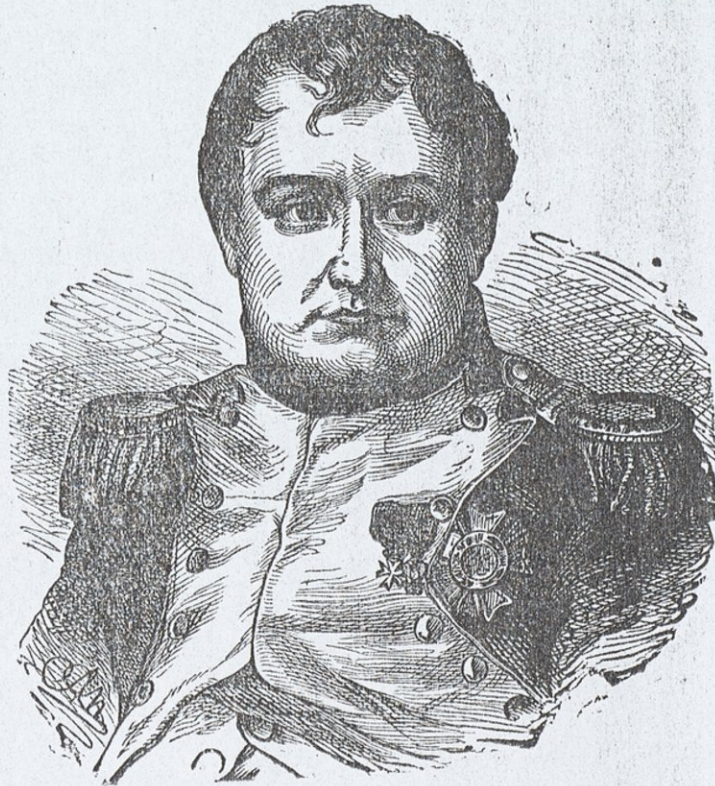
في قدوم نابوليون الى سوريا وفتح غزة ويافا

وبعد ان دوخ نابوليون مصر شخص الى سوريا براً فاعترضته قلعة العريش عن
 السير برهة لكنه واصل سيره بعد ان اضافها الى انتصاراته وعدها من قواع فتوحاته وبعد
 ان فرق جموع الاتراك عن الحدود السورية ارسل كتاباً للجزار يعلمه بقدمه اليه
 وينصحه في المسألة فلم يتنازل الجزار الى مجاوبته فعاد الرسول بلا جواب فارسل
 نابوليون رسولاً ثانياً واصحبه كتاباً آخر فكان نصيب هذا الرسول من الجزار القتل
 فحنق نابوليون على الجزار وتقدم برجاله البالغ عددهم عشرة آلاف مقاتل نحو غزة
 وهزم من رجال الجزار اربعة آلاف فارساً واستولى على محلات الذخيرة والادوات
 الحربية وواصل سيره الى يافا وهنا وقفت جنود الجزار امام الجنود الافرنجى بضع
 ساعات في نهايتها اسفرت الواقعة على ثلاثة آلاف قتيل من الجنود التركية ودخلت

رجال نابوليون مدينة يافا وتصرفت بما عثرت عليه من مال ومتاع وهذه هي المرة
الاولى والاخيرة التي سمح نابوليون لرجاله بالتصرف والتمتع بمال المغلوب واملاكه
وقبل ان يترك يافا ويقوم برجاله الى عكا امر بقتل الاسرى الذين وقعوا بين يديه
ثلاثاً في العريش وفي غزة وفي يافا وكان يطلق سراخهم بيد ان يستوثقهم ان لا يقاتلوه
ولما اسرهم هذه المرة وعددهم ينيف على ثلاثة الآف حنق عليهم وعلم انهم لا يراعون ذمة
ولا يجترمون الشرف العسكري فامر جنوده برمايتهم ولم يواروهم التراب بل بقيت
اجسادهم طعاماً للطيور وظلت رفاتهم مكشوفة فوق الخمسين سنة

الفصل الثاني والخمسون

في حصار عكا



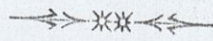
نابوليون بوناپرت

كان في مياه عكا مركبان حربيان انكليزيان للدفاع عن عكا من هجمات بوناپرت
ارسلتهما الدولة البريطانية لما علمت بانتصارات نابوليون المتتالية في مصر وان في نيته

اكتساح سوريا ونحن لا نتعرض لما حدث بين فرنسا وانكلترا من المزاومة والمسابقة
للمداخلة في الشؤون المصرية والسورية لان ذلك دون في حينه وانتشر اللأ بجلاء
لا يحتاج من بعده الى الزيادة

وكان نابوليون عارفاً بمناعة حصون عكا فطلب من مصر مدافع وذخيرة كافية
ليؤكد نصره وتقدم بجنده الى عكا وعند وصوله بلغه ان المراكب الانكليزية قبضت
على المدافع وكل ما ارسل اليه من مصر فلم يبال بالامر كثيراً فشرع بحصار عكا في
الثامن عشر من اذار ١٧٩٩ ومما يجدر بالذكر خطابه الذي القاها على جنوده حيث وقف
وقال مشيراً الى عكا « هذه المدينة هي مفتاح الشرق فاعلموا حرج مركزكم ووطدوا
عزائمكم على امتلاكها لان بامتلاكها تسلمون لدواتكم مفتاح الشرق فندخل القسطنطينية
عاصمة قياصرة الرومان ونملك شرقي وشمالي اوربا فاعلموا ذلك واخلصوا نياتكم »

وبعد ان اتم كلامه الموجز المملوء حماسة ونشاطاً امرهم بالهجوم وتشديد الحصار
وفي نهاية العشرة الايام تمكنوا من فتح الخنادق وخراب الدور وهجموا على حامية السور
واعملوا فيها السيف الى ان ادخلوها داخل الحصن واقطفوا آثارها وما عثم ان ظهر الجزار
بنفسه محرصاً جنوده على الثبات واخذ يفتك بكل من يركن الى الفرار منهم بالرصاص
فعاد الى الحامية نشاطها وعمد الجند الفرنسيون الى الانسحاب بانتظام وهكذا
ظلت الحال نحو شهرين قاسي بهما الجزار الاهوال ومع وفرة عدد جنده على الجنود
الافرنسية فضلاً عن حصون المدينة كاد يلحق به الفشل لو لم ينسحب نابوليون برجاله
عن عكا ويعود الى مصر . وذلك حدث بعد ان واصل عكا هجماته وضيق على
اهاليها اشد الضيق واذا وردت اليه عن فرنسا اخبار غير مرضية فآثر الالم على
المهم وقفل راجعاً الى مصر



الفصل الثالث والخمسون

في اتهام الامير بشير بالخيانة

ولما رفع نابوليون الحصار عن عكا صوب الجزار نحو الامير بشير واتباه تهنئة الخيانة
بمساعدة نابوليون وامداده بالمؤونة والذخيرة في اثناء حصاره عكا وقد تظاهر بحنقه
وكدره الشديدين منه وظل يهدده ويتوعده الى ان اضطره على طلب الاقالة لنفسه
فترك الامير دير القمر وقدم الحصن تصحبه حاشيته وجرجس مشاققة مدير خزينة الجبل

واتفق في تلك الاثناء ان بعض المراكب من العمارة الانكليزية كانت ساجحة في بحر
الروم تجاه الحصن وكان على ظهر مركب منها الصدر الاعظم ضيا باشا آتياً ليقود الجنود
التركية في الحرب الواقعة بين الدولة وفرنسا
فكتب له الامير كتاباً ارسله مع قبطان المركب الذي كان عائداً من النزهة الى
مزرعته وفجوى كتاب الامير شكواه من اعتساف الجزائر واظهار عبوديته الى الدولة
وكان من ضيا باشا بعد وقوفه على فجوى رسالة الامير بعث استخضره اليه وعند مقابلة
الامير بضيا باشا على ظهر البحر رجوع موعوداً منه على مساعدته
وبعد ايام قليلة بلغته اوامر الجزائر برجوعه الى مركزه واستلام زمام حكم
لبنان ففعل

الفصل الرابع والخمسون

ثورة ابناء الامير يوسف بتحرير الجزائر

وبعد ان رجع الامير الى دير القمر لحظ حركة غير عادية على اولاد الامير يوسف
ومن يميل الى حزبهم طلائعها عدائية وهي اقرب الى الحرب منها الى السلام وكان
بترأس حزب اولاد الامير يوسف البطل المشهور الشيخ جرجي باز وكان الامير يستميل
اليه مشايخ جنبلات ولم تمض الايام عبثاً فدارت الحرب واشتد القتال بين الفريقين
حتى قدر للامير في موقعة بالقرب من بيروت ان يطلع على الدافع باولاد الامير
يوسف على عداوته رآى رجال الجزائر يمدونهم ويحرضونهم على مداومة القتال فكظم الامير
غيطه وللحال بعث برسالة الى الشيخ باز عرض له بها ايقاف الحرب عند هذا الحد وما
وقف عليه من مقاصد الجزائر وكيف يجب عليهم ان لا يجعلوا للاتراك يداً في سلب
راحة الاهالي وجلب الفتن وضياع الامنية في ربوع الجبل وطلب من الشيخ ان يتروى
ولا يسبب للبلاذ ما لا يحمد عقباه ويكون مجلبة لخرابها ودمارها وكان الشيخ لا يقل
عن الامير وطنية وغيره على مصلحة البلاد فقبل اقتراح الامير انما طلب منه ان ينصف
اولاد عمه ولا يفكر بسواهم وقد تنازل له عن حقوقه كراماً منه بحيث لو اشترط على
الامير مائة طائلا لكان اهون على الامير تنفيذه من ان يرى مقاصد الجزائر سائرة الى

الامام ناجحة فيهم فقبل الامير بمطالب الشيخ العادلة ووعد ان بولي اولاد الامير يوسف جبيل وتوابعها — وعين اخاه نائبيهم ومستشارهم وبذلك قطع الامير حباثل الجزائر الفاسدة ورفرف السلام على لبنان مدة

الفصل الخامس والخمسون

في وفاة الجزائر

اذا امعنا الفكرة باعمال الجزائر ونظرنا الى نتائجها نظراً عادلاً بما ادته من النفع والضرر للدولة والرعية على السواء وجدنا هذا الرجل لم يكن نائباً عن اعمالها كما هو مألوف من حكام ذلك العصر فقد كان داهية ذا باس وحنكة واسعة وقد سلمت اليه الدولة ادارة شؤون اياتها وعولت عليه في اخضاع سور باو ضمها تحت جناحها على طريقة الغدر والخداع ودس الفتنة والحروب الاهلية بين امراء البلاد والمشايخ الذين كانوا يحكمون الرعية بالجور والفسق ويسومونهم النذل انواعاً والظلم اشكلاً ولا يعتبرونهم ارقى من الرقيق فكانوا يتصرفون بما لهم وارواحهم كيف شاؤا وكانت شريعة الرجل منهم ارادته السخيفة وكان الحاكم يشق ويقتل ويشوه اخلاق الشعب كانه الحاكم المطلق على قطيع غنم ولا فرق عنده لتتميم اوامره الجائرة وكان ظروف الحال فيضت لهم رجلاً كالجزائر لينتقم منهم ويكيل لهم الكيل كيلين

وكان هولاء العتاة لاهين بالمنازعات العائلية والحروب الاهلية بكرهون العدل ويعشقون الظلم لا يرحمون ضعيفاً ولا قريباً ولم يقيم فيهم رجل قادر يلم شعشعهم ويجمع قواهم المتفرقة تحت لواء الوطنية ليقاتلوا عن الامة ويندبوا عن حقوقها وباركوا الشخصيات جانباً وبعمالوا للعموميات ويتردوا الاجانب من وطنهم ويدافعوا عن استقلاله

ان معاملة الجزائر للامير يوسف لم تكن اقسى من معاملة الامير لاختوته وانسبائه وان ما لحقه من الجزائر هو غاية ما كان يستحقه وعدالة اليوم تطليب اجراءه وقس على الامير يوسف بقية المشايخ والامراء الذين كانوا يستبيحون مال وعرض الرعية في سبيل مصالحهم الذاتية

قد خدم الجزائر الدولة والشعب وان ظلماً . وعادت خدماته على الدولة بالنفع
فأخضع البلاد لشوكتها وأصبحت تطيعها وتعمل بأوامرها قانونياً بعد ان كانت ثانوياً ورد
عنها في ثباته امام نابوليون خطراً كان يهددها لو تم النصر للجنود الفرنسية في حصار عكا
واقاد الرعية انه اذاح عنها ضغط المشايخ والامراء المستبدين بها ولا ذمة ولا حرمة لهم
فكال لهم الوزن وتكرم فاضاف على وزنهم وزنة اخرى ورغماً عما اشاعته الاسنة وان
القوم خرجوا من ذل الى ذل فما هو فضل الجزائر الذي تطروه لاجله

فيقال في الجواب على ذلك القول : انه وان تكن حالة الشعب لم تختلف في ايام
الجزائر عما كانت عليه سابقاً فالجزائر اعددها لذلك الاختلاف وعلى كل حال فقد كان
الجزائر اقل جوراً بالنسبة الى الامراء والمشايخ قبله ولما جاءهم وضع حدّاً لظلمهم
وعسفهم وزعزع سلطتهم وارغم انوفهم واطلق الفلاح من عقابهم
ولا نريد الثناء على اعمال الجزائر والاطناب بما آثره الوخيمة انما نحصر قولنا في ان الجزائر
عمل بما يطابق زمانه ورجال عصره

وقضى الجزائر فحبه في سنة ١٠٨٤ عن اربعة وثمانين عاماً ولما انتشر خبر وفاته تهملت
وجوه الشعب وافرج عن الذين كان غضبه يهددهم وعلى شفا الايقاع بهم
وبعثت الدولة راغب افندي وحجز على متروكاته من مال وعقار وتصرف به
بموجب ارادتها

الفصل السادس والخمسون

في تعيين سليم باشا والياً على عكا

لا حاجة بنا الى الافاضة في كيفية تعيين خلف الجزائر وكيف ان الدولة اهتمت
الى الرجل المستوفي الشروط وانزلته في الفراغ الذي احدهه الجزائر عند وفاته فاشغله
وكان لا ثقاً به فسليم باشا قد عرفنا عنه الشيء النذر في الفصول المتقدمة فهو من اصل
كرجي مسيحي خطف من اهله وهو حديث السن ويبيع للمسلمين ووصل اخيراً الى
الجزائر حيث احتفظ به واعلى منزلته لما رأى فيه من النباهة والنشاط

وقد اشتهرت بحجايه الحميدة بين الجنود حتى اجمع على محبته كل من عرفه
وقد اصابت الدولة في تعيينه والياً خلفاً للجزائر لما له في قلوب الشعب من الهيبة

والوقار وكان غيوراً على تأييد الشريعة والعدالة صادعاً بأوامر الدولة عاملاً شفوفاً على
الرعية معاملاً للجميع على السواء
وكان متساهلاً يحترم كافة الأديان وكان نائبه علي باشا يمثله خلقاً وخلقا وعين
مديرًا للخزينة حليم فارحي بعد أن رفض طلبه خوفاً من أن يحمل به ما أصابه من الجزار
فأصر عليه سليم باشا إلى أن يقبل بالوظيفة وإطلاق يده وعقله في شؤون الولاية
والعقول الكبيرة إذا أطلقت تأتي بالعجائب ولما قبض حليم على زمام وظيفته وأمن
على إطلاق أفكاره وتسريحها في فضاء عكا أذهل معاصريه ونال ثقة مولاه فكان
يفتش عن الرجل ذي الاستقامة وبوظفه وسعى فجعل مشايخ آل صعب راتباً للتقاعد
وتأميناً على أملاكهم وحياتهم ثم حمل سليم باشا على رحمة الرعية فلم يجمع من الأهالي
مالاً جديداً

ورسم على الواردات الأجنبية رسوماً كان منه الدخل الوافي إلى الخزينة
ثم أشار على سليم باشا أن يمنح الألقاب إلى أمراء الجبل في مخاطبته لهم وأصبح
يستهل كتابه فخر الأمراء الكرام ولدنا المكرم الأمير كذا . . .
فساد الأمان في مدة هذا الجوق النبيل على ولاية صيدا ونوابها وشعرت الأهالي
بارتقائها مادياً وادبياً

الفصل السابع والخمسون

في المامرة على آل نكد

في هذا الفصل وما يليه شواهد قاطعة على أن وفاة الجزار ورفع يده عن أمراء
الجبل ومشايخه وأحزابه لم يحدث تغييراً مرضياً في جولبنان وسياسته ومن ألف المشاكسة
واعتماد على التلاكم والخصام عبثاً يرتجى منه إصلاح
ففي هذه الأثناء عقد مشايخ جنبلاط وعماد الممامرة على تدمير آل نكد بحكام
مقاطعة دير القمر وتوابعها ونسبوا إليهم مواصلة الحروب الأهلية وواقع الحال أن آل
نكد ينضمون مع الحزب الأقوى وينصرون المنتصر ولا فرق عندهم غير الفرق الموجود
بين قوي وضعيف أما بقية الأهالي وأمراء ومشايخ فكانوا منقسمين إلى قسمين قسم
مع آل جنبلاط وقسم عمادي فنأصت العداوة والحروب في قلوب هذين الحزبين اقويين

وطال امدها ولما لم يكن لدي الفريق ادلة واسباب واضحة لهذه المشاغب زعموا ان ال نكد علنها وسبب اشتعال حجرتها وقد اتفقا معاً على هذا الزعم وتأمرا على التنكيل بمن كان تعزى له هذه القلاقل وقد اطلعوا الامير على ما وطلدوا عزمهم عليه فاظهر لهم الامير ارتياحه ووعدهم بالمساعدة على خصمهم والامير عذر وهو زغا عن كون دير القمر مركز حكومة امراء شهاب لم يكن لهم غير السلطة الثانوية فيها وكانت السلطة المهروبة الى آل نكد حكامها وكان اذا ارتكب احدهم جرماً امام بيت الامير وتمكن من اجتياز بضع خطوات عنه اصبح حراً من الامير ومقيداً بسلطة ال نكد وكانوا ان شاوا تسليمه للحكومة كان لهم ذلك ولا احد يعترضهم ان شاوا الخلاف لان لهم مقاطعة ولهم حق التصرف فيها بعد تقديم الجباية

وكان الامير يخرم منهم ويود الخط من نفوذهم ولذلك لما علم باتفاق مشايخ جنبلاط وعماد على سحقهم غدرًا سر واطهر ارتياحه

ولما توفرت معدات الموامرة لدى اربابها اولوا وليمة دعوا اليها اهل الزعامة من آل نكد وقد وفقوا الى الفتك ببضعة منهم الشيخ قاسم واخيه احمد وكلهم ذو شدة وبأس وبعد ان قتل لال نكد زعامتهم فر من بقي منهم لابلون على شي وفي ذلك تجلص الامير من مزاحمه على السلطة في قلب حكومته

الفصل الثامن والخمسون

في الموامرة على اولاد الامير يوسف

وبعد نكبة ال نكد وازاحتهم عن دير القمر خلا الجو للامير بشير فارادان يستقل بحكومته على الجبل فلم يفلح

والسبب كان نائبه وقبئذ الشيخ جرجس باز وكان هذا وصياً على اولاد الامير يوسف وكان له مقام وكلمة نافذة في الشعب كما مر بنا في الفصول المتقدمة

وظن الامير انه عثرته الوحيدة فاضمر له سوء ولكنه كان يخشى جانبه ويمحرم شجاعته وقد اشتهر باز بعد جلاء آل نكد عن دير القمر بين الرعية وكاد يستأثر بالحكومة وحده وذلك مما دعا الامير على تنفيذ غايته فتأمر مع مشايخ الدروز على الفتك به وارسل

رجالاً من قبله الى جبيل لتفتك باخيه عبد الاحد وفي الوقت المعين حضر اليه اولاد زين الدين وكنوا في بيته ولما حضر الشيخ باز اجابته دعوى الامير ودخل غرفة الاستقبال وهو اعزل فاطبق عليه اولاد زين الدين واماتوه خنقاً وكان نصيب اخيه عبد الاحد مثل نصيبه غير ان الامير خاف على رجاله الفشل بمهمتهم فقام الى جبيل وهو في الطريق التقى بالرسول قادماً اليه ومعه رسالة تفيده عن قتل عبد الاحد باز والقاء القبض على اولاد الامير يوسف . وقبل ان يترك الامير عاصمته ارسل فقتل يوسف اغا الترك صديق الشيخ باز خوفاً من سطوته واستطرد الامير مسيره الى ان وصل جبيل وفي حال وصوله امر بسمل بصر اولاد الامير يوسف بطريقة نخشى على شعور القاري من ابرادها والرجل الذي قام بهذه المهمة البربرية فاسم بن العرب فكان يحمي قضباناً حديدية ويوخز بها اعين اولاد الامير وداوم على ذلك ثلاثة ايام وهكذا كانت نهاية اولاد باز واولاد الامير يوسف وحدث ما حدث لهم وقع في اب سنة ١٨٠٨

الفصل التاسع والخمسون

في جلاء آل عماد عن لبنان

وبعد قتل البازيين ونكد ضعفت شوكة العماديين وانحلت عصبيتهم واغلت ايديهم وقد ادركوا غلظتهم في رفع يدهم عن الحكومة وما دبره لهم الامير واتباعه من تخفيض قوتهم فعولوا على التعدي وسلب راحة الاهالي وقد تكاثرت الشكاية عليهم للامير وكانوا ينوون الايقاع بالشيخ بشير جنبلاط ولكنهم لم يفلحوا لان الامير كان موكلاً على حراسته عصابة شديدة الحفظ على اوامره ولما تفاقم امرهم جند عليهم الامير حملة اخرجتهم من لبنان وساقتهم الى مصر فارتاحت البلاد من شرهم وعادت الى السكينة

الفصل الستون

في حملة الوهايين على الشام

في سنة ١٨١٢ ام الشام جند من الحجاز ارسله محمد بن عبد الوهاب الذي

ادعى الخلافة وبايعه عدد غفير نصره على طرد الاتراك من جزيرة العرب وبعد ان قطع طريق الحج على الاتراك ارسل رجاله الى المذنبين في حوران تبشر برسالته وما يقصده من الفتح وامتداد السلطة وكثب الى اهل الشام بدعوههم الى الاسلام والطاعة ظناً منه ان الاتراك ومن ناصرهم من المشركين وكان والي دمشق يوسف باشا الكردي وكان مشهوراً بالفروسية عينته الدولة خلفاً لعبد الله باشا الذي حدث على عهده قطع الوهابيين الطريق على الحجاج

ولما عينته الدولة حرضته على قتال الوهابيين وفتح طريق الحج وقد خرج بمسكوه على الوهابيين ولم ينل منهم مأرباً وكان يخنق للدولة الاعذار الفارغة ويدعي قلة عدد جنوده وطوراً وعموراً الطريق اعاقته من اللحاق بهم

ولما لم يكن له قوة كافية لفتح طريق الحج اخذ يشغل الشعب عن الحج بامور تافهة وكانت تصرفاته سافلة تدل على سخف عقله ومنها انه امر المسلمين باطلاق الحام على السواء ومن خالف الامر جزاؤه الاعدام . واصر النصارى ان ترتدي الاسود نساء ورجالاً على السواء واليهود الاحمر نساء ورجالاً على السواء مع ان الاسود كان شعار الدولة العباسية

الفصل الحادي الستون

في فرار يوسف باشا الى مصر

ولما سئمت الدولة من مواعيد يوسف باشا في ازالة الوهابيين عن طريق الحج واكدت خموله وعدم اصلاحه ارسلت الى سليم باشا والي صيدا وامرته بمقاتلة الوهابيين وعزل يوسف باشا وتعيين من يرى به الكفاءة فجمع رجاله وارسل للامير بشير ان يوافيه برجاله الى طبرية

فجمع الامير رجاله وقدم الى طبرية حيث التقى سليم باشا وانضم اليه الجيشان المؤلفان من كافة النجلى تحت قيادة الوزير سليم باشا وكان عدده وانياً لم يسبق انضمامه تحت قيادة عامل تركي من قبل

وكانت وجهة هذا العسكر دمشق لنجدة يوسف باشا على الوهابيين وعند وصوله الى

القنيطرة التي تبعد عن دمشق ثلاثين ميلاً نزل بها للراحة ولما شعر يوسف باشا بقدم
والي عكا لنجده ارسله رسالة بلغته وهو في ذلك المكان يفيد به عن عدم حاجته
الى مساعدة علي رد الوهابيين حيث محمد علي باشا سبقه علي ابعادهم عن الشام واجلاهم
عن طريق الحج
ولم يكن سليم باشا ممن يؤخذ بمثل هذه الجبائل فظل سائراً بطريقه الى ان
بلغ عطوز
وهناك خرج اليه يوسف باشا برجاله والتحم القتال بضع ساعات اسفرت عن قتل
يوسف باشا والتجائه الى الفرار فقصده مصر ودخل في حبي محمد علي باشا

الفصل الثاني والستون

في امراء راشيا الشهابيين

وبعد انهزام يوسف باشا وتبديد رجاله دخل سليم باشا الى دمشق واعلن سيطرته
عليها وكان ذلك داعياً لسرور الاهالي
ومن حسنات سليم باشا انه ضم اقليم البلان الى ولاية الشام بعد ان كان مستقلاً
تحت لواء امراء راشيا الشهابيين ودعينا عمل الباشا هذا من حسناته لاسباب اولها
كون حكم ذلك الاقليم مستبدين وكانت الاهالي تقامي عذاباً وجوراً لا يطاقان
وكان الامراء يدفعون عنه مالا معلوماً لحفظ استقلالهم به وراشيا معاً وكانت
الحكومة مشطورة مع الاهالي الى شطرين حزب يناصر الامير افندي وحزب يناصر
الامير منصوراً

واصل العداوة بين الاميرين هي قتل الامير افندي شقيق الامير منصور فاستنحل
الامر واشتدت المنازعة بينهما وكان الواحد منهما يراقب الآخر ويترصده الفرص ليفتك
به ومن جراء ذلك بالطبع كان الامير منها يحتاج الى عصابة ومال وحاشية ليحفظ
مركزه امام خصمه فكانت الاهالي مسؤولة عن لوازم زعيمها ومضطرة الى تضييق حياتها
ومالها امامه على مذبح مطامعه الذاتية . وحدث لاهالي اقليم البلان انهم رفعوا شكواهم
الى سليم باشا وعرضوا له تصرف الامراء بهم وهي جراءة تعد لهم ونزغ ان فيفظها
نقديراً لحقوقهم ونود لو تقدم على الاقتداء بهم في اي زمان ومكان . وكان من سليم باشا انه

انصفهم واجاب دعوتهم وفي الحال رفع سلطة الامراء عن ذلك الاقليم واعلن ضمهم الى ولاية الشام ولا مشاحة كان لاهالي البلان فائدة شعروا بها وقدروها حتى القدر

الفصل الثالث والستون

في سعاية الشيخ علي العماد

وبعد ان استتب الامن في ولاية الشام وتوابعها قدم سليم باشا برجاله الى مركزه والامير الى محل اقامته

واتفق لاهالي حلب انهم اضطهدوا دروز تلك البقاع وارغموهم على النزوح فاتوا لبنان وقصد وفد منهم دير القمر وطلب من الامير والشيخ بشير جنبلاط قبولهم في جوارهم وكان من الامير والشيخ ابداء كل حفاوة بهم ورحبا بنزولهم في بلادها وكثر عددهم واكثر الشيخ من الاعتياء بهم ومن دخل بخدمته منهم

وفي عساري نهار دخل على الشيخ جنبلاط رجل منهم ورام البطش به وكاد يظفر بوطره لو لم يعترضه كاهن ماروني اتفق وجوده عند الشيخ في ذلك الحين اسقط مسعاه ونجى الشيخ من شر الموت غدرآ ييده

وللحال بعد ان القي القبض على الدرزي صدر امر الشيخ باعدامه وبما هو جدير بالذكر اقبال درزي يدعى سليمان الحكيم قدم من الغرب ليفتك بالامير وقد حاول اولاً ان يقضي على الشيخ ولم يفاع فدخل على الامير مرتين وعاد بالفشل والقي القبض عليه واجبره الامير على الاقرار وما الذي جملة على عمله وكان جوابه كي ينقم لآل عماد منه ومن الشيخ جنبلاط وصرح انه رسول من قبل الشيخ علي العماد الذي فر الى مصر والذي دفعه الى هذه المهمة وبعد ذلك رأى الامير وجوب اعدامه فامر بشنقة

الفصل الرابع والستون

في اعتناق الشيخ بشير جنبلاط الاسلام

ففي سنة ١٨١٨ نظاهر الشيخ بشير جنبلاط باسلامه وتأييداً لاعتناقه مذهب

الاسلام بنى جامعا امام قصره وليس هي المرة الاولى التي كان الدين متاعاً وسلعة فكثير قبل الشيخ وبعده ولم نزل نرى في ايامنا الحاضرة رجالاً ذوي وجاهة فراراً من طاريء يحول دون مقاصدهم السياسية يجعلون دينهم العتيق ويلبسون ديناً آخر طمعاً ان بنالوا نعمة من اولي الامر على ذلك الدين والشيخ بشير بتركة دين اجداده واعتناقه دين الاسلام لم يكن الا لغايات في صدره يريد تنفيذها وكانت نفسه تطمح الى ولاية لبنان وفي خلال هذه المدة قام الامير حسن ابن خال الامير بشير علي والده وعمه وقتلها بدعوى كونها رفضاً ان يكونا على مذهبه الذي اعتنقه حديثاً وجارى الشيخ جنبلاط به وقد ارسله الامير مكبلاً الى عكا ومن عكا ارسله سليم باشا الى الاستانة والقي في سجنها الى ان احضره عبد الله باشا منها وقتله الامير اسعد

الفصل الخامس والستون

في موامرة الشيخ بشير علي الامير

وقد باغ الامير ان الشيخ جنبلاط يدس عليه الدسائس طمعاً بالامارة على الجبل مكانه ولولا ذلك لم يعتنق دين الاسلام ولا تظاهر به والوشاية توقع الريب حتى بين اخلص الاصدقاء وان تكن وهماً فصدق الامير ما وقع على سمعه وحنق على الشيخ باطناً وكان من الشيخ لما درى بحنق الامير عليه انه تظاهر بالاحتراس والنيقظ منه مما زاد اعتقاد الامير في صحة الوشاية واجتهد الشيخ ان يزيل شكوك الامير به ولم يفلح ومن الاشاعة ان الشيخ لم يكن يقصد الايقاع بالامير انما كان يبغى ابداله بامير اضعف منه يتسنى له التفوق عليه واظهار مقدرته الا ان ذلك لم يظهر صحته الايام وفي مرافقة الشيخ الامير عند ما غضب عليه عبد الله باشا الى حوران حجة على فساد الاشاعة

الفصل السادس والستون

في وفاة سليم باشا وتعيين عبد الله باشا مكانه

وفي سنة ١٨١٩ توفي الى رحمة ربه سليم باشا بعد ان خدم الدولة والرعية خمسة

عشر عاما بالعدل والامانة وكان الاسف عليه عاماً حتى شعرت بفقده الدولة
وعينت الدولة خلفاً له عبد الله باشا ومخّته لقب الوزارة والبشوية
ولم يحدث في ولايته لاول عهده تغيير يذكر فابقي ولاية الامور في مناصبهم
الا انه كان ضعيف النفس ميالاً الى معاشره الفئة المسخطة وكان متعصباً
فاخلص حاييم فارحي النصيحة ونهاه عن اعماله المعيبة بمقامه ولم ينجح مع ان حاييم
كان العامل الاول لتعيينه خلفاً لسليم باشا
فخفق عليه عبد الله باشا وامر باعدامه وطرحه في البحر وبموت حاييم تلك المونة
الشيعة بعد ان عرف عنه الامانة والاستقامة حدث في الولاية اضطراب ورعب في
قلوب الرعية وباتت اصحاب الوظائف في خوف من العزل والضغط كما حدث لارباب
الرتب على ايام المرحوم مظفر باشا

الفصل السابع والستون

في اضطراد الامير بشير

وكان الامير بشير اشد الناس غماً على حاييم فارحي لما عرف به من العدالة وبعد
النظر وصدق المودة وطيب العنصر وكأنه ادرك سلفاً ماذا يكون شأنه مع عبد الله باشا
وكيف تنقلب دفة سياسته عليه وكان ظن الامير بجعله حيث لم يمض على اعدام حاييم
وقت يذكر الا وشرع عبد الله باشا في تحوير معاملته للامير وسواه من اهل الرتب
والوظائف وبدأ يطالب الامير باموال خارجة عن المألوف وكان الامير طوراً يرسل
طلبه وطوراً يعتذر له وحيناً يبذل من ماء الوجه ويستعطف خاطره بالتجمل وغير
ذلك من طرق المداينة

واخيراً بعث عبد الله باشا في طلب فائق الحد وفوق طاقة الامير . وفضلاً عن
استفحال الطلب عرض له ان يعتنق مذهب الاسلام نجاتاً له من اضطراده المتلاحق
وكان الدافع لعبد الله باشا على مقاومة الامير وشد الخناق عليه الى هذا الحد
النميمة والوشاية

وعند ما بلغ الامير مطالب الباشا الاخيرة وقع بحيرة شديدة لجنوحها عن العادة
المألوفة لغرابتها فعقد مجلساً بين رجاله واقرب الناس اليه واخذوا في المداولة وانتشر

في جو لبنان انقلاب عبد الله باشا ومضايقته للامير وبلغ اسككة طرابلس واتصل بجاكمها مصطفى اغا بربر ولما كان بربر من خدمة شقيق الامير سابقاً اوجب على نفسه ان ينصح الامير ولكن الاشاعة كانت تنسب اليه وانه هو الذي كان يواصل عبد الله باشا بعلامه عن الامير وهو الذي حمله على ابدال معاملته السابقة

ومن الذين اخلصوا للامير النصيحة بطرس كرامة فاشار عليه اما بالرحيل عن لبنان واما ان يشهر عداوته للباشا ويكافحه

فاجابه الامير ان اشهار السيف بوجه مولاه من الامور التي ياهاها ولما اجتمع بالشيخ بشير جنبلاط وتفاوض واياها ملياً في حل المعضلة التي وقع بها قرراً بينهما على ترك لبنان والذهاب الى الشام ريثما يرضى عبد الله باشا عليه

الفصل الثامن والسنون

في ترك الامير مركزه

وبعد ان استصوب الراي في ترك دير القمر باكثر رجاله ارسل الامير الى جرجس مشاققة مدير الخزينه ان يعلمه قيمة ما لديه من المال فوردته الجواب ان الخزينة تحتوي على

الف ليرة فقط

ولما كانت القيمة لا تسد حاجات الامير العديدة ولا تقوم بنفقة قيامه اعلم الشيخ

بشير جنبلاط فمدده هذا بكمية وافرة

وعند ذلك امر الامير بالاستعداد لترك دير القمر بعد ثمانية ايام

وفي نهايتها نهض الامير بجاشينه ورجاله الذين بلغ عددهم ثلاثة الاف بين فارس

وراجل وقام برفقته من الشهابيين الامير حيدر الاحمد من قرية شمالان والامير عباس

من مجدل معوش وجرجس مشاققة وعائلته قام بمعيته . ولما وصل الامير برجاله كثير فبرخ

بلغه رسول عبد الله باشا الذي يجدد عليه الطلب ويلج عليه في اسراع تلبيةه فجاوبه

الامير باللطف وقال له لو كان بوسعي وبوسع الرعية تقديم مطاليك في فعلت ذلك

حُباً وكرامة انما عدم مقدرتي واصرار الوزير على طلبه اضطراني الى ترك دير القمر والجلاء

عن لبنان على الوزير يعين له مكاني من يكون كفوّاً للقيام بمطاليبه . واقراي العجز

لا يحرمني ان اذكر الوزير في حلي وترحالي بحاله علي من الفضل وغمرني به من نعمته
 واستطرد الامير المسير الى ان بلغ حمانا فنزل فيها ليلة ومنها وصل الى قب الياس
 التابعة لولاية الشام ومنها سمح لرجس مشاقه ان يبقى مع اولاده في الشام . وارسل
 الى عبد الله باشا رسالة اعلمه بها انه ينوي الشخوص الى حوران وداوم الامير مسيره الى
 ان بلغ جبل الدروز في حوران ومن هناك ارسل الامير رسالة الى عبد الله باشا اعلمه
 بها عن وصوله ونزوله في ذلك المكان

الفصل التاسع والستون

في خلف الامير

وقد حدث لعبد الله باشا بعد نزوح الامير عن دير القمر انه عين مكانه الامير
 حسن بن الامير علي والامير سليمان بن السيد احمد وكلاهما من وجوه ال شهاب بعدان
 سلخ عن الجبل اقاليم الخروب والتفاح وجزين وجبل الريحان وجبيل فرضي الامير ان
 بقسمتهما ولم يظهر اعتراضاً وتثبيتاً لرضاها اعتنقا مذهب الاسلام لينالا نعمة بعين عبد
 الله باشا ورجع آل عماد لما عرفوا ان خصمهم رحل عن دير القمر وزاقت الاحوال
 وساد السلام مدة

الفصل السبعون

في تعيين الامير حسن حاكماً على الجبل

وكان عبد الله باشا كثير الحركة قليل البركة فكان دابه العزل والبذل وحشد
 الاموال من ولاية المراتب ولما اتصل به خبر وصول الامير الى حوران استخضر من الاستانة
 الامير حسناً الذي عرفنا القاري به في غير هذا الباب وكيف انه قتل والده وحماه
 لرفضهما تغيير مذهبهما والاقتداء به وكيف ان سليم باشا امر في سجنه وارسله الى
 الاستانة تكفيراً عما جنت يده الاثيمة ولكن للناس مشارب وغايات تضحي في تنفيذها
 اقدس الواجبات وتحلل المحرمات ولا تبالي . وفي احضار عبد الله باشا الامير حسن

وتعيينه حاكماً على الجبل شاهد على قولنا و بدلاً من ان يسمى في اعدامه فصاصاً لما اجترمه
احضره وعفى عنه وجل قدره . لماذا ؟ لانه اعتنق مذهب الاسلام وهو ذو ثروة طائلة

الفصل الحادي والسبعون

هدية الامير بشير لدرويش باشا

في المدة التي دخل جرجس مشافه باولاده الى الشام كان واليها معزولاً وكان الحاكم
عليها وكيلاً اقامه درويش باشا يدعى درويش اغا بن جعفر اغا ولما بلغه خبر قدوم جرجس
مشافه واولاده وكان يعلم مركز مشافه عند الامير فظن انه نال بغيته وملاً جوفه من مال
الامير فصدر امره بالقبض على اولاد مشافه اينما وجدوا
ولما شاع خبر قدوم درويش باشا الى الشام ليتربع في دست الولاية قدم له الامير
هدية خمسة رؤوس من جياد الخيل فقبل درويش باشا الهدية ووعده الامير بالمساعدة
وعند ذلك افرج عن اولاد مشافه وقدم الى دمشق من رجال الامير بطرس
كرامه والشيخ منصور الدحداح ويوسف الخوري الشلفون وشاهدوا مع جامع حوادث
كتابنا المقابلة التي جرت لدرويش باشا في دخوله الى مدينة الشام
وكانت العادة التي جرى عليها حكام ذلك العصر عند ما يتولى احد مناصب الولاية
انه اول عمل ياتيه اعدام بضعة من المحاييس وتجريم البري، كي يوقع في الشعب رهبته
ويريه قساوته وبدلاً من ان يطلق سراح المسجونين ويتظاهر بالذعة والظلم كما هي
عادة حكام عصرنا يفتش عن المجرم او المتهم بجرم خفيف ويصدر امره باعدامه
ذلك ما كان من باكورة اعمال درويش باشا حين وصوله الى الشام وكان حظه اوفر
من سواء حيث اتفق له وهو في طريقه الى مركز الولاية انه عثر على بضعة اشخاص في
حماة وحمص فاحضرهم معه وكان يعدم الواحد بعد الآخر كل صباح يوم ارباباً للرعية
وكان الشعب ينظر الى الحاكم نظر العبد الى سيده ولا يتجاسر على رفع ناره اليه
وكانت الاهالي تحتفل بجاكها وتظاهر بعبوديتها له وتزبد من الاطياب به قبل
ان تعلم عنه شيئاً وتحرق له بخوراً ونضحي له الشموع وتزين الشوارع كما هي عادة التي
لم نزل نجترم نصوصها الى يومنا هذا
ومن جملة اهالي دمشق بطرك الروم وبقية خدمة الكنائس خرجوا ملاحاً درويش

باشا بالزمار والقيثارة

وكان يتقدم الباشا مناد للصلاة على النبي واصحابه وقد حيته مدافع القلعة وبنادق الجنود وصدق في نهار دخوله كان عيد الفصح للروم فاعتنموا الفرصة واحرقوا من البارود اكراماً للفصح وللباشا معاً ما شاؤوا
وكانت طريقة الاعداد في الشام خنقاً يجبرون اليهود او من صدق لهم في حينه من النصارى على تنفيذ الحكم بالمجرم

الفصل الثاني والسبعون

في استبداد سيروفيم بطريرك الروم

ومن الحوادث التي هي جديرة بالذكر والتي نشأت بسببها فتنة بين بطريرك الروم سيروفيم وبين طائفة الروم الكاثوليك وادت الى اضطهاد هؤلاء :
كان بطريرك الروم على عصر حوادث كتابنا له الساطة على الكنيسة والطائفة الكاثوليكية رغماً عن انفصال هذه عن كنيسته وكانت الدولة تعضده وتطابق ارادته في شؤونها

وكان لا يسمح لرجال الكنيسة من الطائفة المشار اليها بلبس القلائس السوداء ولا تقليد ملبوس كهنة الروم وقد اجبرهم على ان لا يختلف لباسهم عن لباس عامة الشعب . وكان يقيد ارادتهم في الجنائز والعمادات والاكاليل فكان اكليروس الروم مضطراً في كل ذلك الى رخصة منه قبل مباشرة شيء منها وكان يقاص من يجترى على مخالفة القاعدة . وفي سنة ١٨١٩ حدث خلاف بين كاثوليك حلب ومطران الروم جراسيموس التركان ومع كون رعية المطران في حلب لا تزيد عن خمسين نفساً تصدر لارغام الطائفة الكاثوليك وعددها الف وخمسمائة نفس على التزام طاعنه غير ان الكاثوليك رفضوا طاعته واصروا على مقاومته وطال الجدل بينها واعقبه خصام وقتال اسفر عن قتل احدى عشر نفساً من الكاثوليك كان اعدامهم بامر الحكومة واستقالة المطران من وظيفته وارساله الى صيدا حيث اجتمع بالدكتور ميخائيل مشافة وتأصلت الضغائن بين الطائفتين لا سيما عقب ان فتك احد الرعايا ببطرك الكاثوليك اغناطيوس

وما زاد الطين بلة والطنبور نعمة حنق بطربرك الروم على كاهن كاثوليكي وبدلاً
من ان يعاقبه على الشروط الكنائسية كما هي العادة ارسله الى السجن واهانه
فمضى بعض الوجوه من الكاثوليك وسعوا بهم فخرجوا الكاهن من السجن وكان
خروجه نكابة بالبطريك وكان من بعضهم انه تقدم الى البطر كخانة ويده عصا قد علقت
على طرفها حذاء عنيقاً وهو ينادي بصوته اذا كانت هذه راية ساروفيم وكانت عصابة
تجاوبه 'سود الله وجهه
فاغناظ البطريك من هذه المظاهرة وعدها اهانة جسيمة وبلغ منه الغيظ حداً اخرجه
عن حدود التعقل فامر جميع كهنة الكاثوليك وقسوسها بجلق الحام واستعمل نفوذه
لدى الحكومة فساعدته ونفقتهم الى جزيرة ارود عن طريق طراباس
وقد شكى الكاثوليك معاملة سيروفيم الى عبدالله باشا فامر بارجاعهم
ولم يكتب سيروفيم بما تقدم بل قدم شكواه الى الوزير واعلمه ان جانباً من الرعية
تمرد عليه بمساعي الافرنج وخنج عن دينه وقد كذبت الطائفة الكاثوليكية فرجع بالفشل
واخيراً اتهمهم بالموامة على قتله وفي هذه المرة تمكن من جلد امم الجمهور وبعد ان
سامهم من العذاب والاهانة الوانك اجبرهم على دفع مال واطلق سراحهم
وبعد ايام صدر امر الوزير بتحقيق النصارى ومنعهم ان يرتدوا ثياباً حمراء ولا سيما
الحذاء الاحمر وفي يوم صدور الامر كان في بيت مخائب مشاقة بضعة من عيون لبنان
احذبتهم من النوع المحظور فخافوا ان يخرجوا خارج البيت قبل ان سودوها

الفصل الثالث والسبعون

في عودة الامير بشير من حوران

وبعد ان طال على الامير الامد في حوران يقاسي شظف العيش في تلك الفيافي
القاحلة نفذ منه المال واصبح بجيلة من العسر حتى انه اضطر الى رهن بعض املاكه
وسحب عليها اسد عوزه وهو في تلك الحال من الضنك والفقر ورد عليه امر درويش
باشا بطلب كمية تبلغ نصف مليون
وعند ذلك ارسل الامير الى عبدالله باشا يستعطفه في كبح مطاعم درويش باشا
عنه ووسط له ضيق يده والحالة التي وصل اليها

فرثي عبد الله باشا لحاله وبعث يستحضره اليه بعد ان شعر بيجاجته الى امثاله في تلك
الايونة خصوصاً لما بلغه عصيان المورة وتمدي بجارة الاروام على السفن القادمة الى
سوريا وطلب الباشا من الامير ان يأتي لمقابلته شفا عمداً للمفاوضة في شؤون هامة
ولما بلغ الامير امر الباشا عول على القدوم اليه في ثاني الايام بالرغم عن تحذير
الشيخ جنبلاط له من الشرع في الانقياد الى شفا عمداً و اشار عليه في تظاهره بالدين
الاسلامي فأمر الامير بمقابلة عبد الله باشا وثبوتته على دينه
وفي ثاني الايام قصد شفا عمداً المكان الذي عينه له الباشا ومعه عشرون فارساً
ولما علم عبد الله باشا بوصوله بعث اليه يخبره بالمكان الذي يريد ان ينزل به فاختر
الامير جزين المساوخة عن الجبل وارسل يستقدم رجاله اليه وبعث فاستحضر جرجس
مشاققة واولاده من الشام وبقي مخائيل ليم دروسه فيها
وعقب وصول الامير الى جزين اقبل اهل زعامتها للسلام عليه ووعدوه بالطاعة
ولم يمض على وصوله وقت يذكر حتى ورد اليه امر عبد الله باشا في تعيينه حاكماً على
الجبل وضم الاقاليم التي كان سلخها عنه الامدينة جبيل
وظل الامير اياماً في جزين يتأهب للرحيل الى مركزه ويمد الامور اللازمة
لاستلام وظيفته

الفصل الرابع والسبعون

في ثورة الشعب ضد الامير

وقبل ان يقوم الامير من جزين طلب من الاهالي دفع الجزية والخراج كجاري
العادة لكن بصورة غير صورتها الاولى مما جعل الشعب يستغربها واصر علي رفض
اجابة طالب الامير وحاول الاميران يفهم الشعب ان القيسة هي ذاتها انما صورة لا ثمتها
تختلف عن الماضية ولم ينجح فنار عليه نحو ثلاثة عشر الف نفس ولم يكن مع الامير
فوق الثلاثائة ودارت رحى الحرب بينهم مع ان الامير نهام واخاض لهم النصيحة ولم
ينتهوا فاعمل بهم سيفه واصر رجاله على قتلهم ان يقندوا به وقد انتصر الامير مع قلة
عددهم علي ذلك الجمهور وذهب من رجاله بضعة ومن الاهالي عدد غفير وانهمزوا وفي

مساء ذلك النهار انتهى عبد الله باشا الى الامير امر تعيينه على جبيل والجيل ورخص له
الاقامة في جبيل

اما الشيخ بشير جنبلاط فجمع لديه النفي رجل من الاشداء وتوجه بهم قاصداً
مركز الامير الجديد ليساعده على العصاة . وفي وصوله الى نهر الكلب التقي بشرذمة
من العصاة كامنة له تنوي الفتك به وبمن معه واغلب العصاة من كسروان فقاتلهم
الشيخ بمن معه من الرجال وشتت شملهم . وفي طريقه الى جبيل التقي بالكاهن ندرا
وهو في العدة الكاملة للنزال يحرض القوم على اعادة الكرة والمواظبة على القتال الى
ان يتم لهم النصر فقبض عليه الشيخ وقدمه ذبيحة للنار تكفيراً عن ذنوبه وداوم مسيره
الى جبيل

وبعد ان هدأت الاحوال ولاذت الاهالي الى السكينة والطاعة ورد الى الامير
رسالة من عبد الله باشا مفادها ان يقدم اليه جدعون الباحوظ ليفاوضه بشؤون هامة
وبعيده اليه بها ليقصها على مسامع الامير فصعد الامير بمفاد الرسالة وطلب الى
جدعون الذي كان الامير يعتمد عليه في حل المضلات ان يذهب الى عبد الله باشا

الفصل الخامس والسبعون

في قدوم الامير الى بيت الدين

ورأى الامير من الابقى لحفظ نظام الجبل ان يقوم الى مركز الولاية فقام الى بيت
الدين وقبض على ازمة الاحكام بيده الحديدية وصدف في تلك الاثناء ان درويش باشا
شخص الى مكة بمجفل الحج واقام مكانه فيضي باشا وعين فيضي باشا حسن اغا العبد نائباً
له على البقاع ولم تستقر لحسن اغا الولاية حتى بدأت تعدياته وكثير تشكي الاهالي
منه للامير وكانت تعدياته متلاحقة واكثرها بين صيدا ولبنان حتى لم يعد للامير
بدئ من جدع انف المتعدي فطلب من فيضي باشا ان يكف حسن اغا عن تعديه وبامره
بارجاع ما سلبه من اهالي ولايته ولما لم يرد له جواباً جند له فرقة وامرهم ان تلحق بحسن
اغا العبد وتلقي القبض عليه وتسترجع ما سلبه من الرعية فقامت الفرقة ولم تبلغ البقاع
حتى فر من وجهها حسن اغا الى الشام
فرجعت ومعها نعويضات عما الحقه الاغابها من النهب والتعدي

وعين فيضى باشا امين بك مكان حسن اغا العبد ولما درى الامير بقدمه ارسل اليه الشيخ جنبلاط بشرذمة من الجند احضروه مكتوفاً الى الامير ولولم يشفع به مخايل مشافة لقضي عليه في سجن الامير

الفصل السادس والسبعون

في الموامرة على عزل عبد الله باشا

اتفق لجدعون عائق صده عن الشخصوس الى مواجهة عبد الله باشا وعند زواله صدع بامر الامير وذهب الى مقابلة الباشا في مركز ولايته ولما قابله عرض له الباشا ان جواسيسه في الاستانة افادته مؤخراً ان اليهود حانقة عليه لفتكه بجاييم فارحي وانها بذلت مالاً لا يحصى عدده واقنعت الدولة بتعيين درويش باشا مكانه ولولم يكن درويش باشا في طريقه الى مكة لاعلان اوامر الدولة وقدم اليه برجاله وموعد ذلك عودته من الحج ولذلك يرغب ان يقف على رأي الامير ويستكشف منه ما يرتأيه فاذا كان يعده بمقاتلة درويش باشا فلا يبالي اذذاك ان يرفض طلب الدولة عزله وتعيين درويش مكانه ومتى تحصل على وعد الامير الشفاهي يتأهب للدفاع عن حقوقه ويجعل السيف صاحب الانصاف . فعاد جدعون الى الامير وانهى اليه بكلام عبد الله باشا المتقدم وزاد عليه ان عبد الله باشا يريد الوقوف على حقيقة افكارك فاذا كنت تقف بجانبه وتثبت معه الى النهاية يقدر على ارغام درويش باشا بالقوة واذا لم يأخذ منك وعداً فلا يرى لنفسه نجاحاً باشهار عصيانه على الدولة ولما حصل الامير على تعليمات مولاه ووقف على ما يقصده منه وطد النفس الى الثبات بجانبه وهم ان يقصد عكاً لمقابلته غير ان ما حدث ونقصه عليك في الفصل الآتي اوقفه عن الشخصوس واتمام قصده

الفصل السابع والسبعون

في واقعة راشيا

ولما رجع الامير والشيخ بشير جنبلاط الى الجبل نزع آل عماد عنه والتجأوا الى

درويش باشا وتوسطوا امامه في توجيهه ولاية راشيا الى الامير منصور الشهابي لانه كان ميالاً لهم وعزل الامير افندي المتشيع للامير بشير وكان من درويش باشا اجابة ملتسهم فعين الامير منصوراً حاكماً على ولاية راشيا ووجه معه حملة مؤلفة من آل عماد ليخرجوا الامير افندي من المركز رغماً عنه . ولما درى بهم الامير افندي بعث فاعلم الامير بشيراً بقدوم الحملة اليه وقص عليه العامل على ايجاد هذه الحركة

ولما كان الامر جلالاً نهض الامير بنفسه في قيادة جنوده الاقوياء واخذ معه فرقة من جنود عبد الله باشا ووجهته راشيا فوصلها قبل الامير منصور بايام وعند وصوله في قيادة الحملة هجم بها على راشيا وصدده الامير برجاله واستعرت الحرب بينهم اباماً فانجحت عن انهزام الامير منصور ومن لف لفه وظل الامير ورجاله يضر بون قفاها الى ان ادخلوها دمشق الشام مركز خروجها فعاد الامير برجاله منتصراً محفوفاً بالتجلة والاكرام

الفصل الثامن والسبعون

في مقابلة الامير عبد الله باشا

وفي غضون سنة ١٨٢٠ او بعد حادثة راشيا بقليل ورد للامير رسالة من عبد الله باشا يحثه بها على مقابته والشخص اليه بالاقرب العاجل . ولما لم يكن لديه مانع يمنعه عن اخلاء مركزه قصد عكا اجابة لطلب عبد الله باشا لثاني مرة وعند وصوله لم يشأ عبد الله باشا ان يستقبله في قاعة الاستقبال كما يستقبل بقية زائريه فرغب في ان يميزه ويظهر ثقته به فادخله دار الحرم مع ما في ذلك من خوارق العادة المتعارفة بين المسلمين والنصارى . ولما دخل الامير عليه استقبله الباشا واظهر له الحفاوة والاكرام وتقدمت اليه والدة الوزير وقبضت بيدها على حزامه واقعة عليه في مساعدة وادها وقالت له ان ولدي وان يكن مولاك من حيث وظيفته فهو ولدك لسنه . قد سبق جهله وحدائته فاساء لك المعاملة في الماضي والآب يريد منك ان تغفر له تصرفاته السابقة وتعضده على خصمه . فاليهود اجمعوا على الانتقام منه وحملوا الدولة واغروها بالمال على الحط من قدره وعزله من وظيفته على يد درويش باشا ولا غرابة ان ظفرت به

ان تعمل على اعدائه تشفياً لليهود اخذاً بثأر رجلهم حايم الذي ذهب ضحية الطياشة
والجهل . اما الآن وقد سبق السيف العزل ارجو منك كأمراً ووالدة مولاك ان تثبت
بجانبنا وتعزز مقاماً لنا على وشك الزوال

ولم يسع الامير في ذلك الموقف الا اجابة طلبها وقال اني اعترفت سابقاً واعترف
الآن بعبوديتي الصادقة لمولاي وها انا مستعد لتضحية النفس والنفيس في سبيل
مرضاته ولا اضن بأخر قطرة من دمي ان كان في اهراقها فائدة له فليأمرني بما يريد
فيجدي ثابتاً على قولي محققاً امانيه بي

فقال له عبد الله باشا الذي اریده منك وابغيه ان تقوم برجالك ورجالي الاشداء
وتوقع بدرويش باشا قبل ان تصله النجدات التي ارسلتها له الدولة بقيادة والي حلب
واظنه متى فتكنا به وبسطنا يدنا على ولاية الشام يهون علينا ارضاء الدولة بالمال وفضلاً
عن انها ترى بطشنا وشدة بأسنا فترهب جانبنا لاسيما ولي في الاستانة اخلص الاصدقاء
يساعدوننا على نيل بنيتنا فاريد منك ان تجمع رجالك وتاتي بهم الى جسر بنات يعقوب
حيث تلتقي بالجنود التي ارسلها الى هناك وتضم الجيشين تحت قيادتك وتقدم بالمقدمة
الى الشام وتضايق علي درويش باشا فيها الى ان تظفر به فترسله الي مكبلاً بالقيود . ولم
يظهر الامير ترددا في اجابة الباشا على كلامه وما فاه به كان برهاناً على تثبيت وعده
ومحققاً امانى الوزير به وهب من ساعته بقرن قوله بالعمل ورجع الى مركزه وبدأ
بجمع رجاله وحشمهم على القتال اما عبد الله باشا فكان منه بعد مبارحة الامير انه حشد
الجنود وعد معداته وسيره الى جسر بنات يعقوب



الفصل التاسع والسبعون

في حصار دمشق الشام

ولما اجتمع حول الامير رجاله ومشايخ الجبل ورجلهم ركب في مقدمة القوم الذين
بلغ عددهم اثني عشر الفا بين راجل وفارس الى النقطة المعينة حيث ضم الى عساكره
الفرقة التي ارسلها عبد الله باشا وكانت بانتظاره ومن هناك استأنف الامير مسيره في
مقدمة ستة عشر الف مقاتل

اما درويش باشا عند ما بلغه امر حملة عبد الله باشا بقيادة الامير بشير اوجس خيفة

من عددها وشدة بأس رجال لبنان . فجمع اليه رجاله وكل من قدر على حمله على الحرب والنزال مع آل عماد النازحين عن لبنان وبعض امراء شهاب من اعداء الامير ومن انتمى لهم من الرجال ورتب معسكره خارج المدينة على بعد ثلاثة اميال في قرية المزة وأعد المدافع وجعلها في المقدمة ووراء المدافع الفرسان وابتقى بقية الجند وراء جدران المحلة وعند وصول الامير واشرف رجاله ظليعة فرسان درويش باشا دوهمت برشاش من قنابل ورصاص واشتبك القتال مع الفرسان اصحاب الرماح واشتد سعيهم الحرب وتقدم الامير بنتجة من رجاله المشاة الى الامام فاخترق فرسان درويش ولم يبال بالرصاص الهاطل عليه وظل ينخي رجاله ويدفعهم الى التقدم وهو امامهم كالطود الى ان اقترب من جدران القرية وهناك لاقى بممانعة عنيفة لكنه تغلب عليها وتسلق مع رجاله الجدار ودخل القرية واعمل برجال درويش السيف واصلاهم نارا حامية حتى ارغمهم على الانسحاب منها وبعد انهزام خصمه من امامه امر رجاله بحرق القرية وظل يطارد درويش باشا ورجاله الى ان ادخلهم مدينة الشام وكثير منهم رموا بانفسهم في المستنقعات التي خارج المدينة فماتوا غرقا

وعند ذلك رفع الامير السيف عنهم ولم يسمح لرجاله بدخول المدينة خوفا من نهبها فعاد عنها الى قرية المزة وبلغ عدد قتلاه اربعين وقتل درويش باشا الف وما بينه فضلا عن الاسرى ومنهم الشيخ حسين تلحوق

اما درويش باشا فاركن الى القلعة وتحصن بها ينتظر قدوم النجدة القادمة اليه بقيادة مصطفى باشا والي حلب

الفصل الثامن

في وصول طابع مصطفى باشا

ولما كان الباعث بنا الى انشاء ونشر هذا الكتاب تقدير رجال الفضل قدرهم وبش الحقيقة ونشر لوائها على مرتفع الفضيلة وقد راينا شجاعة الامير وهزت بنا معاقل تصوراتنا الى وضع كلمة في هذا الصدد فنقول :

ان شجاعة الامير ورجاله البواسل وحنقه بالقيادة وصدق خدمته حتى الاجانب نظير عبد الله باشا التركي ولا مصلحة له وطنية يرمي اليها سوى تثبيته على منصة الامة

في لبنان وطنه وان نصرته هذه فضلاً عن انتصاراته العديدة لا تقل اهمية عن نصرته
اعظم قواد الحرب الذين حفظ لهم التاريخ وقائهم واشهر براعتهم وهي شقيقة لنصرة
نابليون الاول في ابي فير بمصر

ان هذه القوة اللبنانية والشجاعة النادرة كانت مصروفة في غير ما خلقت له وما
ذلك الا لجهل زعمائها وتفصيلهم الفتن الاهلية والشخصيات على العموميات وموت روح
الوطنية من صدورهم فلو صرفوا قواهم لحفظ استقالاتهم والدود عن وطنهم واستبدلوا
المشاكسة بالمحبة والوفاء وخدموا وطنهم وطرحوا عنهم سلطة الاجانب وعزوا
جانبيهم . . لو كانوا فعلوا ذلك . لو قدر لذلك الشعب الملاان قوى ونشاطاً رجالاً نزهاء
يفضلون الصالح العام على المصالح الذاتية لكننا نظرنا على منصة حكومة لبنان خصوصاً وسوريا
عموماً حاكماً وطنياً من سلالة اولئك الذين دوخوا العالم بيضعة عشر عاماً وكنا تخلصنا
من جور الاتراك وظلمهم وحمولهم وتعصبيهم وكانت سوريا الان في مصاف الامم الحية
والدول الراقية

باليتمهم عقولوا واخلفوا لنا ورثنا لحكومة وطنهم الذي نرثيه الان ونبكيه بالدموع
انما شاء ربك ان لا يعقلوا . . . و بعد ان دونا العاطفة التي لا ريب من وجود مثلها في
صدر كل لبناني فيه شرف المبدأ نرجع الى صدر كتابنا
بعد ان مضى على حصار الشام وقت قصير وردت الاخبار بوصول مصطفى باشا
ومعه عدد غفير لنجدة درويش فتهللت وجوه وعجبت وجوه

الفصل الحادي والثمانون

في رفع الحصار عن الشام

وكان من الامير لما علم بقدوم ظلائع مصطفى باشا انه ارسل معتمداً من قبله الشيخ
عز الدين وهو من عقال الدروز الى مصطفى باشا وانهي اليه هذا الكلام : ان درويش
باشا محصور وان الامير منع رجاله من دخول المدينة احترازاً من حدوث امر لا يرغب
فيه . ولولا ذلك لكان دخل المدينة وقبض على درويش باشا وساقه الى عمكا لاسيما وقد
سبق انه أساء معاملة الامير يوم نزل في جواره وعضاً عن اجارة الملهوف ومساعدته

طلب منه تقديم مال طائل لقاء مرعي ماشيته وخيوله . . . ولما كان عالماً بقدمك الى مساعدته رأى ان يقيم على حصاره الى ان تحمل ركابك ارض الشام ووصل اليه امرك فيقوم مدحوراً من امامك ليزيد نفوذك عند الدولة ويخفف من نفوذ درويش باشا فتعزله الدولة وتعينك مكانه

وقد سر مصطفى باشا مما سمعه لانه كان خائفاً من الامير خوفاً شديداً — ولما وصل الى ضواحي الشام ارسل الى الامير يعلمه رسمياً بوصوله من قبل الدولة ليعضد درويش باشا وامره برفع الحصار حسب وعده فصعد الامير بامره ورفع الحصار عن دمشق وصرف رجاله عنه ورجع الى مركزه وفي نيته امور تقضي الروية وبعد النظر وبعد المداولة مع الشيخ بشير جنبلاط في شؤونها قرر رايه على الذهاب الى مصر لمقابلة محمد علي باشا وقد اخبر عبد الله باشا بذلك فوافقه على الذهاب

الفصل الثاني والثمانون

في قيام الامير الى مصر

وكان الامير سبق فكتب الى حنا البحري يطلب منه المساعدة على ايجاد صلة بينه وبين محمد علي باشا وكذا سبق من عبد الله باشا رسالة الى المشار اليه بها يسأله استعمال نفوذه لدى الدولة لتعفو عنه وتبقيه في مركزه

وفي نهاية معدات السفر اظهر للشيخ جنبلاط رغبته في تقديم الامير عباس ابن شقيقه لانه خاف من درويش ان يوجه حكومة الجبل اذا فشل مسعاه في مصر الى امير حماه

والامير عباس هو ابن الامير اسعد بن يوسف بن الامير حيدر الجدل الاول لآل شهاب بلبنان الغربي

ومن ثم قام الامير بشير الى مصر ولما دخل علي محمد علي باشا نال الحفاوة والاکرام منه وانزله محمد علي بالصعيد في قرية بني سويف احتراماً للدولة . وفي بضعة ايام ارسل محمد علي رسولا من قبله الى الاستانة بالتمس العفو عن عبد الله باشا والامير معا

الفصل الثالث والثمانون

في تعيين الامير عباس خاناً للامير بشير

اما درويش باشا بعد ان رفع الامير الحصار عنه ووصول النجدة له تمتع بالسلطة التي كاد ينزعها الامير منه وعباً جنوده وتقدم الى البقاع فقدم الى مقابلته الامير عباس بعصابة من وجوه قومه واظهر له عبوديته وصدق خدمته . فوجه درويش باشا اذ ذاك حكومة الجبل اليه واقامه مكان الامير بعد ان اخذ ميثاق الشيخ جنبلاط على تقديم مطالب الجبل من جباية ورسوم اليه وكان في قرية قب الياس قلعة قديمة متهدمة فامر بهدم الباقي منها واقام عليها وكيلاً لينجز هدمها . ثم كتب الى الدولة عن انتصاره على الامير بشير وهدم قلاع لبنان وادخاله في دائرة حكمها وعين الامير منصوراً حاكماً على راشيا وطرد الامير افندي منها ففر بجاشيته ونزل بها على الامير عباس الذي اكرم وفادتهم

ثم وجه درويش باشا حكومة مرج عيون الى الشيخ علي العماد وظل في تبديل وتعيين الى ان اكل رغبته في الجبل وامن عليه من العصاة وما بقي امامه الا عبد الله باشا فقصد عكا ورام ان يطلق آخر سهم في جمعته على سورها المنيع

الفصل الرابع والثمانون

في حصار عكا ثانية

ولما علم عبد الله باشا بقدوم درويش الى حصاره جمع رجاله من عرب واكراد فبلغ عددهم التي رجل فوضع ثقته بهم على الدفاع عن سور المدينة وعباً من المؤنة والذخيرة كل ما بلغت اليه يده

اما درويش باشا فنزل بمسكوه في ابي عتبة على بعد ثلاثة اميال من عكا واشترك معه في الحصار مصطفى باشا والي حلب وبرهام باشا والي اطنة ومن اجتمع معهم من الرجال والفرسان

وكان المحاصرون في ذلك العصر لا يهجمون على المدينة ويقاثلون حاميتها بل كانوا

ينتظرون اخذها بدون عناء ولا مشقة فكانوا يلبثون على حصارها الى ان يفرغ زاد الحامية وتركن الى الفرار او التسليم ولم يكن درويش باشا ليجترم هذه العادة المألوفة لو اكد لنفسه الغلبة ولكن الذي دعاه الى ذلك الاحترام مناعة عكا وقصر باعه عن الحاق الضرر باسوارها المشهورة ولذلك ثبت مع مناصريه على حصار المدينة خمسة اشهر وهو لا تئد الى السكينة ينتظر ان يفتح له باب المدينة ليدخل به ويتعم بالسيادة عليها وكان جل ما يأتي به اطلاق ثلاثة مدافع يومية ويجاوبه بمثلها عبد الله باشا ولولا اعتقاده الديني لما تكلف الى طلق واحد فكان يطلق المدافع عند الغروب كما هي العادة الجارية عند حكام المسلمين الى يومنا الحاضر وقد ملت الدولة فضلاً عن رجاله من تقاعده وعجزه الذي كان يظهر فيه يوماً عن يوم

الفصل الخامس والثمانون

في عزل درويش باشا

وبعد ان مضى على حصار عكا خمسة اشهر كما قدمنا ملت الدولة وسئمت من درويش باشا ومماطلته وربما كان الباعث على اظهار مللها منه نفوذ محمد علي باشا ورجال عبد الله باشا المخلصين له فارسلت وعزلت درويش باشا وعينت مكانه والياً على الشام مصطفى باشا الذي جاء لمساعدته وكان معه من المحاصرين لعكا ولما ورد الامر كان وقعه كالصاعقة على درويش باشا ورجاله وخصوصاً زعيم اليهود سلون فارحي الذي هبطت مساعيه في الانتقام من عبد الله باشا ومات غمماً على الاثر ولما انتشر خبر تعيين مصطفى باشا والياً على عكا نزل اليه الامير عباس وهنأه بالولاية وفي الوقت ذاته التمس منه اصلاح الخلل الذي احدثه درويش باشا من تجزئة الجبل فوعده مصطفى باشا بارجاع حكومة الجبل الى ما كانت عليه قبلاً . ولما كان مصطفى باشا يعلم ان الامير عباساً ليس كفاءة لضم شعث حكومة الجبل وليس عريفاً بالامارة اخبره انه ارسل يستحضر الامير بشيراً من مصر ليوليه حكومة الجبل كما كان عليها حاكماً قبل قيامه ظاناً ان الخبر يسره فكظم عباس غيظه وتظاهر بالسرور واجتهد في اصلاح ذات البين بين امراء وادي التيم وقسم البلاد بينهم وعيز النصف

منها للامير منصور والنصف الثاني عين حاكماً عليه الامير افندي وخطر على الامير افندي
السكنى في عين عطا وسمح له اخيراً ان يسكن في بكفيا وامر الامير منصوراً بالاقامة في
راشيا ورتب للامراء الباقين معاشات على حسب رتبهم ومقدرتهم وكل ذلك على نفقة
الشعب المسكين

اما الشيخ علي العماد الذي توجهت اليه حكومة مرج عيون فكان سيء التصرف
ضعيف الادارة حتى ارفع مصطفى باشا على الحق منه ومن تصرفه الفاسد واخيراً لما رآه
على ازدياد في تعجرفه واستبداده وتصلفه امر بقتله وقيل ان السبب في قتله هو عسره المالي
وامساك يده عن رشوة الباشا كبقية الموظفين والله اعلم

الفصل السادس والثمانون

في رفع الحصار عن عكا

وظل مصطفى باشا محاصراً لعكا بالعساكر الى ان مرّ عليه اربعة اشهر علاوة
عن المدة التي صرفها درويش باشا ولكن مرور هذه المدة على مصطفى باشا بدون
جدوى لم تغضب عليه الدولة كما غضبت على درويش باشا بل كانت واثقة به . وفي نهاية
الاربعة الشهور ورد من الدولة فرمان بالعفو عن عبدالله باشا وتجديد مدته واليا على
صيدا وامر مصطفى ان يرفع الحصار عنه ويرجع الى ولاية حلب
وكان رسول الدولة بالفرمان والامر رسول محمد علي باشا الذي ارسله الى الاستانة
فخض به الامير الى عكا حيث ناول الامر الى مصطفى باشا ورسول محمد علي نقل
الفرمان الى عبد الله باشا

ولم يظهر من مصطفى باشا اقل ممانعة لدى ابلاغه امر الدولة في رفع الحصار عن
عكا ورجوعه الى ولايته غير انه لم يكن لديه مال ليدفع رواتب الجنود فعرض للامير
حاجته الى المال وكان من الامير انه بلغ عبد الله باشا ذلك وقدم له كمية وافرة سدّد
بها عازته وعند ذلك تاهب مصطفى باشا للعودة الى مركزه وبرح عكا في آخر اسبوع من
الصيام الفصحي

الفصل السابع والثمانون

في رجوع الامير الى مركزه



الامير بشير الشهابي الكبير

وبعد قيام مصطفى باشا بايام معدودة امر عبدالله باشا الامير ان يرجع الى مركزه
 الاول ويقبض على ازمة حكومة الجبل
 ولما كانت الدولة فرضت على عبد الله باشا غرامة الحرب واكلافها نصف ما يربح
 ليرة وقد سلخت عن ولايته اثناء الحصار طرابلس وغزة ويافا بعثت تطلب منه المال
 ووعدته في اعادة المدن الى ولايته اذا لم يطل عليه الوقت في تسديد طلبها
 ولما كان الجبل خمس ولاية صيدا فرض عليه خمس الغرامة ولم يمهل الامير اياما
 لوصوله حتى بعث يأمره بجمع المال وتوريده اليه وبين له رغبته في جمع القسط من
 الشيخ بشير جنبلاط اذا امكن وسبب ذلك ان الباشا لحظ على الشيخ المشار اليه ديله في
 اثناء الحصار الى درويش باشا
 فجأوه بالامير باللفظ وقال يكفي الشيخ جنبلاط دفع الثلث من الذي فرضه على
 الجبل واتعهد بتقديم الثلثين عند ما يتسنى لي جمعها من الاهالي

تأمل كيف يدفع الشعب المسكين نفقات الحروب حتى بين الاتراك انفسهم وما
 نفع الشعب من تنصيب هذا الوالي وعزل ذلك من الاتراك
 فالشعب لم يشترك بالثورة على الدولة بل ظل يدفع الجزية والنهي الا يكفيه
 ذلك حتى يغرم بدفع غرامة الحرب التي لا يده فيها ولا منزع كل ذلك كان يجري
 بفضل زعمائه الذين خيم الجهل على بصرهم وآثروا الضلالة على الهدى ودوس وطينتهم
 على اعناق ذواتهم . ولو فضلوا الصالح العمومي على الخصوصي لاراحوا ذلك الشعب
 من اكلاف طائلة وكفلوا له استنقلا له عن حكومة الاتراك

وعلى هذا النحو ارسل الامير الى الشيخ جنبلات يطلب الف وخمسمائة كيس وامر
 اليه اوامر عبد الله باشا وكيف انه اغفل اعباه ومشقة سفره الى مصر لاجله واعلمه بما
 هو مطلوب منه . فقبل الشيخ وتظاهر بدفع القسط وشرع يورد منه الى الامير اقساطاً منتبهاة
 وكذلك الامير فكان عند ما بثوفر لديه قسط يرسله الى عبد الله باشا مع
 ميخائيل مشافة

وكان عبد الله باشا يسأل ميخائيل مشافة ان يفرز مال الشيخ جنبلات عن بقية المال
 ويعلم به فكان كل مرة يقدم الامير اليه قسطاً يسأل اولاً عن القسط المدفوع من
 الشيخ ويرسله الى دار الحرمين ويجعله من مصروفه الخاص . وقد صرح ميخائيل مشافة مرة
 انه حلال لنفسه صرف المال الوارد من الشيخ جنبلات وحرمة بقية الاموال لانها من
 ذميين مقبوضة منهم بوجه غير شرعي لا يجوز له التصرف بها . واعترضه مدير خزنته
 الشيخ عباس ولكن عبد الله باشا دحض حجته واغلق عليه المسالك حيث قال له : هل
 يجب على الذمي شرعاً ان يدفع لنا غير مال الجزية فما بالناس نكافه اشياء كثيرة سواها لا
 ناقة له بها ولا جمل ألم يكن بالامس بقاتل معنا درويش باشا مجاناً لم يضح نفسه
 بخدمتنا ولا اجل سعادتنا ألم يؤثر مصلحتنا على مصلحته وكان ساعدنا الاقوى في طرد
 الوهابيين من سوريا ويوسف باشا من دمشق بمدة ولاية عمنا الم يهلك منه عدد
 غفير في الحروب التي دارت رحاها لاجلنا . . وكل ذلك بدون ان يكون له دفع ضريبة
 او جر مغنم . بيد ان الفرد منا لا يخدمنا باخلاص وصدق ما لم يكن له منفعة شخصية
 وانت ايها الشيخ منهم اتر يد ان نعامهم بالقسط وعلى شريعة المشرع فتمود علينا الخسارة
 وعلمهم النفع كما يتضح لدي بصيرة

وكأن حصار عكا الاخير اثر باخلاق عبد الله باشا لان ما شاهده من رجال الجبل

من الخدمة وصدق المودة بعثاه على التساهل ودمائة الطباع . وحبذا لو علم رجال لبنان حقوقهم التي صرح بها الوزير امام واحد منهم وهو مختايل مشافة وهبوا من رقادهم وعزوها بدأ واحدة

الفصل الثامن والثمانون

في ثورة الشيخ بشير جنبلاط

وبعد ان دفع الشيخ بشير آخر قسط من مال الضريبة التي وضعها عليه عبد الله باشا ارتحل الى راشيا واتجأ الى والي الشام لانه شعر بمقاصد عبد الله باشا وقد سأل والي دمشق ان يتوسط له ففعل وارسل له عبد الله باشا ميشاق الامان والصفح عنه وامره ان يرجع الى مركزه فرجع الشيخ الى محل اقامته يصحبه معتمد من قبل والي الشام عبد الله افندي وكان علي جانب من الفصاحة وفي وصوله قدم الشيخ للسلام علي الامير وكان من عادته ان يصحب معه في مثل هذه الظروف عدداً قليلاً من حاشيته . اما في هذه المرة فاصطحب معه ما ينيف عن الف رجل كأنه اصبح في ريب من الامير ولما رأى الامير هذا الاخلاف حنق عليه وعد ذلك اهانة لمنزله وحصه في صدق مودته . ولما تظاهر الامير بما دعته اليه ظروف الحال تداخلت رجال الاديان بين الفريقين وكان شأنها ان توسع الخرق كما يقع لها في كل معضلة وعقب ذلك ارسل الامير يطلب من الشيخ مبلغاً جسيماً من المال علاوة عن الذي دفعه فدفع الشيخ قسماً من هذا المبلغ وتوسط له مختايل مشافة في دفع الباقي افساطاً وكانت الغاية التي رمى اليها الشيخ ان يجعل له فسحة يقوم بها من لبنان وهكذا كان لانه رحل في تلك الليلة عن دياره ولم يعلم به الامير الا في صباح الغد ولم يكذب الشيخ بتواري عن لبنان حتى تظاهر اخصامه بدواعيها العديدة واندفع للمداخلة عن حقوقه المحامي ابراهيم مشافة وكان يدفع اكلاف الدعاوي من جيبه فضلاً عن اتعابه والوقت الذي تستغرقه

وتظاهر في هذه الاثناء الامير عباس بميله الى مناصرة الشيخ جنبلاط ولما درى به الامير ارسل مختايل مشافة يستطلع صحة الخبر فاكد له الامير عباس كذب الاشاعة ولكن الامير اصر على اعتقاده بصحتها واصره يجمع رجاله لمقاتلة الشيخ ان

شاء اعادة ثقة الامير به فتردد الامير عباس وكان عذره عجزه عن الشيخ جنبلاط ورجاله
العديدين ولكن الامير لم يثن عن عزمه فارسل فرقة من رجاله لمقاتلة الشيخ ففر هذا
من امامها ولم يشاء مقاتلتها الى عكار . ونزل في هذه الاثناء على الامير مستجيراً مصطفى
اغابري من الدولة لانها طلبت اعدامه وارسل راسه لها . وفي اوائل سنة ١٨٢٦ وردت
على الامير الاخبار عن اجتماع الامراء عباس وفارس وسلمان وحسن من آل شهاب مع
مشايخ الدروز ال عماد وجنبلاط بنوون اشهار الحرب وكان اجتماع عقدهم في المختارة
مركز الشيخ رئيس العصاة واجتمع لديهم من الرجال اثنا عشر الف مقاتل
فارسل الامير واعلم عبد الله باشا صديقه الحميم فامر للحال في اعداد فرقة تبقی
تحت اشارة الامير يقدمها له بقيادة ولده امين

اما عبد الله باشا فاعد فرقة وارسلها الى جسر الاولي تأتمر بامر الامير
ولم يسرع الشيخ بشير من عكار الى العصاة محذرا من ال عماد ان تغدر به
ولكن الامير ارسل ينهي العصاة عن الثورة ويحرضهم على العدول عنها الى السلام
والالفة فلم يفلح غير ان بضعة من مشايخ الدروز مثل حموده وناصر ابني نكد ومشايخ
ال تلحوق اتبهاوا له وحضروا الى بيت الدين وانضموا مع رجاله وانضم مصطفى اغابري
مع رجاله وعددهم اربعون مقاتل وال حمادي من الدروز ورجالهم
ولكن العصاة ظلت تمكث من يوم الى اخر وانتقلوا من المختارة الى قرية السمقانية
على بعد ميل واحد عن مركز الامير

ولما علم الامير باصرارهم على الثورة ارسل بشير القاسم واحضر جنود عبد الله باشا
وكتب الشيخ ناصيف يستحضر خمسمائة مقاتل من دير القمر وان يبقى بقية الجنود على
حذر من ناحية الغرب من رجال موسي ارسلان جد الامير مصطفى ارسلان قائم مقام
الشوف الان

ولم تنتظر العصاة وصول الشيخ جنبلاط زعيمها فشرعت بالمداء وكانت الفاتحة سوه
النزال فردم الامير خليل بقيادة شزيمة قليلة من رجال الامير ثم تقهقر الى ال وراء لما
تكاثرت عليه العدد وعند ذلك امر الامير الشيخ ناصيف بالهجوم وهجم بقيادة الفرقة
المؤلفة من رجال دير القمر واشتد القتال فتراجعت العصاة عن القرية الى الخلة تصوين
وتحسوا بجدرانها ثم وصلت نجدة للامير من عبد الله باشا فدفعها الى ساحة القتال فابلت
لاء حسناً واخيراً ازاحوا العصاة الى المختارة بعد ان خلفوا قتلاهم وراءهم

واتفق وصول الشيخ جنبلات الى المختارة واجتمع بهم واخذ يعد معدات الدفاع
وفي ثاني الايام حضر الى الامير بضعة من مشايخ الدروز ورجالهم والتسوا لانفسهم العفو
فعفي عنهم وكان له بهم قوة عظيمة حتى انضم اليه من ال عماد وخدم ما يربو على
عشرة الاف مقاتل

وانضم اليه الامير حيدر برجاله وقد تعين هذا فيما بعد فائتقاً ما على نصارى لبنان .
وجاءه بضعة الاف من المان والشوف والعرقوب والامير محمد الشهابي من قبل اخيه الامير
سعد الدين حاكم حاصبيا وكانت غلاقة ما انضم اليه فرقة ارسلها عبد الله باشا مؤلفة
من ثلاثة آلاف مقاتل

الفصل التاسع والثمانون

في استفحال الامر

مضت ايام لم يحدث بخلافها تعدد او نزال كأن العصاة كانت تجمع شتاتها وتعد
معداتهم لوقعة رامت ان تجعلها الفاصلة ولما تيسر لها من المدد والعدد ماظنته واياها
لقهر الامير ارسات فرقة بالف مقاتل الى قرية بعقلين ليدها بيت حمادي وقد سطوا
على القرية تحت جنح الظلام والناس نيام ووقعوا بالاهالي على حين فجأة فعلا الصياح
وترا كض اهل دير القمر لتجدة بعقلين بقيادة الامير خليل وكان العصاة قد علقوا النار
بعض البيوت وجدوا في اعمال قساوتهم بالاهالي ما استطاعوا لذلك سبيلاً ولكن لما
وصل اهالي دير القمر بالبواسل وانضموا الى رجال الحماية والمدافعة تغلبوا على طرد
العصاة ودحرم

وفي صباح الفد خرجت رجال الدروز من المختارة بقيادة المشايخ الى سهل بقعاتنا
وظهر السمقانية فملاوا تلك البقاع على كثرة عددهم وشغلوا من الارض خمسة اميال
لضم جوانبهم ولم يكن الامير من الذين يرهبون القتال او يبألون بكثرة العدد فقابلهم
برجاله ولم يشأ ان يعاملهم بالقوة التي بيده حيث اشاروا عليه باستعمال المدافع
تاكيداً لنصره على خصمه فاجب وصرح ان في ذلك يذهب بانفس عديدة سوف يحاسب
عليها امام الله وضميره ودارت رحى الحرب واشتد سعيها من الفجر الى الغروب بدون

ان بكل النصر فريقاً على الآخر وفي ثاني الايام صم الامير على تبيد العصاة وتفرق قواهم ولو كلفه الامر اوراق دماء بضع مئات من رجالهم واصلاهم ناراً حامية لا تقل عن قنابل المدافع فعلاً وناثراً وما زال يناضلهم ويحمل عليهم حملاته ورجاله فتك بهم فتكاً ذريعاً الى اواخر النهار حيث هزمهم شر هزيمة وفرق جموعهم واستولى على قرية الجديدة وعبر نهر الباروك

الفصل التسعون

في تفصيل الواقعة ونتيجتها

في اوائل الواقعة ارسل الامير جنود عبد الله باشا على طريق الكحلونية الى الجديدة وتقدم جنود الجبل الى سهل بقعانا على ظهر الجديدة اما الشيخ بشير جنبلاط رئيس العصاة فكان معسكراً بالقرب من المختارة تجاه الجديدة في منخفض وبينه وبين الامير فاصل نهر الباروك

وفي ذلك النهار خرجت رجال دير القمر باجمعها حتى الحدث منها لم يقبل على نفسه الانزواء في الخدور عن القتال وكان شانهم مع العصاة رشقهم بالمقاليح ورميهم بالحجارة وكان يدرهم خليل عطية المهندس حتى ان اليهود شاركوا القوم وقاسموهم النصر ومن هؤلاء الشجعان موسى شعبان واخوه ابو حسن وشمويل باروخ وهذا كان قائداً على مائتي مقاتل ومن الذين ابوا في العصاة بلاء عجيبة مصطفى اغاير بر ورجاله فنالوا شكر الامير لم والثناء على بسالتهم. والشيخ بشير ارسل فرقة من رجاله لمقابلة الحملة التي ارسلها الامير على طريق الكحلونية واشتبك بينهما القتال والمناضلة

وامر المشاة من رجاله ان تقابل مشاة الامير ولما كانت العصاة في منخفض امرهم الشيخ ان يتسلقوا الروابي حيث يلتقوا برجال الامير وما شرعوا بالصعود حتى امطرتهم حدثان دير القمر بالحجارة من المقاليح او تدحرجاً وكان ذلك النهار يوماً شديداً على العصاة كما تقدم وانهمزوا من امام الامير ورجاله. ولما شاهد الامير وهو يطاردهم الفسوة الدروز لاحقة برجالها وهن بجالة محزنة توثر في الجوامد وعلم باخلاق جنود عبد الله باشا خشية عليهم منهم ولم يكن خوفه من رجال الجبل لانه اختبرهم وعرف شهواتهم حتى في اعراض اعدائهم فقد كانت لديهم ثينة وعزبة فأمر الجنود بالكف عن الحاق

بالمهزمين وهكذا حفظ حرمة العرض وحفظ له الاثر الحميد
 وكان الامير يرسل الى عبد الله باشا رؤوس القتلى وهي عادة تقشع منها الابدان
 لذلك لا ندرغل في تفصيلها على اننا نقول ان عدد القتلى بلغ المائة او ما يزيد عنها والله
 احصى لما في القلوب وهو اعلم
 وفي ليلة الواقعة بعد انهزام العصاة قدم جماعة منهم الى الامير والتسوا عفوه عنهم
 وكان الامير حليماً فعفى عنهم وامنهم على حياتهم
 اما الشيخ بشير وباقي المشايخ والامراء فرحلوا عن لبنان في ذلك المساء وتفرقوا
 ايدي سبا

وبعد ذلك صرف الامير رجاله وارجع الجنود الى عكا وارسل فحجز على املاك
 آل جنبلاط واستغل حاصلاتها لان عبد الله باشا فرض عليها ثلاثمائة وخمسين الف
 غرش كل سنة غرامة لبضع سنين وخمسين الف غرش سنوياً تقدم الى والدته وحرمة
 ثم امر الوزير بهدم جامع المخنارة الذي بناه الشيخ من جيبه لانه كان يرتاب
 باسلامه ويعدده مذنباً زنديقاً لادين له

وهدم قصره الذي اتفق عليه اكثر من مليوني ربال عمودي
 وهكذا اضعف اللبنانيون بعضهم بعضاً وضحوا مالم وارواحهم على مذبح الانانية
 ومهدوا للاجانب استعبادهم واذلالهم بينما اليونان بالمورة وجوارها تقاتل الدولة على حفظ
 وطنيتها واستقلالها عنها . . . وما منع اللبناني عن الاقتداء بها غير جهله وتعصب زعامته
 وحبذا الافادة من تكرار كلمة لو والتمني والتحسر ولو افادت لكر رناها مراراً وابدينا
 عبارات التودد والتمني في اكثر مواقع كتابنا واستسمحنا القاريء في احتلالها وربما
 كان اشد غيرة منا فاضاف الى ما اوردناه

الفصل الحادي والتسعون

في مجازاة زعماء العصاة

وكان من العصاة انهم اختاروا الشام ملجأ لهم فنزلوا في جوارها وكان واليها مصطفى
 باشا يراقب حوادثهم ويترصدهم زعيمهم . ولما بلغه حلولهم ضمن حكومته ارسل فالتقي

القبض عليهم واحضروا الى مركز ولايته بعد ان تردد الشيخ بشير في التسليم ولكن
 الشيخ علي العماد اقنعه بالانقياد لامر مصطفى باشا وكان من جملة من القي عليهم
 القبض اولاد الشيخ بشير قاسم وحليم ومن آل عماد الشيخ علي وامين وسواهم
 وبمقدمتهم الشيخ بشير . ولما مثلوا امام مصطفى باشا امر في حال وقوع نظره على
 الشيخ علي العماد باعدامه لحزازات بصدرة قديمة فقطعته رجاله ارباً ارباً واودع الباقين
 السجن مثقلين بالقيود الى ان علم بهم عبد الله باشا فاستحضرهم اليه وامر بسجنهم وبعد ان
 مضى عليهم اشهر يقاسون مرارة السجن امر بشنق الشيخ بشير جنبلط والشيخ امين
 العماد وبعد ان شنقوهما طرحوهما امام باب عكا عبرة وعظة
 واولاد الشيخ قاسم وسليم بقيا مسجونين الى ان وفد الطاعون الى المدينة فماتا
 مطعونين

وعلم الامير بمقر الامراء سليمان وفارس وعباس وحسن فقبض عليهم ووكل بئداهم
 راهباً مارونياً فقطع السننهم اولاً وسمل بصرهم ثانياً . انما الشيخ علي العماد فرّ من سجن
 الامير ولكنه قضى عليه من اثر جراحه البالغة التي احدثها به رجال الامير وخصوصاً
 حضرة الراهب صاحب التقوى ولم ينج من زعماء الثورة غير الامير عباس — تلك كانت
 عاقبة من تمرد على مولاه جوراً والله صاحب القسط وله الحكم
 وظلّ الامير يعدم كل من وقع بيده وكان له اصبغ في الثورة فاعدم الامراء حسن
 وحسين بدية واضطهد مشايخ آل شمس وآل قيس فتكبد اولئك عناء المدافعة عن
 براءتهم وهو لاء لا ذوا بالفرار لثبوت الجرم عليهم

الفصل الثاني التسعون

في ثورة نابلس

وفي اواسط سنة ١٨٢٩ اعلنت الثورة في نابلس التابعة لولاية الشام وعجز واليها
 عن اخضاع الثوار فرجع عنهم مخذولاً
 ولما علمت الدولة بعجز والي الشام عن اطفاء حجرة الثوار في ولايته عهد الى عبد الله
 باشا بخضد شوكتهم فوجه عبد الله باشا فرقة من جنوده ومعها المدافع والمعدات الخريبة
 المرهفة لمقاتلة الثائرين وعند ما التقت الجنود المنظمة بهم دارت رحى الحرب واشتد

القتال بضع ساعات كان النصر فيها للجنود فارغموا العصاة على تحصين القلعة فانسحبوا من ساحة الوغى وتحصنوا في قلعة صفة المشهورة التي كاد الجزار يعجز عن امتلاكها وظال الحصار بدون جدوى حتى اظهر العصاة قوة وممانعة فائقتين وقتلوا من الجنود عدداً كبيراً وتمكنوا من الاستيلاء على اعظم الذخائر وفتكوا بجفرائها مما استدعى انتباه عبد الله باشا الى التحذر وبدأ يفكر في ان العصاة ليسو ممن يستخف بهم فارسل الى الامير بشير يستنجد به على كبح شكيمة الثوار فقام الامير بالف وخمسائة مقاتل وقام معه الشيخ ناصيف ابو نكد بالف واجتمع من الامراء والمشايخ لمعاودة الامير ماينيف على خمسة الاف مقاتل بين فارس وراجل ولما وصل الامير الى قلعة صفة انضم الى عسكر عبد الله باشا وعهد اليه بقيادة الجيش فكتب الامير الى رؤساء العصاة ونهاهم عن مداومة الكفاح وحذرهم وخامة العاقبة وضرب لهم موعداً للتسليم

وكان سبب هذه الثورة الضريبة التي فرضها والي الشام وامر بجمع مبلغها الفادح من الثائرين ولما عجز عن جمعها احيلت الى عبد الله باشا فتعهد للدولة بدفع الف كيس وامر بجمعها من اهل نابلس ولما بلغتهم اوامر عبد الله باشا في توريد المال اجمعوا على الرفض وشقوا عصا الطاعة ولبث الامير ينتظر جواب رسالته الى ان فات وقت المجاوبة غير ان عدداً قليلاً منهم سلموا الى الامير ونالوا العفو اما جمهور الثوار فظلوا على عزيمتهم وتالب منهم عدد كبير حول معسكر الامير بضواحي قرية عجة ولم يشأ الامير قتالهم ظناً منه انهم ينصحون بنصيحته ويعودون الى المسالمة

وحدث ان بضعة من رجال الامير قصدوا الاستقاء فخرج اليهم عصاة عجة وفتكوا بهم وكان من جملة هؤلاء التعساء اربعة من دير القمر من رجال الشيخ نكد ولما علم الشيخ بما حدث لرجاله استشاط غيظاً وامر بقية رجاله بالهجوم على العصاة وسحقهم ولم يقو على اتباع اوامر الامير واخذهم بالتالي هي احسن فتقدم برجاله وصاح بهم دونكم واهل عجة الذين استخفوا بجرمتكم وبتشوا باخوانكم على غفلة وتمكن الشيخ من الدخول برجاله الى عجة وتفريق جموع العصاة غير ان العصاة كانوا اضعاف رجال الشيخ فتكاثروا ولما شعثهم واستأنفوا القتال وكادوا ينتصرون ويخرجون رجال الشيخ من القرية لولم يقبل الامير برجاله وبعزز جانب الشيخ ويدحر العصاة الى الورا . وعند وصول الامير حمل برجاله والفرقة التي ارسلها عبد الله باشا على العصاة وبددهم فولوا الادبار مخلفين عدداً

كبيراً من قتلاهم واستباح عسكر الوزير النهب والسلب ولا علم الامير بذلك نهام عنه
 وكان من قتلى الامير ابن حمادي فارسل لوالده التعزية ورفاه الى المشيخة وبعد رجوع
 الامير عن عجة امر بضرب قلعة صغد بالمدافع والقنابل حتى استولى عليها وعفى عمن وجده
 حياً من العصاة وجمع الفيء منهم وارسله الى عبد الله مع اعلام انتصاره
 ثم عاد الى مركزه وصرف رجاله الامناء بعد ان اثنى عليهم ثناء جميلاً

الفصل الثالث والتسعون

في ثورة الدمشقيين

في اوائل سنة ١٨٣١ وضع سليم باشا (خليفة مصطفى باشا) ضريبة جديدة
 على اهل دمشق المسلمين وكان مبلغها جسيماً نحو الفي كيس عن العقار فرفضوا طلب
 الوزير وشهروا عصانهم عليه . واذا كانت الضربة عمومية وقراري العام على شدة وطأتها
 ولزوم ازلتها تعسر على الحاكم ارغام الشعب على قبولها فثار الدمشقيون على الوزير لما
 شعروا بالضربة على السواء وارغموه على الالتجاء الى الفلعة وقطعوا عنه الزاد اياماً سلم
 نفسه في اواخرها اليهم فسجنوه بغرفة واقاموا عليه الخفر وبعد ايام اوجسوا فيه ريبة
 لئلا يتامر على زعمائهم سرّاً فهجموا عليه يريدون اعدامه ندافع الوزير عن نفسه ولكن
 ماذا تفيد المدافعة وهو اعزل وحيد لانصير له ولا حامية فاضرموا النار بجوانب الغرفة
 وقد فضلوا قتله حرقاً وظلوا يراقبون النار تا كل فريستها الى النهاية
 وابشوا بعد ذلك ينتظرون انتقام الدولة منهم لعلمهم بعملهم الفظيع
 علم الدمشقيون ان عملهم جائر وفضيع قبل ان يقد مواعليه وبعد ان فرغوا منه ولكنهم
 اثروا قتل الجور والاستبداد على الذل والسكينة ولم يرهبوا قوة الحاكم تجاه قوتهم والانسان
 العاقل عالي الهمة متى ادرك قوته واحس باثقال الضغط والذل نهض بكليته للتخلص
 من حبالها فلا القيود تمنعه عن ابراز حقوقه ولا السلاسل تقدر على تقييده والضغط
 على افكاره

الفصل الرابع والتسعون

في نصلف عبد الله باشا

وفي اواخر سنة ١٨٣١ قدم جمهور كبير من فلاحى مصر الى سور يا هربا من
التجنيد والخدمة العسكرية واقاموا في غزة وضواحيها التابعة لولاية صيدا فاكرم عبد الله
باشا وفادتهم وسهل لهم المعيشة فكتب اليه محمد علي باشا وطلب منه ان يرغم المهاجرين
على العودة الى مصر

فلم يخفل عبد الله باشا بطلبه وجاوبه مستخفاً به فغضب محمد علي وكتب اليه رسالة
يهده اذ لم يجب طلبه وبالوقت ذاته بعث الامير واعلمه بقحة عبد الله باشا وكيف انه
أنكر فضله عليه

فبعث الامير رسالة الى عبد الله باشا يرشده بها الى ملاطفة محمد علي واكد له
سطوته وقوته

ولم يكن من عبد الله الا الاستخفاف والمظاهرة بمناعة عكا وكيف انها ردت قواد
العالم خائبة واستشهد باسماء الذين حاصروها ورجعوا عنها بالفشل والخيبة فذكر درويش
باشا ومصطفى وبرهام واستطرد وقال : اذا كان نابليون الاول اعظم قواد العالم عجز عن
امثلا كما فهل يتدر محمد علي باشا عليها ؟ هل هو اقوى من نابليون ؟ وغفل عبد الله
باشا ان نابليون ما رجع عن عكا بالفشل انما دعت له اسباب الى تركها فضلاً عن ان قوة
الانكليز البحرية كانت العاملة على صد هجماته وحجرت عنه المدافع وجانباً عظيماً من الذخيرة
ولما وصل جواب عبد الله باشا الى محمد علي باشا ازداد غضبه وامر بالتاهب واعداد
الجنود لمحاربة عبد الله باشا واخضاع ولايته خصوصاً وسوريا عمومًا . وكان محمد
علي ينوي اكتساح الدولة التركية وانشاء دولة عربية فجاءت معاملة عبد الله باشا له
معجلة لتحقيق غرضه

الفصل الخامس والتسعون

في قيام ابراهيم باشا

وبعد ايام قلائل خرجت الجنود المصرية من مصر بقيادة ابراهيم باشا بن محمد علي

باشا حتى وصلت غزة وظلت سائرة كان لم يحدث لها معترض فاستولت عليها واستطردت
 السير ولما علمت الدولة بقدوم الجنود المصرية الى سور ياطيرت اوامرها الى ماموريتها وامرتهم
 بالتعاقد علي طرد العدو من بلادهم واشهرت الحرب علي محمد علي في سوريا
 وهب عبد الله باشا بعد معدات الدفاع ويحث رجاله علي الثبات والمدافعة عن
 شرفهم . اما الامير فاطهر ميله الي ابراهيم باشا ونصح للشيخ حسين الهادي حاكم نابلس
 ان يرحب بابراهيم باشا ويظهر له الاكرام وبعث الامير سعد الدين رسالة الي الامير
 سأله رأيه فاشار عليه بالبقاء موالياً لوالي الشام الي ان ينفذ الامر بعكا
 وقد انتشر خبر وصول الاسطول المصري و قدوم ابراهيم باشا بعساكره الي عكا
 بوقت واحد



ابراهيم باشا

الفصل السادس والتسعون

في ضرب عكا بحراً

وعند ما وصل ابراهيم باشا لصحراء عكا بعث الى الامير بشير فاستقدمه اليه مع رجاله ومن ناصره وتداول معه في كيفية الحصار ولما وصل الاسطول المصري المؤلف من اثنين وعشرين سفينة حربية انقسم الى ثلاثة اقسام وشرع بهطل على القلعة قنابله وكانت القلعة تقذف عليه ناراً آكلة ودامت الحال سخابة ذلك النهار وعند الغروب اقلع الاسطول من مياه عكا ولم يترك له اثر في قلعة المدينة غير ان قنابل القلعة احدثت به تعظيلاً عظيماً لذلك كف عن الحرب ورجع الى حيفا مخذولاً

الفصل السابع والتسعون

في حصار ابراهيم باشا عكا

ولم يكن انسحاب الاسطول من مياه عكا ليضعف همة المصريين او يزعزع اعتقادهم في الغلبة على اسوار عكا المنيعة ففي ثاني الايام بدأوا بحفر الخنادق واقاموا المتاريس نصبوا عليها المدافع وبطارية الحصار لقذف القنابل الحامية واكلموا معداتهم كلها تحت جنح الظلام وقاية لانفسهم من نيران المدينة وعند الصباح اصلوا القلعة ناراً آكلة ولم تكن نار الحامية بأقل وطأة واصلوا القتال ليلاً ونهاراً وكانت النجديات تبصل الى ابراهيم باشا من مصر بالتتابع وكان مع ابراهيم باشا قواد من اهل الدراية والخبرة وبينهم مهرة بالفنون الحربية الحديثة فضلاً عن المهندسين الذين يعلمون كيف تؤكل الكتف وكانت حامية المدينة ثلاثة آلاف مقاتل قد حنكتهم الايام ودربتهم على الشجاعة والثبات

وكانوا يخرجون الى خارج السور ليجملوا الجنود المصرية على الهجوم عليهم والاقتراب من المدافع فلم يفلحوا لان قواد الجند المصري ادركوا هذه الالعوبة

وكان عدد الجيش المحاصر ثمانية عشر الف مقاتل واربعة آلاف فارس معهم
اربعون مدفعا وعدة بطاريات

وحدثت في احد الامساء حجة في الجيش المصري سبها ثمانية رجال من اهل
نابلس اخترقوا صفوفه وقد اشهروا سيوفهم على الخفراء ومن اعترضهم ولم يشأ احد من
الجند ان يرميهم خوفاً من ان يوقع العطب بسواهم لذلك تمكنوا من الدخول الى المدينة
وعلا صراخهم

الفصل الثامن والتسعون

في قيام ابراهيم باشا الى طرابلس

ولما نزل الامير عكا وانضم الى ابراهيم باشا برجاله على حصارها لم ير ابراهيم باشا
من الحكمة اخلاء مكانه بدون حامية تعززه مدة غياب الامير عنه فارسل يعقوب بك
بفرقة من الجند الى دير القمر وامره بالمحافظة على الامن وراحة الاهالي
ورأت الدولة بعد حصار عكا بمدة قليلة ان ترسل والياً على طرابلس فارسلت
عثمان باشا اللبيب حاكماً على تلك المقاطعة

ولما علم ابراهيم باشا بقدمه قصده وطرده من المدينة وعين مكانه حاكماً من قبله
يصدع بامره ومن طرابلس قام الى حمص ومن حمص الى معلقة زحلة ومنها رجع منتصراً
الى عكا واجتمع بمعسكره

ولما استقرت بالدولة المصرية المقام في سوريا ونشرت اعلامها على ربوعها ارتحل
مشايخ نكد عن لبنان وانضموا الى الدولة

ولم يمض على حصار عكا زمان حتى ارسل محمد علي تفويضاً الى حنا البكري في سن
النظامات لحكومة سوريا على النمط الحديث وكان حنا البكري على جانب عظيم من
اصالة الرأي وله القدح المعلي في السياسة المدنية

فرتب مجالس الملكية والمدنية والعسكرية واقام لها مجالس شورى وغيرها من
النظامات الحديثة ثم رتب المالية ووضع نظاماً لجباية الخراج ومعاملة الرعية امام القانون
على السواء . وكان يعامل الرفيع والوضع معاملة لا تفاوت فيها ويعطي لكل ذي
حتى حقه

وكان العدل والانصاف شأنه والنزاهة زمامه لا فرق عنده بين القوي المثري والضعيف الفقير او المسلم والذمي وكان يعاملهم بالقسط والعدل حسب وصية محمد علي باشا الذي كان عارفاً ان لا قيام للدولة الا بالعدل والانصاف وهذا النظام وان يكن عادلاً وشريفاً فقد كان باعثاً قوياً على كره الامراء والمشايخ للمصريين حيث كف يدهم ووقف مطامعهم عند حد لا يمكنهم اجتيازه وامات استبدادهم بالشعب وجعلهم امام الشريعة سواء لا امتياز ولا فرق بينهم وبين افراد الرعية فحنقوا على الدولة المصرية وودوا ازلتها وارجاع الحكومة التركية والانسان ابن مألوفه اذا الف عادة قبيحة كانت او حسنة وأرغم على تركها كدره ذلك ولو كان فيه فائدة له محسوسة . قابل نظام هذه الحكومة بالنظام الذي كان دستوراً للعمل قبل فتوحها المذكور باول هذا الكتاب تعلم لماذا كان الحق على المصرين شديداً

الفصل التاسع والتسعون

في انتصار ابراهيم باشا على عكا

ولما علمت الدولة بما احدثه ابراهيم باشا في طرابلس من التبديل ارسلت فرقة كبيرة الى والي حلب انجه بيرقدار باشا وامرته ان يتقدم بها الى انقاذ عكا من الحصار فقام برجاله الى حمص ومنها الى تل بني مندو تحت قرية القصير بالقرب من حمص على شاطئ العاصي ولبث هناك ينتظر وصول الفرقة من الاستانة ولما علم به ابراهيم باشا ارسل فرقة كاملة كنت له في معلة زحلة ولكن بيرقدار باشا رغب البقاء في مكانه ولم يخطط خطوة الى الامام كأنه كان ينتظر قدوم مدينة عكا اليه ليدافع عنها

وفي اول جمادى الثانية ردم ابراهيم باشا خندق المدينة وهجم بجنده على اسوارها ولافته الحامية وصدته في بادئ الامر وكرر هجماته وحرص رجاله . وفي اشهرين من ذلك لشهر خطب فيهم خطباً حماسية ذكروهم بفنوحاتهم وانتصاراتهم العديدة ومقامهم بين جنود العالم واستخف بخصمهم الحاضر وقال لهم « ان رجوعكم عن حامية عكا الضعيفة يجلب

عليكم العار ويحط باسمكم الرفيع الى الخفيض وحاشا للجند المصري ان يوصم بهذه الوصمة بعد ان رافقه النصر في كل حروبه واثبت للعالم انه من اشجع الجنود واقدروهم على الثبات في ساحة النزال فكيف يرجع عن عكاه مخذولاً ويرضى بالاهانة والذل فهو لا يرضى ولن يرضى ان شاء الله دونكم ايها البواسل هذا السور المتداعي « وامرهم بالهجوم واحتدم القتال وفتحت جهنم ابوابها وكان اول من تساق السور على ظهر جواده سليمان بك او نزيير اميرالاي الطوبجية وحقه ابراهيم اغا الرشمانى من دير القمر مدرب فرسان لبنان ولكنه اصيب برصاصة جندلته . وكان ثالثهم ابراهيم باشا وعند ذلك تكاثرت الجنود على السور الاول الخارجي حيث لاقته الحامية على السور الداخلى واشتبك القتال ساعات اسفرت في زوالها عن نصر ابراهيم باشا فدخل عكا ولم يبق من الحامية غير ثلاثماية وخمسين مدافعاً . وقبض على عبدالله باشا وارسله الى مصر وكان عدد القتلى يفوق الحصر وزادت الوفيات بين الجنود بسببها

ولما وصل عبد الله باشا الى مصر اكرمه بمجد على واحسن وفادته وسعى في ان يقضي بقية ايامه في الحجاز فذهب اليها ومات هناك

الفصل المائة

في قيام ابراهيم باشا الى الشام

تم لابراهيم باشا الاستيلاء على عكا وقد حفظ له التاريخ ذكراً لا يزول على توالي الايام وبعد ان رافت له الاحوال امر بتريم ما تهدم من القلعة واصلاح ما احدمته الحصار على المدينة من التخريب واعاد اليها كل ما نقصها من المدافع واقام لها البواسل المشهود لهم بالقوة والشجاعة ولما اتم اصلاحاته جمع رجاله وقام بهم الى دمشق ولم يترك الامير بشيراً وراءه فطلب منه ان يقوم معه فاستجضر الامير عدداً من رجاله واعلم امراء حاصبا وراشيا الشهابيين بشخصه مع ابراهيم باشا الى الشام وطلب منهم ان يرافقوه اليها وكانت الدولة عينت علو باشا والياً على الشام خلفاً لوالها الاول الذي ذهب ضحية الجهل والقساوة فلما بلغه قدوم ابراهيم باشا اليه جمع عشرة آلاف مقاتل وخرج بمقدمتهم الى خارج المدينة ولبت ينتظر وصول ابراهيم باشا وعسكره ولما اشرف عليهم ابراهيم باشا استكشف عددهم وقوتهم بالنظارة التي كان يسكنها

بها في مثل تلك الظروف فاطلع على مركز الاكراد منهم ومركز رجال دمشق وامر
فرسان العرب الهناديين بمقاتلة الاكراد وبقيمة الجند حوله لمقاتلة رجال الشام
وأوصاه ان لا يصيبهم بل يستعمل الطلق للارهاب . وعند اقتراب الجيشين دارت
رحى الحرب وقد استغرب الدمشقيون سرعة الطلق وكان جديداً على سمعهم فوقع
بقلوبهم الخوف وولوا الادبار

اما الاكراد فقاتلوا قتال الشجعان ولكنهم لم يقدروا على الثبات طويلاً حتى
انهزموا واقتفي اثرهم الفرسان وقتلوا منهم فتكاً ذريعاً ولما رأى علو باشا ما حل بعسكره
طلب النجاة لنفسه فالتجأ الى الفرار ودخل ابراهيم باشا المدينة ولم يسمح لعسكره بذهابها
والتعدي على راحة اهلها

وقبض على ازمة الاحكام مدة حتى رافت الاحوال وصفت الاكدار وعين والياً
عليها احمد بك ريبب كورد يوسف باشا المتقدم ذكره في حينه وسال المعلم بطرس
كرامة ان يؤلف مجلس شوري واصلاح ما يجده مخلاً في النظام القديم ونهض بعد
ذلك في شهر صفر الى القطيفة وارسل الامير ومعه الامراء الى قرية عزار ومنها الى
قرية الدرعية وانتقل ابراهيم باشا للنبك وهنا توسط الامير بالعمو عن اعيان دمشق
الهاربين في ابان المعركة وبعدها فعفى ابراهيم باشا عنهم وعادوا الى مساكنهم — ومن
هناك قام الى حيشية فطريق القصير فتل بني مندو ولم يقابل عسكر الدولة فيها لانه
رجع الى حمص عند ما بلغه فتح عكا وكان العسكر المصري مؤلفاً من المشاة احد عشر
الفاً ومن الفرسان الفين ومن الفرسان الهنادي ثلاثة آلاف وثلاثة واربعين مدفعاً
وبطارية وكان معه عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي باشا وابن اخت محمد علي
احمد باشا فضلاً عن الامير بشير ورجاله الاشداء

الفصل الحادي والمائة

في شخوص ابراهيم باشا الى حمص

في وصول ابراهيم باشا ونزوله تجاه بني مندو وصلت اليه نجدة عن طريق معلقة
زحلة وطرابلس الشام ونجدة من الجند المصري مؤلفة من ستة آلاف مقاتل واصبح
عسكره يناهز العشرين الفاً والمتعارف ان جند الاتراك يحمص لا يزيد على سبعين

الف مقاتل فاجتمع ابراهيم باشا بقواده وتداول معهم في كيفية الهجوم
فارسل فرقة من الفرسان الهنادي في منتصف الليل لتتقدم الجيش وتستطاع مواقع
العدو وقوته ما امكنها لذلك سبيلاً
وقسم المشاة الى ثلاثة اقسام جعل المسافة بين القسم والقسم ميلين وفي مقدمة
القسم قائده نتقدمه ثلاثة صفوف من رجاله
وجعل الامير بشيراً ورجاله بالقلب والخفر على الذخيرة في مؤخر الجيش واقام على
اليمينه عباس باشا وعلى الميسرة احمد باشا
وعلى هذا الترتيب زحفت الرجال على ألحان الموسيقى وكان المنظر جميلاً شائقاً في
تلك السهول الفسيحة . وعند منتصف النهار وصل الجيش الى قرية قطينة التي تبعد عن
حمص ثلاثة اميال وبسط الجند جناحه لجهة نهر العاصي الشمالي الغربي وصعد ابراهيم
باشا الى تل قطينة
وامر الامير ان يقوم برجاله الى الميرة فاحتل المكان ونزل به مع رجاله للراحة في
ذلك النهار

ورجعت الفرسان التي تقدمت الجيش ومعها الاسرى ورؤوس القتلى وبلغ ابراهيم
باشا ان العدو معسكر بالقرب من تل بابا عمر ومعهم مدافع عديدة اقامها على قمة التل
ولما علم ابراهيم باشا على الوجه الاقرب قوة خصمه ومركزه اعد للنزال مهاتمه

الفصل الثاني والمائة

دخول ابراهيم باشا مدينة حمص

اصطف الجيش المصري صفاً واحداً وعلى طرفيه الفرسان والمدافع وعلى ألحان
الموسيقى هجم على عسكر الاتراك المنظم الذي قيل انه مؤلف من سبعين الفاً وحمي
سعيير الحرب وابلت فرسان الهنادي بلائاً حسناً فكانت تصول وتجول بينة ويسرة
وتجندل وفتتك بالاتراك فتكاً ذريعاً والجند المصري لا تفترله همة عن التقدم
وارغام العدو على التقهقر وكما تراجع عن مركزه تقدمت الفرسان وبقية الجند وتبعته
واعملت بقفاه وهجم الاتراك على ميمنة الجيش المصري فصدده عباس باشا بالقنابل
فاصلاهم ناراً حامية واضطروهم الى الرجوع والانسحاب . وظلت الحرب قائمة على اشدها

والجند المصري يطارد العسكر التركي الى ان دحره وفرق قوته فولى الادبار وخلف وراه قتلاه الكثيرين واسرى لا يقاوم عن القتلى عدداً مع ان الاتراك اظهروا العجائب في ثباتهم وشدة هجماتهم ولكن النصر اذا قدر لفريق ناله ولو بعد حين ولما نقرر النصر لابراهيم باشا تقدم الى مدينة حمص وقبض على ازمة حكومتها وامن اهاليها

الفصل الثالث والمائة

في تعيين الامير بشير حاكماً على حمص

في صباح الاحد دخل ابراهيم باشا حمص وتولى حكومتها ولم يمكث فيها غير ذلك النهار لانه لم يقبض بعد علي بئرقدار باشا وعزم على مطاردته والحق بين كان معه من الوزراء وتمكنوا من الفرار قبل ان تصل يده اليهم وعين الامير بشيراً والياً على حمص وفوض اليه الحكومة وسأله الانصاف باعماله وهضى مجدداً وراء ضالته ولما تبرع الامير في كرسي الولاية تفحص الاسرى فوجد بينهم ثمانماية ارمني فاطلق سراحهم وارسلهم الى مطران الروم وبقية الاسرى من العسكر التركي ارسلهم الى عكا بعهد الشيخ حسن تاجوق

اما مجاريح الجيش فعهد بهم الى عناية اطباء وامر مدعي العموم ان يوارى القتل التراب بالاقرب الممكن لان المسوء الاصفر الذي كان ضارباً اطنابه في تلك البلدة زادت وفياته كثيراً وعهد لمخائيل مشاقه ضبط متروكات الوزراء وكانوا قد هجروا خيامهم بفرشها واثاثها حتى ان كاتب الاسرار ترك دوانه وادوات الكتابة والورق مبعثرة على الارض مما يدل على انهم غادروها على غرة ووجد كثيراً من الثياب الثمينة واقمشة فاخرة واغرب ما عثر عليه كمية كبيرة من البن الحجازي تكفي مدينة غاصة بالسكان شهراً ولا مشاحة ان مدينة حمص جيدة التربة متسعة الاراضي معتدلة الهواء تتهافتها قري كثيرة لكن اهمال اهاليها وعدم اكثراث حكامها جعلها متداعية الى الخراب ويد الاصلاح فلما تزورها حيث كانت عرب البادية تتردد عليها وتسلب مايقع بايديها

ويبلغ عدد سكان مدينة حمص عشرين الف نفس ربهم نصارى اكثرهم روم
ارثوذكس وقليل منهم كاثوليك والبقية اسلام ويناب عليهم السداجة وقصر نظهم في
غور الامور وما يدعم قولنا ما نقصه عليك بما يلي :

دخل بعضهم على الامير وساله ان ينظر في حالة بضعة اشخاص لم يزالوا بين كراديس
القتلى فذهب مخائيل مشافه اليهم مع احد المأمورين الى محلة بالقرب من تل بابا عمر فوجد
ثمانية رجال اربعة منهم جثث هامة والاربعة الباقون مشخنون بالجراح فقصوا عليه سبب
جراحهم وموت رفاقهم وانهم نظروا الى قبلة وقعت بالقرب منهم فتقدموا اليها فأوا
فتيلاتها لم نزل عالقة وكان منهم ان لمسوها بيدهم وصاروا يقلبونها من جانب الى آخر حتى
دنا وقت انفجارها فانفجرت وجندلت اقرهم اليها وعطبت ابدم عنها وجرحته جروحاً
بالغة تنذر بالخطر

الفصل الرابع والمائة

في وصول ابراهيم باشا الى حلب

استطرد ابراهيم باشا سيره وظل يتنعم اخبار المنهزمين ويطاردهم من مكان الى اخر
وقبل ان يشرف على حلب التقى بجسن باشا في طريقه اليه ومعه جيش عظيم مؤلف
من اربعين الف مقاتل ولكنه لم يقف عثرة كبيرة امامه لانه بعد معركة هائلة انهزم
من وجه ابراهيم باشا فواصل ابراهيم مسيره حتى دخل مدينة حلب بدون معارض
وبعد ان رتب احكامها وعين حاكماً عليها واقام والياً على ايالة اورفة تقدم الى الامام
فاستولى على اطنة بدون محاربة كأن انتصاراته المتلاحقة اوقعت الرعب في قلوب الاتراك
وقام من اطنة الى قونية ففر واليها من وجهه فدخلها وبسط حكمه على ربوعها وما كثرت
فتوحاته قلت رجاله لانه كان يخلف منهم عدداً في كل ولاية دخلها فضلاً عن ان
الهواء الاصفر والحروب فتكت بقسم منهم وفي اواخر سنة ١٨٣٢ بقي معه من الجندي اثنا
عشر الف ومع ذلك ظلت نفسه تحذته بالتوغل الى الامام ومطامعه تحسن له الاستيلاء
على القسطنطينية كأن الانسان متى خدمه الزمان وذل له الصعاب يتوسع بمطالبيه ولم
يعد يهتدي الى السكينة ولا يطيب له البقاء على ما حصل ما عليه من الجد والابهة فيطلب
الزيادة ويحدد طلبه كلما بلغ وطره وذلك طبع خلق فيه ويموت عليه والله الهادي

الفصل الخامس والمائة

في استيلاء ابراهيم باشا على كوتها

لا نسترسل في تفصيل ما حدث لابراهيم باشا في طريقه الى كوتها من المشاق بل ناتي بالالمام الموجز لما اعترضه من العوائق وكيف ذلل القوات المضادة له قام من قونية بعسكره واستنطرد في المسير الى كوتها ولم يبعد عن قونية مسافة بعيدة حتى التقى بالصدر الاعظم وعساكره الجرارة وقيل ان عساكره مائة وخمسون الف محارب فاشتبك القتال بين الجيشين على ما بينهما من التفاوت بالكثرة وحمي وطيس الحرب سخابة ذلك النهار بدون ان ينتصر فريق على الاخر وفي ثاني الايام عادت الفرسان الى الكفاح واستبسلت رجال ابراهيم باشا اي استبسال حتى تغلبت بعددها القليل على عساكر الانراك وارغمتها على الانسحاب من ساحة الحرب فانهمز معظم الجيش ووقع الصدر الاعظم اسيراً بيد ابراهيم باشا وتفرقت بقية رجاله وكان الصدر الاعظم شجاعاً محنكاً ولم تجده شجاعته نفعاً ولا ردت عنه مقدوراً امام اعظم قائد في الناشئة الاسلامية بعد خالد بن الوليد وكان مع الصدر الاعظم فون ملك القائد الشهير فولى الادبار مع المنهزمين وايقن ان في الشرق رجالاً مثل نابليون الاول واعظم وابراهيم باشا نابليون العرب الاول في القرن التاسع عشر

ويقال ان ابراهيم باشا دخله الرب في قوته الليلية عند ما استطلع القوة التي تعضد الصدر الاعظم واكد لاول مرة في حياته فشله ولما لحظ ارتباك سليمان باشا الفرنسي الذي شاهد حروبا كثيرة ورافقت نابليون باكثر فتوحاته تقدم منه ونزع من قلبه الخرف الذي كاد يستحوذ عليه واكد له الانتصار وذلك ما تم له وعاد ابراهيم باشا الى كوتها بعد ان ارسل اسيره الصدر الاعظم الى مصر وفي وصوله الى كوتها دخلها بدون معارضة لان خبر انتصاره يجيشه القليل على الصدر الاعظم اوقع في قلوب سكان المدينة وما يجاورها من المدن والقرى رعباً عظيماً فمكث ابراهيم باشا في كوتها اياماً معدودة للراحة له ولرجالها وقام عنها بعد ان خلف فيها حاكماً ويمم الى الاستانة

الفصل السادس والمائة

في رجوع ابراهيم باشا الى سوريا

وبلغ ابراهيم باشا وهو على مقربة من دار الخلافة الاسلامية نداء الدول الأوروبية وخصوصاً فرنسا وانكلترا يشرن عليه بالوقوف وعدم التقدم الى الامام ريثما يصله امر والده من مصر ووقفته على المخابرة الجارية بين والده والدولة العثمانية على تسوية الخلاف الحاصل بينهما

فلبت ابراهيم باشا مكانه ينتظر ورود الاخبار فلما وردت اليه اشاع وقوع الصلح وحدوث الاتفاق بين الدولتين وابقت الدولة بيده فتوحانه في بلاد الاتراك وسوريا وولاية اطنه فعاد ابراهيم باشا عن الاستئانة الى سوريا رافلاً بحمل النصر وساد السلام على ربوع البلاد

الفصل السابع والمائة

في تعيين شريف باشا حاكماً على سوريا

انتخبت الدولة المصرية لمنصة الاحكام في سوريا شريف باشا وهو نسيب محمد علي باشا وقد اتصف بالاستقامة وحب الفضيلة فقدم الى دمشق وقبض على ازمة الاحكام وشرع في ادارتها بالعدل والانصاف وانشاء دواوين ومجالس اقتداء بالدول الأوروبية وجرى على منوالها في كل ايام حكومته وكان عادلاً مع صرامة وشدة حتى انه كان يعاقب المذنب باكثر مما يستحقه وكثيرون ماتوا تحت الضرب المبرح

وكانت اعمال المجالس ونقارير اصحاب الدعاوي تدون بكل دقة وضبط ليس كما هو جار في سوريا الآن ولم يكن شريف باشا مطلق التصرف بالحكومة او مميزاً عن اعضاء مجلسه بل كان كواحد منهم وعين يوحنا بك البحري رئيساً ورقبياً اول لاعمال المجلس وكان الذي يوافق عليه البحري يعمل به والذي يعترض عليه يرجعه الى المجلس ينظر فيه ثانية

وحكومة مثل هذه فيها خدمة امناء منزهون أظهرت العدالة واعطت مال قيصر لقيصر وعرفنا حنا البحري من الفصول المتقدمة وثقة عزيز مصر به وكيف انه اطلق له حرية القول والتجويز في بنود الحكومة

وقضت الدولة المصرية مدة لادخال الاصلاح الذي رسمته امامها الى سوريا للثغرات الكائن بين ما تريد احداثه وما كانت عليه البلاد سابقاً ولا يخفى ان الدولة الفاتحة تعاني صعوبات حمة ببسط اعلامها وادخال عاداتها الى بلاد غريبة عنها ولا اعترض على ذلك

وقد اضطرت الدولة المصرية ان تحدث ضرائب جديدة متباينة بتباين قوى الافراد المالية وجعلت اقلها خمسة عشر غرشاً واعظمها خمسمائة غرش على الفرد من الرعية وكان الريال العمود يساوي خمسة عشر غرشاً وأحدثت هذه الضريبة الفردية تشويشاً وقلقاً في جو سوريا وفضاها الواسع كما ترى في الفصل الآتي

الفصل الثامن والمائة

في ثورة الاهالي على اثر الضريبة

ابتم وجه الضعيف للدولة المصرية لانه شعر برفع حمل ثقيل كان يئن انيناً محزوناً تحتها ولا يجير له منه واصبح صوت المستغيث المتقطع يبلغ اذان الحاكم ولو على مراحل عديدة بعد ان كاد يذهب بالفضاء ويتلاشى عنصره ولا اثر له وعاد نداء المظلوم والمضوم وكل من لحقه من حيف او ضغط يجاب عليه ويعمل به وكان قبلاً منبوذاً مخنقراً

واصبح القوي الذي جمع قواه بتفريق قوى الفقير مذلولاً ومجرداً أمن قوته والمستبد ارغم على التنازل عن عرشه وتساوت منزلته بمنزلة من كان يعتبره احط منه ككل ذلك تغلبت الدولة المصرية على نشره وتأييده مع ما فيه من المشاق والمناعب وقد قاومت العناصر المضادة اشد المقاومة واعطت لكل فرد ما يستحقه ومع ذلك فلما وضعت الضريبة الفردية قام الشعب عليها وقعد

ولا ريب ان الطلب كان صعباً جداً على المسلمين والنصارى على السواء خصوصاً سكان القرى الفقراء الذين يؤدون للدولة الجزية عن اعناقهم والخراج والفقى عن

عماراتهم واملاكهم فتدمر المسلمون وحسبوا الدولة المصرية تكفهم دفع الجزية كالذميين ولم يفقهوا ان الدولة المصرية دولة فاتحة خارجة من حرب شهرتها عليها الدولة العثمانية وكلفتها اموالاً طائلة فاصبحت باحتياج كلي الى المال ورد ما فقد منها وابوا ان يدفعوا ثمن العدالة والحرية والتمدن التي اخذت الدولة المصرية في ادخاله ونشر اعلامه بينهم قيمة زهيدة لانفوق ظافة الفرد منهم وقد فضلوا الرجوع للهمجية والذل لرؤسائهم والاستعباد لهم على بذل دراهمات لاستقلالهم والتخلص من مضطهدهم وآثروا قرض الدولة العربية التي هب محمد علي باشا لانشائها واحياء تمدن العرب القديم واعادة الدولة والخلافة الى آل قريش عن مساعدتها وشد ازرها وهم اولى بعضدها فعمدوا للموامة وخلع الطاعة والثورة عليها ورد سلطنة الاتراك عليهم

ومن الذين لا طاقة لهم بدفع الفردية من الذميين سكان حاصبيا لانهم كانوا في فقر مدقع ولما ورد امر شريف باشا للامير سعد الدين امير حاصبيا بجمع الفردية من رعيته وقع في حيرة وتردد في كيفية الجاوبة عليه . كان يعلم ان طاعة اولياء الامور فرض مقدس واقدس منه احترام صالح رعيته . فامر ميخائيل مشافة بالذهاب الى الشام واطلاع شريف باشا على حالة الشعب المالية وكيف انه يخشى اذا اجبرهم على دفع الفردية ان ينزعوا الى شق عصا الطاعة عليه بالرغم عن ولائهم وتفانيهم في خدمته

ولما حصل ميخائيل مشافة مقابلة شريف باشا برسالة الامير تنازل عن طلبه الاول الى معدل ينوب الفرد ثلاثون غرشاً

ومثل ذلك كان للمعلم بطرس كرامه معتمد الامير بشير فتمكن لدى مقابله شريف باشا من اسقاط الطلب عن ولاية الامير الى اربعة آلاف كيس واستثنى من رجال لبنان خدمة الدين على اختلاف النحل ثم الامراء والمشايخ وجعل عدد الافراد اربعين الفا فقط

اما الدمشقيون فلم يحسنوا الدفاع امام شريف باشا فوقع عليهم من الضريبة اعظمها حتى بلغ معدل الفردية مائة غرش وترتب عليهم غرامة سنوية قدرها اربعة آلاف كيس

وكان اكثرهم من العمال الفقراء لا يستطيعون دفع مثل هذه الرسوم الفاحشة فوقعوا في ضنك شديد وعمدوا الى المهاجرة فراراً من اثقال الديون على اعناقهم وفرض عليهم شريف باشا دفع جانب من نفقات الحرب كما كانوا يدفعون نفقات جنود

الاتراك ايام عبد الله باشا ودرويش باشا ومصطفى باشا وغيرهم عن تقديمهم من اهل
المطامع

ولو عقلاوا واتحدوا عند ما سخط لهم الفرص لتحرير وطنهم كما فعل اهل مصر والمورة
لكانوا تخلصوا من كل هذه الضرائب التي وقعت عليهم الواحدة بعد الاخرى في مدة
قرن كامل . ولكن اذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون وعلى المتبصر الروية واعمال الفكرة

الفصل التاسع والمائة

في ثورة نابلس

قدم ابراهيم باشا بنفسه الى اخضاع ثوار نابلس وقد علم بشدة بأسهم وقوتهم وكان
حسابه بجعله حيث لاقى منهم الاهوال واختبرهم بمواقع القتال ورأى فيهم اشد رجال
سوريا عزمًا واقدامًا فقاتلوه وضايقوه . ولما علم محمد علي باشا بما حل بولده نهض لنجده
ولكنه لم يبلغ ساحة القتال لانه تغلب عليهم بالخداع وارغمهم على الاخلاص والسكينة
وقد اسر زعماءهم وفي رجوعه امر باعدامهم جزاءً لما كانوا عليه من الخبث والدناء

الفصل العاشر والمائة

في نزع سلطة الامراء والمشايخ

في طلائع سنة ١٨٣٤ بدأ شريف باشا بتفحص بنفسه مقدرة امراء ومشايخ
الجبيل وسوريا وسالوكهم في وظائفهم فشرع بتنسيق حكومة الاقاليم وتحرير الشعب من
سلطة الاستبداد وتعويده الخضوع للدولة رأساً وتدريبه في الاعتماد على نفسه والمطالبة
بمقوقه امام الشريعة والعدالة

ولما شاهد الفساد ضارباً اطنابه في انحاء البلاد رأى من الحكمة وسداد الرأي
ضبط اموال الخراج والفيء ورفع يد مأموريها من مشايخ وامراء عن مداومة هذه
الوظيفة فمنع هذه الفئة المستبدة من معاونة وظيفتها وقيد افرادها بالشريعة الحقة
فاخرج من يدهم سلطتهم الاستبدادية القديمة التي كانوا يتمتعون بها في عصر انول

والانحطاط والاسترقاق ثم جعل لهم راتباً محدوداً من قبل الدولة يتقاضونه رأساً ورفع
يدهم عن مدها الى اموال الشعب

وقد عزل بعضهم لسوء تصرفهم ولجهلهم الامور المدنية الحديثة وعين خلفاً لهم ممن
توفرت فيهم الشروط اللائقة لاشغال مركز بالحكومة ولا فرق عنده بين الرعية
ولما كان الراتب الذي عينه للمشايخ والامراء المعزولين لا يوازي عشر ما كانوا
يذالونه من الفلاح المسكين اضطروا ان يقتصروا على المعيشة البسيطة بعد ان كانوا
يسرفون ويتظاهرون بالابهة والعظمة

وكان عمل شريف باشا هذا مع كل رؤساء العشائر في سوريا الا الامير بشيراً
فانه لم يقو على التحرش به لان الامير استحصل على استقلاله في حكومته من عزيز مصر
وظل يتصرف ببلبنان كما كان قبلاً

على ان هذا الامتياز الذي تفرد به الامير كان مجلباً لحنق شريف باشا عليه فبات
شريف يترقب الفرص ليزيله عنه . وكانت باكورة اعماله نحو هذا المقصد في امر
الحرفوش حيث ثل سلطتهم وقرض دولتهم من بلاد بعلبك واقام مكانهم حاكماً من
اهل الدرية وعين لهم راتباً يتقاضونه من الدولة ثم عزل امراء شهاب عن حكومة حاصبا
وراشيا وعين لهم معاشاً فازداد غيظ الامير منه

وحدث لامراء الحرفوش حكام بعلبك انهم ثاروا على شريف باشا لما لخصتهم من
الاهانة بواسطته واحدثوا فلاق في البلاد وكان زعيمهم الامير جواد . ولم يكن شريف
باشا بالمتغفل فبث الارصاد وارسل الجنود في اثره ولكن الامير جواد جعل دأبه التنقل
من مكان الى آخر ولم تظفر به الجنود واخيراً نزل على الامير بشير ومعه بضعة من رجاله
وسأله ان يتوسط له لدى شريف باشا بالعتو عنه

ولما علم شريف باشا بوجوده عند الامير بشير ارسل بطلبه . ومما زاد الطين
بلة ان الامير سلم من التجأ به الى رجال الشريف بعد ان سأله العفو عنهم وكان من
شريف باشا احتقار سؤال الامير فقتل الامير جواداً ورجاله حال وصولهم اليه

فغظم الامر بعين الامير واعتبر ذلك اهانة عظيمة له . وبعد ان نفذ شريف
باشا حكمه في الامير جواد واتباعه ارسل الى الامير بشير يعلمه ان لا شفيع عنده امام
مصالح الدولة والشريعة تقضي على كل من يعيث بها بعقاب صارم وليس امام الشريعة
امير ولا صعلوك فهي تعامل الجميع بالسواء لا سيما وان معه تفويضاً من ابراهيم باشا في

اجراء العدالة بلا محاباة و ابراهيم باشا نفسه عاقب زعماء ثورة نابلس بالقتل بعد ان
تشفعت بهم اليه فلا اري لك سبيلاً للملامة على مننك الشريفة فكظم الامير غيظه ولم
يجر جواباً

الفصل الحادي عشر والمائة

في ثورة النصيرية

ما فتمت الدولة المصرية تحدث في سوريا تغييراً وتعمل على طرح عادات العشائر
القديمة وتزيد الضرائب على الشعب شأن كل دولة في طور نشوءها حتى نفرت القلوب
وودَّ معظم الشعب لجهله اعادة الدولة التركية مكانها فانتشرت هذه الروح وبلغ طنينها
مسامع الدولة العثمانية فسرّها كثيراً ورأت ان تغتنم الفرصة وكان اعظم الشعب نفوراً
النصيرية وكان الباعث على تقوية هذه الروح في صدورهم ما يضر به عليهم المشايخ في كل
مجمع وناد ويكفي للشعب المسكين الذي اعتاد الطاعة لزعمائه سبباً لا يغار صدره على
الدولة المصرية التي كانت باذلة جهدها في ترقيته وتعزيز مقامه مع تضعيف سلطة المشايخ
عليه ولو استعملت في سياستها المدانة وابتقت المشايخ وكل زعيم في مركزه الى ان
امتلك قلوب الشعب وامنت جانبه ونالت ثقته كما تجري عليه سياسة انكثرا وكل امة
مرتقية فلما تستوثق من الشعب وثناً كد حبه لها نقلاب ظهر المجلس على الزعيم المستبد وتنبذه
فلواتخذت هذه السياسة لكانت العاقبة اسلم ولكنها طالما استنوت على البلاد اخذت
بقطع الرأس وابتقت الجسد تحت المعالجة . وبما ان الشعب فطر على الطاعة العمياء لزعيمه
فكان من اصعب الامور عليه ان يستقل بنفسه

وكانت الدولة التركية خبيرة باحوال الشعب اكثر من الدولة المصرية فبعثت
تدس الدسائس الى المشايخ وتغريهم بالمواعيد الفاحشة وكان هؤلاء يجضون الشعب
على شق عصا الطاعة طمعاً بارجاع نفوذهم

واول من شهر عصيانه وامتنع عن دفع الرسوم الى الحكومة النصيرية ناضطرت
الهيئة الحاكمة الى الاكثار من الجند في البلاد وخضد شوكة العصاة وارسل شريف
باشا عصابة من لبنان لاختضاع الثائرين الذين اعنصموا بجبال اللاذقية وفازوا بالغلبة
على رجال الحكومة

ولما علم شريف باشا بما حل برجاله جمع فرقة من الجيش المنظم وارسلها الى الثوار
واكرهم على الطاعة والسكينة

الفصل الثاني عشر والمائة

في ارغام الاهالي على الخدمة العسكرية

شعرت الدولة الحاكمة بخرج مركزها واكدت ان دولة بني عثمان لم تزل تطمع
بالاستيلاء على سور يا فضلاً عن اثاره الشعب عليها فرأت نفوذها انما تحفظه القدرة المدافعة
فست نظاماً على الاهالي في الخدمة العسكرية ولم تجدد مدة الخدمة وبدأت تجند من الشعب
من تجده صالحاً للجندي ولم ترع حرمة الكبير ولا الصغير فسأقت المثري قبل الفقير
ورفضت ان تأخذ بدلاً عن الخدمة فازداد حنق الاهالي عليها لانهم ظنوا الخدمة
تدوم ما داموا احياء فهاجروا التماساً لتخلص من هذا العبء الثقيل الا اهل لبنان
لاستقلال اميرهم بحكومته ولم يكن يجبرهم على التجنيد بل كان التجنيد عندهم اختيارياً
لمن يشاء فكان عدد من تجند منهم قليلاً بالنسبة الى سكان المدن كالشام وسواها اذ
كانت الحكومة تدهمهم على حين غرة وتسوقهم الى الخدمة ولعمر الحق كيف كانت
تنتظر تلك الحكومة ان تلاقى من الشعب المضطر الى خدمتها والمرغوم على طاعتها الاستبسال
في تقوية مصالحها وتعزيز جانبها؟ لا نعم

الفصل الثالث عشر والمائة

في ثورة الدروز الكبرى

في سنة ١٨٣٦ انتشرت روح الثورة في جهات حوران واول من شق عصا الطاعة
فيها الطائفة الدرزية وكانوا على جانب عظيم من القوة والبأس فاجتمع على توحيد
كلهم كل درزي علم بثورتهم والاسباب التي دعتهم الى ذلك لم تكن تختلف عن
الاسباب التي ذكرناها لسواهم من سكان البلاد فاستخف شريف باشا بهم لقله عددهم
المتراوح بين الف وخمسمائة الى الالفين وكان ابراهيم باشا متغيباً في شمال سوريا
يراقب حركات الاتراك فارسل لقتالهم فرقة مؤلفة من اربعمائة وخمسين محارباً من

فرسان الهوارة وعند وصولهم الى محلة الدروز لبثوا ينتظرون مباشرة الثوار لقتالهم ولكن الدروز ظلموا في الكمين الى ان اسدل الظلام جناحه وقد نام الفرسان فخرجوا اليهم وباغتوهم واعملوا بهم السيف فقتلواهم عن آخرهم ولم ينج منهم الا القليل واستولوا على خيولهم ومعداتهم وعند وصول الخبر لشريف باشا جند لقتالهم فرقة ثانية من الجند المنظم عددها ستة آلاف مقاتل وارسل معها المدافع وبقية معدات الحرب وكان الدروز بعد ان فتكوا بفرسان الهوارة قد لجأوا الى عرب الساط وفي وصول الحملة وبعد قتال عنيف تغلبوا عليها وفرقوا شملها فاستولى الرعب على العسكر المصري وأحجم عن مقاتلتهم ولاسيما في اللجاء لانها عسرة المسلك واسعة الانحاء طولها عشرون ميلاً وعرضها خمسة عشر ميلاً كثيرة الصخور مخبئة المنافذ يصعب على الغريب التوغل فيها

ولما انتشر انتصارهم على الحملة الثانية نفاطروا الى الاخذ بيدهم الى النهاية بقتية الدروز المنتشرة في اقطار البلاد ثم استأنف شريف باشا محاربتهم وارسل الجند الى اخضاعهم مرات عديدة وكانوا في كل مرة ينتصرون على الجيش ويبعدون جمعه واكثر الجند كان يفر مرعوباً منهم لسوء تصرف قواده وعسارة مواقع القتال

فهب دروز حاصبيا وراشيا ولبنان لشد ازر اخوانهم باللجاء ومنهم الشيخ شبلي العربيان الذي دخل في خدمة الدولة ونال لقب باشا وقبل مسير العربيان لنجدة دروز حوران هجم الشيخ شبلي برجاله على حاكم راشيا المصري وقتله ثم تقدم الى حاصبيا ومعه اولاد الامير بديعة لياخذ بثار والدم الامير سعد الدين الشهابي . وكان عند الامير سعد الدين الامير محمود حفيد الامير بشير ومعه بعض اتباعه ولما بلغ الامير سعد قدوم الشيخ شبلي لياخذ بثار الامير بديعة لاولاده جمع اليه الامراء وكل من عهد به الثقة وتقدم بهم ومعه اخوه الامير محمد الي مركز الحكومة وارسل الى الامير بشير يعلمه الخبر

ولما وفد العربيان اشتبك القتال وحاولوا دخول السراي وكان الامير معزاً برجاله فصدهم عنها وارغمهم على الرجوع بعد ان قتل منهم عدداً كبيراً ولم يقتل من رجال الامير غير اخيه محمد قاتل الامير حسين بديعة وفي ثاني الايام بلغ العربيان قدوم الامير خايل لنجدة ولده الامير محمود فاربنوا

الى الفرار واعتصموا باللجاء ولما وصل الامير خليل الى حاصبيا وجد انه وصل متأخراً
فعاد بولده الى لبنان

الفصل الرابع عشر والمائة

في قيام شريف باشا ونجدة ابراهيم باشا له

ظل شريف باشا يجند لمحاربة الدروز الجنود ويرسلها وترجع اليه بالفشل والخيبة
حتى عظم الامر لديه وبلغ فوق ما كان يتصوره ولما راى ان الثوار على نضعف قوتهم
وازدى عددهم وان تعدياتهم امتدت وكثرت في البلاد عزم ان يقوم بنفسه الى خضد
شوكتهم فجرد عليهم عسكرياً كبيراً وتقدمه الى اللجاء

وكان من الدروز انهم اظهروا الانسحاب من ساحة القتال وتقهقروا الى الوراء من
امام عسكري شريف باشا حتى اذا فازوا بجيشتهم عليه وفادوه الى المكان الذي عينوه اطبقوا
عليه وبطشوا به وذبجوا منه رجالاً ذبح النعاج فتجدد الرعب في قلوب الجنود من بطاش
الدروز وراجعوا عن قتالهم وكانت نجاة شريف باشا من ايديهم اعجوبة من العجائب الروحانية
وتد بلغ خبر فشل شريف باشا مسامع ابراهيم باشا فقدم الى الشام ومنها قام بهسكته
الى اللجاء فضربهم من جهة معسكر شريف باشا فلم ينل منهم ما ربا لان الرعب استحوذ
على قلوب الجيش فعمد على ضربهم من جهة سرخد بفرسان الاكراد ودارت رحى الحرب
بينهم وتهارب الدروز من وجه ابراهيم باشا ورجاله الى ان قادروهم الى سهل رامة وهناك
رجعوا عليهم وعمالوا السيف بهم وفتكوا بمعظمهم وذهب تحريض ابراهيم باشا رجاله
هباء منشوراً لانه كان ينادي ولا من يجيب ولما ادرك حالة رجاله وعلم انهم باتوا ينجفون
سقاوة الدروز عمد الى تسميم الماء الذي كانوا يستقون منه فارسل الى الدكتور كلوت بك
يستحضر منه محلولاً قاتلاً وكان هذا ناظر الصحة في سور يا فرفض اجابة طلب ابراهيم
باشا وحاول ان يمنعه من استعمال تلك الواسطة لما فيها من القساوة التي تشمل الحريم
والاطفال معاً

اما ابراهيم باشا فكان يرى مصلحة الدولة اولاً والرعية ثانياً ولما عجز عن اخضاع
العصاة الزم علماء الكيمياء بصنع محلول سليمانى القاه بالمياه واعلم الدروز بذلك
ولما لم يكن للدروز ماء يستقون منه غير المستنقعات التي حوالي اللجاء اكرهوا على ترك

المكان بعد ان مات منهم عدد كبير عطشاً وانوا الى جبال حاصبيا واقليم راشيا وحاصروا
حاكمها الامير افندي واضطروه للنسليم والرجوع الى دمشق وبعد خروجه برجاله من راشيا
لحقهم بعضهم في الطريق على مقربة من قرية ظهر الاحمر وفتكوا بهم بدون معارضة
تذكر لان الامير ورجاله كانوا بدون سلاح

ولما علم ابراهيم باشا بما حل بالامير افندي ورجاله ارسل يستقدم الامير بشيراً الى
ملاقاته برجاله الى حاصبيا . وللحال جهز الامير فرقة من ثلاثة الاف مقاتل بقيادة
ولده الامير خليل وقامت الى المحل المضروب تنتظر وصول الوزير

وجعل ابراهيم باشا طريقه على الديماس حيث التقى بالشيخ ناصر الدين بيكة
ومعه عصابة الف محارب لنجدة الثوار فامر ابراهيم باشا رجاله بمقاتلة عصابة الشيخ
وسحق جموعهم فدارت الحرب مدة قتل في خلالها الشيخ وعدد عظيم من رجاله والتجأ
بعضهم الى تلة محاطة بالصخور العالية والاشجار الباسقة ولكن رجال ابراهيم باشا اقتنت
آثارهم وحصرتهم ضمن نقطة صغيرة وظلت تضايقهم وتقني من عددهم ازواجا وافرادا حتى
فتكت بهم جميعاً ولم ينج منهم غير رجل على رواية ابراهيم واربعين علي رواية
الدكتور مشاقفة

ولما بلغ الدرور قدوم ابراهيم باشا وما حل بالشيخ ناصر قاموا من راشيا الى جنم
في حاصبيا بالقرب من قرية شعبة التي لا يسكنها غير اسلام ونصاري وارض جنم محاطة
بجبل الشيخ شرقاً وجبل الوسطاني غرباً وهذا الجبل عسر الصعود وهو بفصل حاصبيا
وبعض قراباها عن ارض جنم

الفصل الخامس عشر والمائة

في اخضاع الدرور

وبعد ان اضاف ابراهيم باشا انتصاراً على انتصاراته العديدة تقدم برجاله الى راشيا
فوجد العصاة رحلوا عنها الى ارض جنم حيث تكاثر عددهم والتف حولهم دروز سوريا
والجبل فضلاً عن شبلي العريان ورجاله واولاد الامراء بديعة الشهابي فارسل ابراهيم
باشا اعلم الامير خليلاً بقدومه وامره بملاقاته الى جنم وكان من الامير خليل لدي

وصول الامر اليه انه قام برجاله الى المحل الذي عينه له ابراهيم باشا وصعد برجاله جبلاً على لفته قرية شويبا حيث الدرروز مجتمعون ومن كون الطريق كثيرة التوات ضيقة الجوانب اقتضى لرجالهم العبور فيها الى القرية افراداً لا ازواجاً فساعد ذلك الدرروز على الفتك بهم وشاء الامير بعمله هذا ان يظهر مأثرة له ولرجالهم امام ابراهيم باشا فامر بالصعود وسحق جماهير الدرروز قبل وصول الوزير ولكن الدرروز لم يساعده على تحقيق امانه فردوا رجاله وصدوم عن الحاق الضرر بهم فرجع بالفشل الى حاصبيا وبات ينتظر وصول ابراهيم باشا ولم يمض الوقت الطويل حتى اقبل الباشا برجاله الى جنم فعاد الامير برجاله الى ملاقاته ليساعده على اخضاع الثوار ولكن قبل وصوله كان تم لابراهيم باشا النصر وتبديد جماهير الدرروز الكثيفة

فارسل الدرروز الشيخ حسيناً البيطار من قبلهم ليطلب لهم الامان والعتو من ابراهيم باشا وكان ابراهيم حليماً فوعده بالعتو اذا قدموا له سلاحهم ورجع الشيخ ومعه فرمان العفو والتأمين على حياتهم ورجع معه من رجال الوزير بعض المأمورين لجمع السلاح

وخلف ابراهيم باشا الامير خليلاً في مركزه لجمع السلاح وتوريده الى الشام وقام برجاله الى تلك المدينة ورجعت عساكر الجبل وامراؤها الى مراكزها

الفصل السادس عشر والمائة

رجوع ابراهيم باشا الى الشام

رجع ابراهيم باشا الى الشام بعد ان أخضع لسلطته العصاة واجبرهم على احترام نظام الحكومة وتفرقت بقية الرجال ورجع الامير والشيخ الى مراكزها وفي رجوع امراء شهاب الى مراكزهم سولت لهم انفسهم ان يفتكوا بأولاد الامير حسين بدية فانتفوا خطواتهم ووقعوا بهم ولما انتشر خبر قتلهم وبلغ مسامع ابراهيم باشا حنق على مقترف ذلك الجرم وهو اخوة الامير سعد الدين وعلى اثر ذلك صدر امره في توقيف الامير سعد الدين والقاء القبض على اخوته ثم تقدم بنفسه بفرقة الى اقليم البلان ليلقي القبض على شبلي العريان الذي حنث بوعدة ولم يرع حرمة التسم ولما اقترب من المكان فرّ العريان من

امامه الى جدر بعلبك فتبعه ابراهيم باشا برجاله الى هناك وعند ما شعر العريان ان لا
مناص له ولا مهرب سلم نفسه اليه وطلب العفو عما صدر منه من الاساءة فقبل ابراهيم
باشا عذره وارجمه معه الى الشام حيث اقامه قائداً على فرقة من الفرسان
ثم ارسل ابراهيم آغا سويدان حاكماً على حاصبيا وهو من اصحاب العقول الراجحة
والآراء السديدة وعلى جانب عظيم من العلم والتهذيب

اما الاميران خليل وبشير اخوا الامير سعد الدين فقد فرا من وجه الحكومة لانهما
وقعا تحت جرم القتل وصارا يتنقلان من مكان الى آخر. وفي ذلك الوقت كانت الحكومة
باثة الارصاد على حسين الطرابلسي من متاولة بلاد بشاره لما ذاع عنه من البطش وعدم
الاكتراث بأوامر الحكومة فصدف انه التقى بالامير خليل وهو خارج من الحولة بعد
ان ارتكب بها جرماً هائلاً. ولما ادرك ان الامير خليل يريد القبض عليه اطلق عليه
بضع طلقات فاخطأه وعند ذلك اطبق الامير عليه وبمساعدة خادمه تغلب عليه ونزع
سلاحه واوثقه كمتافاً وارسله مع خادمه الى ابراهيم آغا سويدان وعند وصوله الى
حاصبيا استطرد سويدان آغا مسيره الى الشام فسر ابراهيم باشا من وقوعه بالاسر واثني
على الامير خليل الذي هو تحت مراقبة الحكومة اتى عملاً مجيداً وابدى خدمة ثمينة
للحكومة. وعلى اثر ذلك صدر امره بالعفو عن الامير سعد الدين واخوته وارجاع ما
كان لهم من الحقوق المرعية. ثم امر بشنق حسين الطرابلسي في حاصبيا على دولة امراء
شهاب حكامها القدماء

الفصل السابع عشر والمائة

في الراهب الكبوشي

ان المداوة متأصلة منذ القدم بين الفئة اليهودية والفئة الكبوشية وينسبون
اسبابها الى مراجع حجة لا محل الى تعدادها في هذا المقام. وفي اوائل سنة ١٨٣٨
كان الراهب الكبوشي الطلياني الاصل فتجولاً في شوارع المدينة يمرض مريض الجسم
والنفس وفي وصوله الى حارة اليهود كان ذلك النهار هو آخر نهار من حياته ومما تاكد
للحكومة بعد عناء البحث والتفتيش ان اليهود فتكوا به وبخادمه فقبضت على عدد كبير

منهم والقت عليهم عذاباً مبرحاً ليطلعوها على المجرم فنقاصه والبرى فتطلق سراحه ولم
تنتج لان اليهود مشهورون بالكتمان والمخالفة

واجتهد القنصل الفرنسي في البحث عن الجاني والبس القضية حلة دينية ولم يكن
من اليهود غير الافراط بالدفاع عن المتهمين ولما زادت الشبهة عليهم واشتد كدر الاهالي
منهم وبدأوا يضطهدونهم اضطهاداً جارحاً وعادة اليهود مشهورة في تفانيهم على
مساعدة المذنب منهم وتبرير ساحتهم . وبعد العذاب الصارم اقر احد المتهمين بالجريمة
بعد ان اعتنق مذهب الاسلام احترازاً من ثورة اليهود عليه وصرح للحكومة كيف
قتلوا الراهب واخذوا دمه فطلب شريف باشا تحضير الدم فانكروا وجوده معهم انما
قالوا بوجوده عند موسى الحلاق وهذا اصر على النكران الى ان وصل الى الشام احد
يهود الانكليز واشترى حرية المتهمين من محمد علي باشا بستين الف كيس
وشريف باشا لم يكتف بقرار المجرمين بل سار الى المكان وتكشفت الصدق فيه
عند ما شاهد آثار الراهب وذلك بعد اعتراف الحلاق بحدوث الجرم في بيت
داود الهواري وكيف خادمه ارسل وراءه ليساعده على اخفاء الجثة وجهد بالذكور
بيئائيل مشافة فحص الرفات وتحقيقتها اذا كانت تطابق على الاصل

الفصل الثامن عشر والمائة

في فصل حلب عن الشام

في اواخر سنة ١٨٣٨ ارسلت الدولة المصرية اسمعيل بك حاكماً على حلب
مستقلاً عن حكومة الشام وبذلك تصریح كاف بفصل حلب وما جاورها عن ولاية
الشام والاسباب التي نزعها في احداث هذا الانفصال هي قربة لذهن القاري اكثر
مما نظن نعي التور التي حدثت في البلاد والقلقل التي ذهبت براحة الاهالي والتعدي
والحروب التي افنت معظم الرجال كانت كلها محصورة بادارة واحدة وهي الشام لذلك
حصل للحاكم العام عشرات جملة في تنفيذ اوامره على جوانب البلاد بالرغم عن الابعاد الواقعة
بينه وبين اطراف الاقاليم وحلب على كونها بعيدة عن الشام وسكانها مع سكان القرى المجاورة
لها كثير والعدد يحتاجون الى حكومة تدير شؤونهم وتوفر لهم اسباب الراحة والامن
ارتأت الحكومة الرئيسية ان تفصلها عن ولاية الشام لتوفير السلام في قضائها

الفصل التاسع عشر والمائة

في قدوم الجنود التركية الى سوريا

وفي ذات السنة ارسل السلطان محمود فرقة متوفرة العدد والعدد لمحاربة الحكومة المصرية في سوريا واخراج البلاد من سلطتها وكأنه ادرك عجزه عن اخراج المصريين منها بطريقة أخرى واذ رأى ان ابراهيم باشا دوح البلاد واطفأ الثورات التي اضرمها في صدور الاهالي واخضع الثوار وارغمهم على طاعة الحكومة وانه كل يوم يزداد قوة وحكومته ثبوتاً وتقدماً واعتباراً حتى اصبحت الدولة المصرية بالمرکز الاول بين دول الامم المرتقية

وخشي على دولته من مخالفتها فرام التخلص منها وازعاف سلطتها لذلك ارسل فرقة عظيمة الشأن لتقضي على دولة محمد علي باشا في سوريا وليكن حال الاهالي بعد ذلك شر الحالات

وعند ما بلغ ابراهيم باشا قدوم الحملة الى سوريا جمع رجاله وامر الامير بشيراً ان يرسل فرقة صغيرة من رجاله الى الشام لتحاظ على الامن في اثناء غيابه عنها ولم يتهامل الامير في اجابة الطلب كما هو شأنه دائماً مع ابراهيم باشا فارسل الف وخمسمائة محافظ بقيادة ولده الامير خليل الذي نزل بالمرج خارجاً عن دمشق

اما ابراهيم باشا فنهض بجنوده الى حلب فالى حدود سوريا وعسكر برجاله على حدود بلاد الاتراك وعزم ان يفاجي الحملة التي كانت قادمة اليه قبل ان تدخل بلاده وكان ملتقى الجيشين في ارض نرب من اعمال اسيا الصغرى ودارت رحى الحرب واشتد القتال وكاد النصر يحنق فوق الجنود التركية الا ان شجاعة ابراهيم باشا وحذقه في الفنون الحربية ومقدرته على القيادة وتعوده خوض معامع الحرب اعواماً طويلاً ابته الظروف الا ان تساعده وتكفل له النصر على خصمه المضاعف العدد لذلك اسفرت الواقعة عن فشل الجنود التركية وتفرقها ابدي سبا وغنم ابراهيم باشا الذخيرة ومعدات حربية لا سبيل لاحصائها وقبض على اوراق من جملتها فرمان من الدولة التركية الى علي اغاتمينه فيه حاكما على الشام

ولما اطلع ابراهيم باشا عليه ظن سوءاً في علي اغا وافتكروا انه يتامر على حكومته

فارس الى اسمعيل بك والي حلب ان يقوم الى الشام و يبلغ شريف باشا ان يأتي
القبض على علي اغا المشار اليه تحت تهمة المماورة وفي حال وصول اسمعيل بك وابلاغه
شريف باشا اوامر ابراهيم باشا قبض على المتهم علي اغا وكان شريف باشا يحسد
علي اغا على وجاهته ومقامه الرفيع عند ابراهيم باشا لذلك امر بمحاكمته بالمجلس العالي
ليتمكن من اجراء غاياته فعمد بضع جلسات التي بها شريف باشا التهم المختلفة وعلي
اغلا يبرر ساحته ويدفع سهام الباشا عن اذيته والذي ساعد علي اغا في تبرير ساحته سمعته
ونزاهته المشهورتان عند الخاص والعام . ولكن اذا كان الحاكم مدفوعاً الى تنفيذ غاية يظن
وراءها منفعة لحكومته انفذها ولو كان في تنفيذها تذييب البري، وكان شريف باشا
فضلاً عن حبه في تنفيذ غاية ابراهيم باشا بالمتهم حاقداً عليه كما المعنا لذلك فاراد ان
يعجل في محاكمة علي اغا ويسد الطرقات عليه ما امكنه القانون . وفي ثاني الايام لم يفسح
المجلس ليلي اغا مجالاً للدفاع عن نفسه بل حكم عليه بالاعدام واعدموه قبل ان يسمع
مدافنته فقطعوا راسه وتركوا جثته مطروحة على الطريق كل ذلك النهار وكان الاسف
عليه كثيراً لدى عموم سكان المدينة على اختلاف مذاهبهم ونجلهم لما كان له من المنزلة
لنزاهته وشدة اخلاصه وصداقته للمصريين وخصوصاً ابراهيم باشا ووالده محمد علي باشا
ولم تكن الاهالي تقدر له هذه الاخرة وهذا الموت على بدقوم اشهرت صداقته لهم وعمت
اطراف البلاد . ولكن قل ان هكذا صاحب السلطة متى شعر بنمو احد المقربين يعمل
على قتله ولو كان اعز الناس عنده خوفاً منه على السلطة التي بيده وهذه الخلة موجودة بكل
عقل بشري فالسلطان يبذل جهده ليحصر نفوذ وزيره ضمن دائرة صغيرة وكذلك الوزير
يعامل من كان تحته منزلة واقرب منه مطعنا . وعلى هذا النحو يستبد القوي بالضعيف
الى ان ينفرط عقد العصبية بينهم وتضعف حماة الدولة لما ينمو فيها من الشقاق والضغائن
وتقبل الى الهرم تدريجاً . ومحبة الذات سليقة بالانسان والحيوان على السواء . وفي هذه
الاثناء بعد رجوع ابراهيم باشا من محاربة الانراك توفي السلطان محمود وخلفه ولده عبد
المجيد على عرش الخلافة . ومن اعماله الاولية شان كل حاكم جديده جاهر بمعاملة الكبير
والصغير الغني والفقير بالسوية وتعزير جانب الحق وزهق الباطل الى اخر ما هنالك من
المواعيد المطلوبة من كل حاكم ينتصب جديداً . وكان السلطان عبد المجيد ما غفل عن
ان يعد في مداومة الخطة التي سار عليها والده وتركها له ليدوم سيره فيها الى ان يتم له
الظفر ويعيد سلطته على سوريا كما كانت سابقاً . ولذلك كنت ترى في رجوع ابراهيم

باشا الى الشام ان الدولة التركية ما فتئت تثير عليه الخواطر فلا يحمد ثورة حتى تقوم
اخرى وهكذا قضى المصريون معظم ايام دولتهم في سوريا بالحروب والقتال

الفصل العشرون والمائة

في مآثر الحكومة المصرية

ان مآثر الدولة المصرية العربية كثيرة في سوريا ناتي على ذكر بعضها : منها الاصلاح
التي ادخلته في المستنقعات التي كانت يجمع الاقذار وباعثاً قوياً على تفشي الامراض
الوبائية في دمشق وكانت الاقذار تترامى في خندق وراء السور على جهة الباب الشرقي
وتفوح منها رائحة قتالة تحدث اضراراً بسكان تلك الناحية عظيمة . ولدى الفحص
والندقيق أصدرت الحكومة امراً بفتح خليج يصرف به الاقذار على نفقتها ولم تقبل
مساعدة الاهالي لها لاعتقادها وهو الاكيد ان الحكومة مطالبة بخدمة الشعب ومراعاة
راحته والشعب مطالب بانصافها وهكذا تمت العمل واراحت الاهالي من نسم الروائح
الكريهة وخفت بذلك ذرائع الامراض . ومن مآثرها انها وضعت حداً لاسعار اللحوم
فحطت من استبدال اصحاب المجذرة ثم عينت لجنة من قبلها وشرعت بذبح
الاغنام وبيع لحمها باسعار متهاودة فارغمت بائعي اللحوم على الافتداء بها ومن خالف
القانون كانت نغرمه جزاءً لاخرافه حرمة النظام . ومن مآثرها العدل والقسط بالرعية
والمساواة بين طبقات القوم الرفيع والوضيع على اختلاف العقيدة كانت تعاملهم امام
العدالة على السواء وكانت لا تكلف صاحب الحق نفقة لتحصيل حقوقه ولا كانت
الذنوب تباع وتشري ولا كان هناك مجلس بلدية تصرف حاصلاته على خصوصيات
خدام الحكومة مثل شراء مفروشات لسكنى الوالي ومجالس الدعوي والادارة وبقية
الدوائر البالغة خمسين محلاً وثمان الزبوت لانارة محلاتها ولا اكلاف وليمة يولها الوالي
او الحاكم لزاير عظيم الشأن كما كانت تفعل على ايام دولة بني عثمان كل ذلك واكثر
منه على مثاله اجدرت دولة محمد علي باشا في البلاد ومع كل ذلك ظل الشعب
يسومها العداوة وينافسها الحساب لانه اعتمد ان يكون محكوماً لا حاكماً نفسه . عبداً .
لا حرّاً

الفصل الحادي والعشرون والمائة

في مراجع الدولة الانكليزية

دخلت سنة ١٨٣٩ والامور في سوريا على ما روينا لك وبما ان دول الحال من المحال شاه ربك تغييرا في البلاد فجاءها جاسوس من قبل الدولة السكسونية ونزل في كسروان وانتحل من المعاذير انه قدم ليتعلم لغة البلاد ونحن في مركز لا يجوز لنا نكذيب الخبر او تصديقه فنره به كما جاءنا وعلى القاري ان يحكم نفسه دخل الرجل الذي سميناه جاسوساً واسمه الحقيقي وود كان ترجماناً لفنصل دوانه بالاستانة واصبح قنصلاً في تونس بعدئذ

واظهر في بادي الامر ميلاً غريباً الى تعلم اللغة العربية وتغلب على امياله لدرس احوال البلاد ونقد الحكومة الحاضرة ولكن تظاهره لم يسدل على عيون النقادة وشاحاً اعماها عن معرفة غرضه الرئيسي ولا مشاحة ان دولة الانكليزا اكثر الدول استعماراً او كأنها اوجست خيفة من الدولة المصرية التي مع حداثة نشأتها اصبحت في مصاف الدول المرفقة وكأنها لحظت ان محمد علي باشا يطمع بعد ضم البلاد الى مباحته بالخلافة واهياء الدولة العربية القديمة وان ارجاع دولة اسلامية عربية هذا شأنها في تنظيم احوال الرعية قامت على اساس العدل وجارت به الدول المتقدمة ولم تغفل بطلمها ابراهيم باشا نابليون مصر بل ذكركه وذكرت كل حسنات دولة مصر الفتاة فخافت منها ان تكون مزاحمتها في الاستعمار وتقف بوجهها حاجزاً منيعاً لاضعاف الشرق الادنى فرامت مقاومتها قبل ان يقسو ضلعها وادركت عجز الدولة التركية عن ايقاف نموها وارتقائها فزادت ميلاً الى المداخلة ولذلك ارسلت رجلها الذي ذكرناه والذي اخذ له استاذاً لتعليم اللغة العربية الخوري ارسانيوس الفاخوري فكان يدرس عليه ويأتي بذور الشقاق في قلوب الاهالي ويوغر صدورهم على الحكومة الحالية بوقت واحد وجعل مركزه جبل كسروان ولم يمض الوقت على وصوله الا انتشر خبر اتفاق الدولة الانكليزية والنمساوية والتركية على الدولة المصرية وطردها من سوريا قبل ان تتأصل فروعها وينمو ضلعها ويرغموها على قبول مصر بلاداً لحكومتها وقررت ارسال اسطول كبير الى مياه بيروت وابرار اتحادها الى العمل

الفصل الثاني والعشرون والمائة

في وصول الاسطول الى مياه بيروت

اما الدولة المصرية فلم تكن غافلة عن هذه الحركة العدائية بل كانت متربصة تراقبها بعين ساهرة وقد خدعتها فرنسا لانها وعدتها بالمساعدة الدفاعية واخلفت وعدها عندما سألتها الابرار به . ولو كانت البلاد باهلها على الوثام والسكينة ربما برزت بجحافلها وصدت الدول عن تنفيذ ما ربهن ولذلك عندما وصل الاسطول العثماني الى مياه بيروت وصلت معه اساطيل الدول المتحددة وعرضن عليها شروطاً عقيمة تأنت في الجواب عليها والشروط التي افترحتها الدول هي بقاء مصر لمحمد علي باشا وذريته وان يجعل له اسطولاً محدود القوة وجنداً محصور المدد لا يقبل الزيادة وان يدفع للدولة لقاء استقلاله بمصر ستين الف كيس سنوياً ويرجع لها شبه جزيرة العرب وغيرها من فتوحاته وان يبقى في سوريا مدة حياته فقط وكلها تشف عن اشهار الحرب اكثر من النقاء الشروط وخصوصاً الدفع عن ثمن استقلال مصر الذي يرجع استقلاله الى اكثر من ربع قرن وارققن هذه الشروط بموعده للمجاوية عشرة ايام وان مضت الامة ولم يجر جواباً توخذ منه حتى مصر

فرفض محمد علي باشا مطالب الدول لاعتماد علي دولة فرنسا وما درى مكيدة الانكايكز اما ابراهيم باشا فعندما تحقق ما دبره عليه جواسيس الانكايكز خصوصاً المستر وود وان اهل كسروان علي وشك اشهار عصيانهم علم ان الامر جلال ووراء الاكمة ما وراءها فترك شريف باشا بدمشق وامره ان يقبض على قناصل الدول الموجودين في المدينة اذا حدثت الحرب وقدم الى لبنان ثم وجهه بوحنا بك البحري الى الامير بشير يقيم عنده عيماً عليه وطلب من الامير ان يرسل له حفيده الامير مجيداً الباسل ليذهب معه لضرب عصاة كسروان وتقدم بطليعة اثني عشر الف مقاتل الى محل العصاة ودام القتال اياماً ولم يحصل علي نتيجة مرضية بل تغلب العصاة على جنده مراراً وهي المرة الاولى التي ذاق بها ابراهيم باشا طعم الانكسار

وكان من قصل الانكايكز الدمشقي انه ارسل روفائيل مشاققة سرّاً للامير بشير يخبره بما قررت الدول عليه من اجبار المصريين علي الجلاء عن سوريا عاجلاً ام آجلاً وينصح له ان يسلم او يلوذ لجانب الدولة التركية وكأنه يريد ان يفهم الامير وجرب

سحب قوته من قلب الحكومة المصرية - ولا مرأى ان الانكياز اقوى الشعوب دهاء
واكثرهم حيلة
وقدم وفدًا الى الامير من قبل قائد العمارة الانكليزية يطلب منه المواجهة فارسل
اليه ابراهيم مشاققة مرة عن مجري بك
وعند ما قابلته ارجعه الى الامير ومعه هذه الرسالة ٠٠ « اعلم يا امير لبنان ان سوريا
كلها اصيحت تحت ارادتي والمصريون لا بد من اخراجهم منها ولو كلفونا اموالاً ورجالاً
تفوق الحصر فاخلص لك النصيح ان تقف بجانبنا »
ولما كان الامير على جانب عظيم من الرزائة والتأني لم يجز جواباً وظل يظهر
ولاءاً لمحمد علي باشا محافظاً على مقامه عنده

الفصل الثالث والعشرون والمائة

في لفظ القوم عن الحرب

لامشاحة ان وجود الاسطول الحربي في مياه بيروت احدث زعزعة عمومية في البلاد
واضطراباً في الشعب وارجف البلاد من اقصاها الى اقصاها وكثرت الاجتماعات وعقد
الجالس في المدن والقرى واصبح الشعب ينام ويقوم ولا هم له غير المباحثة في الحرب
وتحمين نتيجتها ومع ان شريف باشا انتبه لقلقلة الشعب فحظر عليه التكلم وهدد
بالقتل كل من يتحدث بالحرب وكان الشعب يزداد اشتياقاً الى المفاوضة ومبادلة
الآراء بصددتها واعدم شريف باشا غير واحد اشبهه بخرقه النظام
وحدث ان فنصل دولة النمسا مرلاتوزار الدكتور مخائيل مشاققة في بيته ودار
بينها الحديث الآتي نرويه عن مشاققة

مشاققة - من الناس من يفضل اكل رأس السمكة قبل ذنبها ومنهم من يشرع
في ذنبها حتى اذا وصل الى رأسها سهل عليه صفحه وتطيب باكله والذي اراه من
الدول الراسية اساطيلها في مياه بيروت انهن يقصدن اخذ سوريا من الدولة المصرية
من اضعف جانب فيها حتى اذا اجهزن عليه تحوان الى المكان الاقوى وبيروت لا
تسب مدينة دفاعية بالنسبة الى عكا فاذا امتلكتها اولاً وعكا ثانياً ربما كان ذلك

افضل لمن وابقى

القنصل — وهل تفضل هذه الطريقة

مشافة — وكثير من القوم يفضلون تفضلي

القنصل — وماذا نظن تحتل عمك نار الانكليز الآ كاة

مشافة — ان ابراهيم باشا حاصرها سبعة اشهر قبل ان تمكن من الدخول اليها ولم

تكن حاميتها وحصونها كما هما عليه الآن

القنصل — مسكينة هي الدولة التي تعادي الدولة الانكليزية

مشافة — ولكن عمكا اصبحت معروفة بمناعتها عند سائر الامم وكم رجح عنها بالفشل

من القواد المشهورين وزد على ذلك فابراهيم باشا ضاعف قوة حاميتها ومناعة اسوارها

القنصل — وهل تظن الدول غافلة عن ذلك او احد منها يجمله ومع معرفتنا بما

اضيف اليها ارجح لها الثبوت امامنا بضع ساعات

وعند ذلك لحظ مشافه وجود نسيب لبحري بك قدم من لبنان الى الشام حديثا

فامسك عن الخوض مع القنصل فارسله الى بوحنا البحري بما وقع له من الحديث مع

القنصل . وفي ثاني الايام عاد الرسول اليه بطالب حضوره وعند ما قابله تص مشافه

عليه حديث القنصل فساله بحري ان يستكشف منه عزم الدول وهل يحار بن مع الانراك

ضد الحكومة المصرية

وفي ذلك المساء حضر القنصل الى بيت مشافه كعادته ولم يمهله مشافة طويلاً حتى

كاشفه الحديث قائلاً : لم ازل افكر في قولك عن ثبوت عمكا بضع ساعات بالاكثر

امام مدافع الدول واخصهن الانكليز فهل انت واثق ان الدول جاءت للدفاع عن مصالح

قومها القائم بيننا ام لتساعد دولة بني عثمان على محمد علي باشا

القنصل ان دولة الانكليز ودولة النمسا دولتان محاربتان مع الدولة التركية

انما فرنسا تلزم الحيادة كأنها قدمت لتشاهد فشل حليفها وانكسارها

ولما انتهى هينرييل مشافه الى البحري كلام القنصل المتقدم ظهر عليه الكدر وقال

ساخطاً على دولة فرنسا لانزامها الحيادة ولولاها لما كان محمد علي باشا رنض مطالب

الدول واستطرد حديثاً عن الحرب وما تجابه من الولايات على البلاد . وكان مشافه قد انس

ارتياحه الى المحادثة فقال : ان بونايرت الذي فتح العالم وازعج بلوكة عجز عن عمكا مع انها

كانت بسور واحد ودخلها الجزائر الذي بالكاد تضاهي قوته قوة فرقة من الجيش المصري

المعتاد على الحروب الهائلة وكيف الآن وقد أصبحت يحوظها سوران وداخلها جند ابراهيم
باشا الباسل وليس جند الجزائر الخامل

فاجابه بجري بك ان الذي اعجز نابليون عن فتح عكا ليس مناعة سورها ولا بسالة
حاميتها بل قوة الانكيز التي صدته عن ارسال سهمه ذي الحد المرهف الى قلب حاميتها
ثم انقلاب الجمهورية الافرنسية عليه وقطعها عنه المدد والنجدة وتعمدها اهلاكه
في هذه البلاد ولذلك اضطر للانسحاب عن سور عكا والرجوع الى بلاده قبل ان
ينال اربه والا فما هي عكا ومناعة سورها امام قوات الدول الحية . . ولو كانت الدولة
التركية خصمنا لما اكثر لها افندينا وقد سمعته مرارا يقول : ان نساء المورة تفوق
الجنود التركية بسالة واقداما والانكي المهم انه يلزمنا قتال عدونا الداخلي قبل
الخارجي . وها ان موارنة شمال لبنان ثاروا علينا وجحدوا النعمة التي معهم بها
افندينا وانكروا على حكومتنا اتعابها عليهم وكيف انها ساوتهم بالمسلمين الذين كانوا
يضطهدونهم ويسومونهم انواع الذل والخسف والعبودية ويستجانون المحرمات فقاموا علينا
يريدون قتالنا . . وارجاع عبودية الاتراك على اعناقهم لنعود عليهم سلطنة
مشايخهم المستبدين وامرائهم الناقمين فيعملون على ذلم واثارة الفتنة بينهم وترجع حالتهم
الى شر مما كانت عليه من الضغط . والحق يقال ان رجعت الدولة التركية الى سوريا
سوف تزيد معاملتهم صرامة ويحل بهم الندم ولات ساعة مندم فقال له مشاقه : اتسمح
لي ان ابدي رايي واصرح بافكاري في هذا الصدد

فقال له بجري : قل ما يجول بخاطرک بكل حرية واخلاص وخصوصا عن

احوال لبنان لانه حصننا المنيع وله عندنا اهمية تفوق عكا وحراجة مركزها

فقال مشاقه : من المعقول والمنقول لنا عن السلف ان الدولة الفاتحة اذا لم تحسن
سياستها في البلاد وتحافظ على عادات اهلها وتراعي نظامها ولا تحدث بها تغييراً فجأة
لا بد ان تلاقي مقاومة عنيفة تضعف قوتها وتزيل سلطتها . ان لبنان الذي كان يدفع
للدولة الفين وثلثائة كيس ثمن استقلاله اصبح وهو يدفع للحكومة مصر ستة آلاف
وثلثائة . ولم تكتف الدولة المصرية بهذه المضاعفة بل شرعت بتجنيد عساكرها من
رجالها الذين افضتهم الحروب حتى كادت تحل بيوتها من السكان فترملت معظم نساها وتيم
جل اطفاله وعلاوة على ذلك كانوا يعتاضون عن هذه الضحايا الثمينة فقراً وجوعاً وعيالهم
بكاءً ونوحاً مدة غياب رجالها . وكما لا يخفى ان اهالي الجبل افقر سكان سوريا قاطبة

وليس لهم من موارد الرزق سوى ما ينتظرونه من موسم الحرير لسد رمقهم . نعم ان موسم الحرير يبلغ الف وخمسمائة قنطار ولكن تسعين بالمائة منه يذهب الى الامراء والى المشايخ والرهبان وبعض سكان المدن الكبيرة مثل بيروت وخلافها . بين ان عدد الشعب ينيف على ثلاثمائة الف لا يبقى له من الموسم الذي هو مورده الوحيد غير عشرة فناً مل . وزد على ذلك ان ارض لبنان لا تصلح للحرثة كارض الشام وحمص وحماة لذلك ترى عدداً كبيراً منهم يعولون على خدمة الامراء والاديرة لتحصيل معاشهم الضروري . ثم اي صاحب عشيرة ابنته الحكومة المصرية في منصبه حاكماً مستقلاً كما كان عليه قبل احتلالها ولم تمن شرفه او تنزع منه ولايته التي كان يحسبها ملكاً شرعياً . . نعم ان الامير بشيراً بقي في مركزه مستقلاً في حكومته قبل الاحتلال وبعده . ولكن الزيادة التي القتها عليه كانت تزيد على ثمن هذا الاستقلال . ومع ذلك فانها اهانته واسقطت من حرمة عند كافة سكان البلاد في قنلها من استجار به . واهالي سوريا ولبنان خصوصاً يقومون على طاعة رؤسائهم انما يخلفون عن اهالي مصر انهم لا يخضعون الا لامرائهم ومشايخهم ورجال الدين ولا يعرفون الطاعة للحكومة رأساً . . وقد اسرعت الحكومة في استعبادهم وتجنيد افرادهم في خدمتها والانكى من ذلك انها لم تحدد لهذه الخدمة وقتاً معلوماً . كل هذه الامور وامثالها اوجبت بنض الاهالي للحكومة الحاضرة مع ان المتبصر يرى العدل بزغ نوره في جو سوريا منذ انتشر العلم المصري فوق ربوعها ولكن اذا كان الشعب قاصراً عن ادراك الحقيقة فمن الافضل اصلاحه وتوعيده على قبول الاصلاح تدريجياً

وسكان شمال لبنان كانوا يميلون الى مقاومة الامير بشير قبل الاحتلال وفي سنة ١٨٢١ اثاروا عليه فتنة كبيرة وكان رجال الدين سبب حدوثها وهي تعزى الى غبطة البطريرك لانه كان حانقاً عليه كما يقال

اما جنوب لبنان اذا لم يتدارك امره فسوف يقشدي بالشمال وياًخذ العدوى منه وسكانه يقدرون بنصف الاهالي وهم على جانب عظيم من القوة وشدة البأس يكفيه قوه ما تسعي وراءه المشايخ من ايجاد صلة ودادية بينه وبين الدرور آل جنبلاط وعماد ونكد المنفيين بمصر فاذا عاد هؤلاء واستمالتهم الحكومة اليها كان لها في الجنوب قوة تضاهي قوة الشمال والله اعلم . . . ولم يجرى بك جواباً لانه ادرك الصواب في كلام مشافة هذا

الفصل الرابع والعشرون والمائة

في ضرب مدينة بيروت

ولما مرَّ الوقت المعين ولم يجاب محمد علي باشا الدون المنتظرة قبول اقتراحها عليه الا
بالرفض اشهرت عليه الحرب و بدأت بضرب مدينة بيروت ولم تكن تلك المدينة دفاعية
فاستولت عليها بوقت قصير . وعند ما انتشر خبر ضرب مدينة بيروت ارسل ابراهيم باشا
بأمر شريف باشا ان يمنع قناصل دولتي الانكليز والنمسا من المداخلة والمخالطة ويقم
عليهما الرقيب ولكن هذا الامر على ما فيه من المضايقة لم يات بالفائدة المطور بل ان
كانت متواصلة مع دروز حوران والدول بواسطة ترجمان القنصل الذي وقف مخائيل مشافة
على اعماله ولم يشهره . وكان لخبر اشهار الحرب على الحكومة المصرية وقع حسن في
قلوب عصاة كسروان فتجددت قوتهم وتضاعفت عزيمتهم على مقاتلة ابراهيم باشا وتفرق
عساكره وقد ارسلت لهم الدولة التركية سلاحاً ومدتهم بفرقة من جنودها عن مدينة
جونيه وعند مضاعفة عددهم وعددهم دحروا الجند المصري وارغموه على الانسحاب ولم
يفت ابراهيم باشا انه اصبح يقاتل الدول فضلاً عن العصاة لانه شاهد الجند المنظم
واستطلع سلاحه فرأى الانسحاب اولى والذي غره بذلك ظنه ان العصاة يلحقون
به الى غربي البقاع حيث نزل بعسكره ولكن العصاة لم يبرحوا مكانهم

الفصل الخامس والعشرون والمائة

في نفي الامير بشير

وبعد ان استولت الدولة التركية على بيروت تقدمت الى صيدا واستولت عليها ومن
هناك ارسلت في طلب الامير بشير لتجدد له ايامه على حكومة الجبل . ولما وصل الامر
لحاكم لبنان افترق ان يستحضر الامير مجيداً من عسكر ابراهيم باشا فارسل اليه علماء و بات
ينتظر وصوله ليقدم و اياه الى صيدا -- ثم امر اندرواس مشافة مدير الخزينة باعداد ما
توفر لديه من المال فوجد في الخزينة اربعة وستين الف ليرة فاخذ الامير منها بعضها
وابقى البعض الآخر ليرسله الى البطريك كانه علم بما سيصيه فرغب في ان يستحيل
عضداً كبيراً

اما الامير سنجيد فلم يتمكن من الحضور حالاً فاضطر الامير بشير ان يؤجل ميعاد
قيامه الى صيدا لليوم التالي وعند ما حضر قام بجاشيته لمقابلة والي صيدا
اشارته فاحتفل خالد باشا بقدوم الامير ورحب به عند اول وصوله ولكنه انقلب
فجأة من الترحيب الى المعانبة وجعل له عذراً في تاجيل وصوله الى صيدا كما وعد
اولاً فابدى الامير عذره الواضح وادعمه حجة دامغة ولم يفلح واخيراً عرض له خالد
باشا ان يختار الامير مالطة التابعة لدولة الانكليز وطلب مهلة لاعداد شؤون رحلته فامهله وارسل
له البطريرك كاهناً لخدمته الخوري نقولا مراد او بالاحرى جاسوساً لاعماله في منفاه
وبعد ايام قام الامير بجاشيته الى مالطة

وجدير بنا ان نبسط للقارىء اعمال رجل لبنان العظيم في مدة حكمه ان الواقف
على تاريخ لبنان لا بد ان يوقفه التمييز بين هذا وذاك لما يلاحظه على اعماله المختلفة —
والامير بشير الذي تولى حكومة الجبل من ١٧٨٥ الى ١٨٤٠ لا بد ان يعترى الباحث
في اعماله العجب لانه كان يظهر القوة من حيث لا يحتاجها ويظهر الضعف في مواقع تلزمه
القوة قد كان للامير احوال سهلت له ان ينشئ دولة مستقلة لو تروى اذ توفرت له القوة
والوجاهة واجمعت القلوب على اهابه والاستبسال في مصالحه وكانت ولاية الامور تعتمد
عليه في حل المضلات اهالي سوريا عموماً والجبل خصوصاً تفتخر به وتباهي ببسالته
وكرم اصله

وكان شجاعاً مقداماً وقائداً محنكاً وسياسياً داهية خدم الجزائر بكل امانة ونشاط .
وخدم خلفه وحفيده مثله وخدم الدولة التركية والدولة المصرية وكانت يعطي لكل
خدمة ودولة حقوقها وكان صادقاً اذا وعد اميناً على واجبه فعل كل ذلك ولكنه لم
يخدم وطنه خدمة تذكر ولو صرف قواه في منفعة وطنه وتعزيز مقامه لحفظ له الاستقلال
وتغلب بما فيه من القوة الفطرية على اخصامه لو صرف ايامه وعزيمته وكرس حياته للدفاع
عنه وعن استقلاله من غيب الاجانب به لما قام للجزائر قائمة ولا لعبد الله باشا او سواه
شكيمة . . لو فعل كل ذلك لكننا شاهدنا له من سلالاته حاكماً على ربوع سوريا ولبنان
كما ترى احفاد محمد علي باشا يتمتعون بالسلطة على وادي النيل اذ كانت له ذات الفرصة
التي كانت لمحمد علي باشا لاشهار استقلال سوريا ومحاربة الاتراك وردم عنهم كما ردم
محمد علي عن مصر ولكنه لم يقدم على مثل ذلك واطلق قواه في ديجور الخلافات الاهلية

وقبل ان يكون مستقلاً بمكرمة لبنان ضمناً وفضل الاستعباد لعدو وطنه لينتقم من اخيه بالوظيفة ومزاحمه على الامارة . واشهارنا عليه الملامة لاتبعنا عن الاقرار بفضله وعلو همته فهو يستحق فوق ذلك وربما كان له عذر نجهله ومهما يكن من امره فنغيب عليه استعباده لعدو وطنه

الفصل السادس والعشرون والمائة

في تعيين الامير بشير القاسم حاكماً على الجبل

لم يمض على وصول الامير بشير الى صيدا اكثر من بضعة ايام حتى عين خالد باشا الامير بشير القاسم حاكماً مكانه على الجبل . وكان الامير قاسم ضعيف العزيمة سيء الادارة جاهل لا يفقه مطالب مركزه . كانه جاء ليظهر مقدار الفرق بينه وبين الامير بشير سلفه ولكنه على ما فيه من الخبالة وفساد الراي نال رضى اصحاب المطامع من شيخ وكاهن وذو زعامة حيث اطلق لهم التصرف بحقوق الشعب وابتزاز ماله . ولما كانوا مغلوبوا لا يدي على عهد الامير بشير بدأوا يدحون الامير قاسماً ويشنون عليه ويمرحون ويأتون العجائب وشوهد عياناً ما وصلت اليه حالة لبنان على عهد الامير بشير قاسم ومع ترجيح الامير بشير عليه كان ولاية الامور نفعته بالقاتل لكل سلطة عاصرته وكانت اما مزاحمة له واما تريب الاستقلال بمصالح الشعب . واكثر من تلقينه فقالت انه سفاك لا رحمة عنده ولا حنان في قلبه ولكنهم لم يبرهنوا ذلك ولا قاسوا معاملة الافراد بل كانت دعوتهم من وجه اجمالي ولا توغلوا في البحث والاستقصاء في حالة لبنان عموماً وهل هي الآن افضل منها في عصره وهل الذين قتلهم وكان الحكم فيهم عدلاً اقل من الذين ذهبوا ضحية الجهل والاستبداد في سنة واحدة بعده فالمبتصر عديم الغرض لا يرى في ادعاء هؤلاء حقيقة

الفصل السابع والعشرون والمائة

في رجوع ابراهيم باشا الى الشام

بقي ابراهيم باشا مقبلاً برجاله في البقاع بزحلة الى ان قصد مقابلة بجري بك وكان

الذي قصه عليه البحري عجل قيامه من تلك النواحي الى مركز حكومته لجمع شعنها وضبط شؤنها . ومن جملة ما وقف عليه وحدث في شيا به قدوم فردوس بك الى الشام ومقابلته بشريف باشا ليلاً وفردوس بك هو ابن علي اغا مملوك ناصيف باشا العظم الذي كان مع الصدر الاعظم بالحملة التركية التي قدمت لاجرا فرنسا من مصر سنة ١٨٠١ قزوج علي اغا ابنته واقترن شريف باشا بابنة علي اغا من زوجته المشار اليها . وكيفية اتصال بحري بك بحدث هذه المقابلة انه بث الارصاد لفردوس بك على اذاعة خبر قدومه وسال اولاً مخابلاً مشافه ان يذهب الى بيت اخيه عا كف بك ويستطلع منه حتمية الخبر لانه طيب وقد تعود ان يزور عا كف واخوته . والحقيقة ان فردوس بك دخل الشام عن طريق حاصبيا بعد ان نزل على الامير سعد الدين فالبسه ثياب عادية واصحب معه الامير خايلاً الى ان اوصله الى ابواب المدينة ولما لم ير بحري بك ميلاً من الدكتور مشافه في تلبية طلبه اهتدى منه على طيب البكوات وهو رونان صيدع فظن انه نال اربه . واخيراً علم ان فردوس بك نزل على حافظ بك بن عبدالله باشا ولما كان يعلم صدق حافظ بك لابراهيم باشا تقدم منه وساله عن فردوس بك فقال له حافظ احضر الليلة وادخل بجانب القاعة في بيتي تقف على الذي تطلبه فذهب بحري بك الى بيت حافظ ودخل الغرفة التي اعدها له صاحب البيت وعند دخوله وجد غلاماً فساله عن فردوس بك فاجابه الغلام كان فردوس عندنا في هذا الاسبوع و برحنا في هذا الصباح . فقال له بحري بك اذن لم يقابل شريف باشا فاجابه الغلام نعم قابله وصرف وقتاً طويلاً . ولم يخف البحري عن شريف باشا ما تا كده من خيائنه فقابله واطلعه على كل الذي اخبره بنفسه من مقابلته بفردوس بك ولما تحقق شريف افتضاح امره سال البحري ان يكتم الخبر عن ابراهيم باشا او يسأله العفو عنه فوعده انه يسعي بنيل العفو ومضى لساعته الى ابراهيم باشا وقص عليه الذي تقدم . ولما سمع ابراهيم باشا عن شريف باشا ذلك الخبر حنق عليه وتوعده ولكن بحري بك سأله التروي والعفو عن سقطته . وقام ابراهيم باشا في ثاني الايام الى الشام وترك ساحل البحر فاستولت عليه الدولة غنيمة باردة وعند وصوله لدمشق عقد مجلساً عسكرياً وحاكم شريف باشا فحكم المجلس عليه بالخيانة فقبض عليه وابقى وقت تنفيذ الحكم فيه ليقوم الى مصر

الفصل الثامن والعشرون والمائة

في ضرب عكا

أقلمت السفن الحربية من مياه بيروت ورسيت في مياه عكا وصوبت عليها مدافعها
 وامطرتها ناراً متواصلة ولم يمض عليها ثلاث ساعات حتى رأت حاميتها اخلت المدينة
 وفرت تطلب النجاة والسبب الذي عجل امر فتحها واخلاء حاميتها هو انفجار البارود الذي
 وصل حد يشا وترك خارجاً فوقعت عليه قبلة احدثت انفجاره وكانت تيجته وخيمة فهدم
 جانب عظيم من السور وفك بعدد كبير من الحامية ومن سلم من الانفجار طلب لنفسه الفرار
 من نار الاسطول فاستولت عليها الدولة وتفاءلت خيراً . وبعد ايام وجه خالد باشا
 حكومة حاصبيا على الامير سعد الدين وارسل اليه سلاحاً واعد فرقة بقيادة احمد آغا
 اليوسف لطرد ابراهيم باشا من دمشق

الفصل التاسع والعشرون والمائة

في قيام ابراهيم باشا عن سوريا

تقدم احمد آغا اليوسف الجنود التي اعدّها له خالد باشا لطرد ابراهيم باشا ولما
 اقترب من قرية سبع على مسافة عشرين ميلاً من دمشق خرج اليه ابراهيم باشا بجند
 قليل وهزمه شريفة فرجع ابراهيم باشا بالغنائم ولذخيرة الوفرة اما احمد آغا فنزل
 بعسكره بعيداً عن الشام واقام ينتظر اخلاء ابراهيم باشا المدينة لان محمد علي باشا
 والده ارسل اليه واعلمه عن قبوله ترك سوريا واستقلال مصر فجمع ابراهيم باشا
 شتات عسكره من كل حدب ونادوهم سبعون الف رجل فقام بهم عن الشام الى مصر
 في سنة ١٨٤٠ وخرجت اهالي البلد لوداعه فخطب فيهم وحرصهم على الاخلاص الى
 الطاعة والسكينة . وعند نصف النهار اقبل احمد آغا برجاله وقبض على ازمة الاحكام
 وقبل وصوله قتل فتى نصراني من يد مسلم لان المدينة باتت بدون حاكم
 ومن اوائل اعماله انه اعدم اثنين من الاكراد وكان يطوف في شوارع المدينة ليلاً
 يتنسم اخبارها بنفسه ولطظ ان النصاري عادوا الى العمام السود بعد ان كانوا يتعممون

بالعمائم البيضاء خوفاً من تحرش المسلمين بهم فأعلن ان كل مسلم واي كان يبدو منه
تعد على انتمعم العمامة البيضاء من الطائفة المسيحية ينال قصاصاً صارماً . وتقدم الى
السلام عليه الدكتور مشافة واخبره بوجود جرم انوس البحري في بيته ولم يقم مع اخيه
يوحنا لعجزه وسأل له الامان فصدر امره بالعفو عنه وعن ولده . وبعد ايام ارسلت
الدولة علو باشا الذي فر من وجه المصر بين والياً على الشام فاقام بها اياماً ثم ارسل الى
الحجاز ثم عينت نجيب باشا والياً على الشام وكان اشد الاتراك تعصباً
وكان المستر وود الانكليزي مفوضاً من الدولة التركية بمراقبة اعمال مأمورها وكان
كثيراً ما يشير على الدولة بعزل هذا فتعزله وتعيين ذلك فتعينه وكان كلامه مسموعاً
لدى الدولة الى هذا الحد

واجمع السوريين دلى محبته على اختلاف نزعاتهم ونجلهم . وعين من قبل دولته
قنصلاً في دمشق وجعل الدكتور مشافة ترجماناً له ثم حضر خليل باشا صهر السلطان
بيروت لتنظيم احوال لبنان ولم يفلح فرجع عنها بالخيبة والسبب ليس قصوراً منه او
تصاف الجبليين بل وجود الامير بشير بعيداً عنهم في مالطة ولا ذنب له فدبر على تقديم
العرضحالات طعناً على آل شهاب

الفصل الثلاثون والمائة

في وفاة الامير بشير في منفاه

في رجوع خليل باشا الى الاستانة سعى فاستقدم الامير بشيراً وحاشيته اليها وكان
قد لحق الامير الشيخ حمد ابي نكد وقبل ان يبرح زعفران بول توفي الامير قاسم ا كبر
انجاله ولما وصل الى الاستانة قدم اليها المعلم بطرس كرامه وسعى عند رجال الدولة
بارجاع الامير او احد انجاله الى حكومة لبنان وكاد يفلح بسعيه وارسل الامير امير
حاكماً على الجبل وبقاء والده في الاستانة بينما تستطلع الدولة تصرفاته بالحكومة فان
ظهر منه ما تريد تسمح للامير بالعودة الى وطنه . وقيل ان الخوري نقولا اعلم سيده
البطريك بما ينوي الامير على اتيانه فارسل غبطته للدولة رسالة ملاًها قدحاً بالامير
امين واكد لها ان الجبل يصبح ملعباً للشقاق والفساد في دولته لانه اظلم من والده
و كثرت العرضحالات تترى على الدولة من المشايخ والامراء ورجال الدين يساجمونها

بعدم ارسال الامير امين حاكماً عليهم وكانت الدولة سبق لها وعينت الامير اميناً وذهب
لوزير الصدارة رشيد باشا يستلم الامر الاخير قبل مبارحته الاستانة وبدلاً من ان
يناوله الباشا الامر في تعيينه دفع له عرضاً جالاً من البطريرك الماروني وبقية رؤساء
العشائر وقال له نحن قبلنا بك حاكماً على لبنان ولكن رجال دينك رفضوك فخرج من
عنده قانطاً

ثم بعد مدة قليلة اعتنق الاسلام وقال انه من الغلط التدين بذهب هذا حال
رؤسائه ثم افندى به الامير مجيد والامير مسعود اولاد اخيه الامير قاسم والامير خليل
ولكنه توفي على الاثر كئيباً . وبعد اربعة اشهر توفي الامير امين مسلماً وهكذا والده
لشدة اسفه على ولده وضيق ذات يده توفي فجأة عن اربعة وثمانين عاماً وقد احتفلت
الدولة بآتمه ودفنته بكنيسة الارمن الكاثوليك وهكذا على هذه الصورة كانت نهاية
حياة بطل لبنان وبعد مدة رجعت عائلته الى سوريا وتوفي الامير مجيد مارونياً والامير
مسعود مسلماً . وباعت ارملة الامير الكبير سراي بيت الدين الى الحكومة اللبنانية
واصبحت مركزاً للتصرفية وبذلك انتهت دولة الشهابيين في لبنان بعد ان حكمت
عواماً

الفصل الحادي والثلاثون والمائة

في اكاذيب عمال الاتراك بسوريا

فلنا في الفصل السابق ان العرائض كانت تتوارد الى الاستانة طعناً على آل
شهاب وكان يقال ان الباعث على كثرة تلك العرضجات كره رجال الدين المسيحي
بسوريا لهم وخصوصاً المسيحيون ورجال الدين منهم مع المشايخ والاعيان
وتحرير الخبر ليس كما كانت الدولة تشيحه من ان اللبنانيين حانقون على امرائهم آل
شهاب بل كانت الدولة تحمدع اللبنانيين تارة وتلقيهم اخرى واونة تهددهم ليكتبوا لها
العرضجات طعناً على آل شهاب لنظير للدول الاوروبية ان شعب لبنان المسيحي
غير راض عن تصرف امرائه آل شهاب ولذلك فهو يطلب من المرحم التركية ارسال
وال تركي من طرف الدولة عليه بدلاً من آل شهاب
وكان الاتراك يحرضون المشايخ الغاضبين على آل شهاب وخصوصاً الدرروز الذين

ضايقتهم الامير بشير الكبير وارغمهم على احترام القانون وكانوا يشيرون عليهم كل ذي
ضعيفة على آل شهاب اسنعداداً لضم لبنان الى مملكتهم ونزع استقلاله الاهلي
ولم يكتف عامل الاتراك اذ ذلك مصطفى باشا بتفريق العرضحالات على النصارى
والدروز بالجليل وامرهم بختمها بل فرق منها عدداً على مشايخ الاسلام بسوريا كلها
وارسل منها جانباً الى اشياخ المتأولة وامرهم بختمها وكلها طعن على امراء شهاب وثناء
على عدل الدولة الشهير الذي علمت حالته باول الكتاب وكيف كان امره قبل استيلاء
الدولة المصرية على سوريا مما سردناه بيمينه

وقد كتب لشعب تلك الايام بالجهل والغباوة اللذين اوصلاه الى احظ منزلة من
الرق حتى كان العوبة بيد عمال الاتراك بفضل رجال زعامته الذين اثبتوا عدم اهليتهم
لاشغال مرا كزهم مما كان يحملهم على ختمه من العرضحالات رجال الدولة واخصهم
مصطفى باشا

وهاك صورة كتاب ارسله هذا الرجل الى زعيم من مشايخ المتأولة وضمنه عرضحالات
يطلب به ليس ان يخنمه فقط بل ان يسمى بختمه من كل شيخ وعامي يقدر على التزين
له ليختر ختمه ويضعه به طعنا على آل شهاب ليبرهنوا للدول الاوربية ان الشعب غير
راض عن آل شهاب ليس ضمن الجبل بل بسوريا كلها :

« جناب افتخار الاماجد الكرام اخينا المكرم حمد البيك حفظه الله تعالى
« غب ابلاغ التحية والسؤال عن خاطركم بكل خير وعافية المبدي لخوانكم انه يحسب
الاعتماد على صداقتكم واستقامتكم الاكيدة والآن توجه اليكم من عربي كاتبي الخواجا
جبرائيل العورة فبوصوله ليديكم تعتمدوا مآله وتظهروا همتمكم المعهودة باتمام العمل
طبق تعريفه لكم وتهتموا بنجازه وارساله الينا مع الجواب لطرفنا بالجليل بحيث مراسلكم
يلحقنا اينما كنا ان كان في المتن او في زحلة او في بلاد جبيل وحسب عهدنا الوثيق
بصداقتكم باقرب وقت تتموا المصلحة طبق التعريف ودهتم »

كاتم الاسرار

الختم

علي بك

مصطفى

حدينة

باشا

وهذه صورة تحرير مرفوع من جبرائيل العورة الى الزعيم المذكور حمد البيك
« سني الهم سلطانم »

« غب تقديم الدعا بدوام بقاكم نعرفكم الان واصل طية فرخين ورق كبير على بياض
 وصورة عرض محضر الى حد الورق البياض فيه الكناية وعلامة محلات الاسماء والاختام
 فالقصد بذلك ان مجال وصوله تحرروا العرض محضر وتنهضوا الغيرة النامة بتخميمه من
 مشايخ المتأولة جميعهم ومن مشايخ القرايا الاسلام والنصارى في مقاطعة تبين وساحل
 معركة وهونين وساحل قانا ومرج عيون والشقيف وجباع . غير ان لا تدعوا احد
 من مشايخ العشائر وشيوخ القرايا اسلام ونصارى الا وتختموه منه وبالخصوص تجتهدوا
 على تكثير اسماء النصارى والذي ليس له ختم تدعوه بالحال على عمل ختم وتختموه منه
 » واتخذوا كل الفنون والنباهة المعهودة منكم لما به البولنكه (السياسة) والتنازل
 لكائن من كان بحيث لا يتخلوا احد من وضع اسمه وختمه وهذه تعدد لجنابكم عند دولتهما
 (مصطفى باشا وعلي بك) من اعظم الخدمات المقبولة وتحوزوا الرضى الوافر فوق ما
 تؤملونه وهذا وقت اكنساب الفرصة » (محل الختم)

وهذه صورة العرض حال الذي كان الاتراك يرغبون من القوم ختمه على الصورة
 الموضحة في ما تقدم :

« انه كما مشهور وصار مشاهد بالعيان ومحقق من وجود ادارة الدولة العلية في
 حكومة لبنان قد حصلت اهالي الجبل المذكور عموماً على غاية الامنية والراحة والرفاهية
 والعدل والانصاف بنوع انهم من حينما تخلصوا من ادارة الامير بشير الشهابي واولاده
 واقاربه خصوصاً الامير امين والامير بشير القاسم وابناء عمهم وانسابهم واعوانهم
 واتباعهم الذين املوا الجبل شروراً وجواراته نظير بلادنا وغيرنا من البلاد المجاورة لهم
 من التعديت والمظالم المتنوعة فقد خرجت الاهالي والسكان بوجود ادارة الدولة العلية
 من العتم الى النور ومن دهر الظلم والجور الى ساحة العدل والامان . فنظراً الى عدالة
 الدولة العلية وانصافها الذي عم العالم باسره فبتمتضي عدالتها وانصافها الرحمة بحق
 عبيدها ورعاياها بدوامهم في ادارة احكامها وعدم اعادة احكام الشهابيون بوجه
 الاطلاق . . . بل ولا واحد من اهالي الجبل لا اسلام ولا عيسويون عملاً بمرضاة
 الباري تعالى جل جلاله لرحمة عبيدها ودوام استخلاصهم لعتقهم من احكام الشهابين
 ومظالمهم المتنوعة واتباعاً للحديث الشريف كلهم زاعي ومستول عن رعيته

« وحيث انوجدنا نحن المجاورون للجبل ولنا الاطلاع التام على احواله واخذنا وعطانا
 مع الجبل وفي الجبل المذكور كثير فان ذات ادارة احكام الدولة العلية في جبل لبنان

يعمنا جميعاً من الامان والراحة . وان لا يسمع الله تعالى تغير ذلك بضده فنحصل على
الانعاب والمشقات لاجل ذلك بسطنا الآن عرض عبوديتنا هذه ونسألهم بها من
الاحسان الملوكانية والمراحم الشاهانية النظر لعبيد ورعايا الدولة العلية بعين المراحم
الاشفاق وابقاء احكام الدولة العلية في جبل لبنان وعدم النظر والالتفات الى الحركات
من المفسدين الذين يسعون بسلب الراحة وامنية عموم الاهالي والفقراء ويدبرون
عرضحالات التزوير بالتاس ارجاع احكام الشاهانيون لان ذلك موافق غاياتهم الرديئة
ومغاير انصاف عدالة الدولة العلية وحشاها ان تحمل دوام راحة رعاياها وعبيدها وتنظر
لتزوير ونفاق هؤلاء . . . والامر لمن له الامر ان يقدم

« انتهى بحرفه عن كتاب حسر اللثام عن نكبات الشام »

هذه هي العرضحالات التي كانت توارد على مركز الخلافة طعناً بالامراء الشاهيين
وبعضها اراه الصدر الاعظم الى الامير امين الذي قدم اليه ليستلم ما مورته واودى
به الى الموت كئيباً واعترافاً للاسلام وليس تهمة الدولة من ان رجال الدين كانوا
يسعوا بال شهاب

وهذه نقطة من بحر مما كان الاتراك يغرون القوم ويهددونهم على كتبه وختمه لهم
دون ان يعلموا مغزاه وبعقلوا مؤداه . وهنا نمسك القلم ونترك للقارىء ان يتصور
حالة ذلك الشعب النعيس الذي ابلاه ربه بحكم الاوغاد اهل الخداع والمكر
والدهاء والغدر وهكذا تعمل دولة الاتراك دائماً بسياسة الغدر هذه وقس على ما مر
بك ما اوقعته وتوقمه على رعاياها من يوم الى يوم تلك الدولة المنعوتة بالمعادلة بتلك
العرضحالات عفواً

وبما اشكل علينا به ورود اسماء الشعب مقسوما الى قسمين عبيد ورعايا ونظن
ان القارىء ادرك مثانا ما يريدون بالعبيد وما يعنون بالرعايا ونحن نظن ان العبيد هم
اولئك الذين كانت تلزمهم الدولة بحمل كيس الحاجة وتجعل ذلك عليهم قانوناً للعمل
وتكدهم على التسخير للمسلمين . . . والرعايا يراد بهم عامة الاسلام لانهم على دين الدولة
التركية وهكذا كانت تعتبر المسيحي عبداً وليس حراً . وكانت تحت الرعايا على معاملته
كذلك رغما عن كونه كان صاحب البلاد وحرّاً في بدء الاسلام ان اعلمنا الفكرة قليلاً
هان علينا تصديق ما سنورده من فظائع هذه الدولة مع اولئك العبيد الذين جاء اسمهم
مراراً وتكراراً منعوتين بالعبيد الذين يعرفون بالارقاء او الرقيق

وكانت حالة اولئك العبيد احط حتى من الرق ولا تفرق عن حالته الا ان الاخير
يباع ويشري ويلتزم مولاه بتقديم حاجيات الحياة ورعاية الجانب لانه متاعاً له ينظر
اليه كمال ينفعه في دنياه

اما الاولون (العبيد) او نصارى لبنان خصوصاً وسوريا عموماً فكانوا ارقاء لعامة
الرعابا (المسلمين) وعليهم شرعا الاسترقاق لهم بكل ما يطلب هؤلاء منهم بكل ما بكلمة
الاسترقاق من المعنى وعليهم ان يقوموا بقود انفسهم وعيالهم معامن شغل ايديهم وهكذا
كانت حياتهم المرة بظل ظليل اسياهم الاتراك الاحرار وزعم الاغبياء الذين خيم
الجهل والتعصب فوق عيونهم والمنازعات الشخصية على عقولهم ففضلوا الشخصيات على
العموميات توصلوا لما ربهم الدينية بدلاً من هز الحسام لقوم ظلمهم واذلهم واذاقهم
العذاب الوانا

وكانت هذه العرضجات نكتب وتختتم في اوائل سنة ١٨٤٢ عقب حوادث السنة
التي قبلها حيث كانت الدولة ترغب في تعيين وال تركي على لبنان كما فعلت وعينت عمر
باشا كما سيحي

الفصل الثاني والثلاثون والمائة

في مآثر الدولة المصرية بسوريا

ان اعمال الدولة المصرية في سوريا وما اثرها التي تذكر فتشكر عليها كثيرة منها
العدل والمساواة ورفع ظلم المشايخ عن الشعب واعطاء كل ذي حق حقه على احدث
طريقة جارية عليها الدول المتقدمة ورغماً عن احدائهم على الرعية ضرائب عديدة واثارة
هؤلاء عليهم فهم قد نفقوا السور بين نفعا عظيماً واشهر هذا النفع رفع يد الامراء والمشايخ
عن استرقاق الاهالي والتمتع بما لهم ومناعهم واستباحة عرضهم الى اخر ما هنالك من
المحرمات والمنكرات ولا يعاب عليها الا امر واحد وهو عظيم وكان داعياً الى سقوطها
في سوريا وازعاف قوتها بمصر وذلك عدم اشهار استقلالها عن الدولة التركية وارغامها على
الاعتراف به مع انه كان لها من اسهل الامور بعد ان اکتسحت البلاد واستولت على اكثر
اياتها وعدم تسميتها عزيز مصر وزيراً عاملاً باسم السلطان لانه كان يعترف له



جند محمد علي

بالسلطة المعنوية فقط تلك السلطة سهلت للدولة التركية استجارتها بالدول كما تقدم فلو
اشهر محمد علي باشا نفسه ملكاً مستقلاً وارسل من قبله السفراء لعواصم الدول الاجنبية
وعقد معها المعاهدات الدولية لاعترفت له بالملك بالرغم عن مقاومة دولة بني عثمان له
او لو طلب منها الاعتراف بملكه واستقلاله عن الدولة التركية عقب حادثة قونية لاجبرتها
على الاعتراف بسيادته لانه استحال عليها اخراج جنوده من سوريا او صد هجمات
ابراهيم باشا وتقدمه الى قلب عاصمتها

انما تهاونه قادها الى عدو دولته فرعاً منها والحق يؤول لها قطع ذلك الفرع اذا
اعتراه فساد باعتقادها وعلى هذا المبدأ تغلبت على استمالة الدول الى جانبها واجلت
دولة مصر عن سوريا ووضعت حداً لنموها واجبرتها على الاعتراف انها راع منها
وهذه السقطة وحدها كانت الباعث لسقوطها في سوريا ومصر معاً اذا أصبحت فرعاً
من دولة الاتراك مقيدة بادارتها تدفع لها مالا معلوماً ثمن استقلالها الداخلي ولا علاقة
لها بالدول الاجنبية الا بواسطتها وهذا ما جعل الدول الاوربية تنظر اليها بعين
الاستخفاف لا تعتبرها كدولة مستقلة ولهن الحق بذلك لانها لا تعلم عن استقلالها شيئاً
فلو تلافي محمد علي باشا هذا النقص لما كان من المستحيل ان نرى دولة عربية

تجاري الدول المتقدمة نموًا وارتقاءً وكنا رأينا على اريكة الخلافة العربية رجالاً من سلالته
فليعتبر القوم ويتعظ الخلف من اغلاط السلف ويعقوا ويعلموا ان تجاسد الدول
وحده وان يكن بجد ذاته عظيماً انما لم يكن وحده كافياً لسقوط الدولة المدربة بل
الباعث الوحيد عدم اشهار استقلالها عن الدولة التركية كما تقدم وبسطناه آتفاً — ولا
نعلم كيف تهيب محمد علي ونقاعه عن اشهار استقلال دولته وارغام الاتراك على
الاعتراف بها بيد انه لم يتهيب من تدويج البلاد وخضد شوكة السلطنة التركية عن يد
ولده الذي كاد يستولي على اكثر ولاياتها

وباليتنه انبه الى ضرورة الامر وسعي وراءه وباليتنه عمل ذلك واراخ بلاده وخلفاءه
من مداخلة الاتراك بشؤون دولته وقد قدر الله له رجالاً شجاعاً وقائداً حازقاً يضاهاى اعظم
قواد العالم شهرة وخبرة بفنون الحرب وذلك الرجل هو ابراهيم باشا الباسل صاحب الاقدام
والهمة العالية يذل له الصعاب ويحقق له امانيه

الفصل الثالث والثلاثون والمائة

في رجوع المشايخ المنفيين

كان من محمد علي بعد انسحاب سلطته عن سوريا انه سمح للمشايخ جنبلاط
وعماد ونكد الذين حكم عليهم بسكنى مصر بالرجوع الى وطنهم بعد ان انعم على بعضهم
بالالقب السامية وفي وصولهم حصل لهم ما قى زاهر ونزل احدهم ناصيف الذي تلقب
بالبيك في بيت مشاقة لان داره اندثرت اثارها بامر الحكومة اما الشيخ سعيد جنبلاط
الذي كان موظفاً بالجندية المصرية تمكن من الهجاء ووضع يده على املاك
آل جنبلاط قبل مبارحة ابراهيم باشا البلاد وصار يدفع عنها الخراج الى الدولة
كجاري العادة وشرعت الدولة بتحصيل الخراج من الاهالي كما كانوا يدفعون الى
الامير بشير فالدروز لم يعترضوا على مطالبتها انما النصارى اعترضوا وادغموا اعتراضهم
بالبراهين المعقولة واخذوا يعقدون الجلسات خصوصاً اهالي كسراون ومن جاورهم اكثر
من الشكوى وادعوا الفقر والعوز وقحل الارض واستشهدوا بفقراء لبنان المنتشرين بمدن

سوربا وقراباها وان ثلاثة ارباع الاراضي بلك المشايخ والامراء والاديرة وتسعون بالمائة من هذه الاملاك معفية من الخراج وبلغت الفحة والجهالة منهم الى تهديد الدولة بالعصيان . ومن قولهم الذي رفعوه الى خالد باشا ليقدمه الى الاستانة ان الجزية تؤخذ من القوم الذين يكفون الدولة حمايتهم وليس من الذين بقدرهم على حماية انفسهم الى غير ذلك من قوارص الكلام وقد نصح لهم خالد باشا بعدم تقديم شكواهم على هذا الاسلوب الخشن ولم ينتصحووا

وامتناع اللبنانيين عن دفع الجزية سوف يجلب عليهم نكبات كثيرة واغترارهم بمقدرتهم في مقاومة الدولة تدل على قصر باعهم في سبر غور الامور واصبحت الدولة بعد مجاهرتهم علناً بعزمهم على شق عصا الطاعة عليها لا تأمن جانبهم خصوصاً تصریحهم انهم ينتمون الى دولة اجنبية اذا لم تأخذ بيدهم على رفع الجزية عنهم التي عدوها ظلماً . وما جعل لهذه الحركة وقعاً سيئاً سوء تدبير الامير قاسم وعدم اهليته للمركز الذي يشغله وكان كثير الهزل سفيه الكلام مع مشايخ الدرور الذين تأبى طباغهم وآدابهم اسفاهة لا سيما وقد اعتادوا الرزانة وحرمة الجانب من الامير بشير فباتوا ينظرون اليهم شزراً ومرهم انقلاب الدولة عليهم . وقائل يقول ان الدولة اوغرت صدورهم على النصارى واتخذتهم آلة لتنفيذ سهمها في من خرقوا حرمتها واظهروا مقدرتهم عليها وهم غافلون عما تدبره لهم من الاحن والكروب والمذاج الاهلية والله اعلم بما تكنه الصدور

الفصل الرابع والثلاثون والمائة

في ايقاد نار الفتنة بين الدرور والنصارى

اقيمت سنة ١٨٤١ على اهالي الجبل والناس في قلقلة ونفور ورائد الطرف يحكم لنفسه ان حركة القوم غير عادية واذا توغل في الاستقصاء يتجلى له استفحال الامر وجسامته الخطب ويشاهد فريقاً على تأهب واستعداد كأنه مدفوع الى الكفاح وفريقاً لاهياً كأنه امن حوادث الزمان وكروب الايام وكانت الدولة قد نضجت مساعيها ونفنت في صدور الدرور روحها السامة فملاؤها وما عاد ينقصها عن الانفجار الا سبب الخفيف يساعدها على ذلك . ومن الصدق ان رجلاً ديرانياً من النصارى ذهب يوماً لصيد الطير الى ناحية بعقلين المأهولة بالدرور فنصدي له درزي دفعه عن غرضه فان عرض

عليه واشتد الجدل بينهما وادى الى خصام عنيف واخيراً الجأهما الخصام الى السلاح وكان ذلك في ١٤ ايلول سنة ١٨٤١ عقب خروج المصرين بقليل . فترا كضت اهالي بعقلين للدفاع عن ابن بلدتهم ودبر القمصر عن ابن مذهبهم ودار القتال بين الفريقين فقتل من اهالي دير القمر ثلاثة رجال ذلك مما دعى الى توسيع الحرق فركبت مشايخ آل نكد وقصدت محل الحادثة لفصل بين المتقاتلين ولكن لدى وصولهم رأوا غير ما كانوا يظنونهم شاهدوا عدداً كبيراً من قرية بعقلين تقابل بضعة من رجالهم وقد اتخوهم بالجراح وفتكوا ببعضهم عند ذلك هجموا عليهم وفرقوهم وارجعهم الى داخل القرية وشدوا الحصار عليهم واسفرت هذه الحادثة عن اثنين وثلاثين قتيلاً من الدرروز واربعة من النصارى . وبعد ان كانت اهالي بعقلين اصدقاء لسكان دير القمر اصحبت من اعدائهم وتحرك الدرروز للفنك بهم وحرصهم على ذلك مشايخهم آل جنبلاط وعماد وبنوا يتأهبون لاخذ الثار ورفع العار عنهم

الفصل الخامس والثلاثون والمائة

في ارسال الدولة سلاحاً الى الدرروز

انتشر الخبر عن حادثة بعقلين وبلغ الشام وكان الدكتور مشاققة يتردد على سليمان افندي امين وكالة الحج باشغال تتعلق بامراء آل شهاب فسأله سليمان عن الحادثة فاخبره مشاققة بما حدث بايجاز وقد خفي عليه ان والي الشام وولاية الامور مطاعون على حداقيرها وهم ساعون لتنفيذ غاية الدولة بالنصارى عن الدرروز . وبعد ايام تكاثر عدد الدرروز في الشام واستمر وفودهم اليها من اطراف لبنان . وصدق الدكتور مشاققة انه سمع سليمان افندي يكلم وجهياً درزياً في شؤون هامة وشاهد الشيخ قاسم القاضي قادماً من دير القمر فاقام بالشام اياماً وقفل راجعاً الى حيث اتى وقد اصحبه نجيب باشا والي الشام بكية كبيرة من الرصاص والبارود ليوزعها على رجاله الدرروز وكان مشاققة نظره مع بعض من حضر من الدرروز في بيت سليمان المار ذكره ومن هذه القرائن ادلة قاطعة على دسيسة الدولة وقيام رجالها في تميمها . وقد تاكد ان مشايخ آل نكد لا يسمعون لآخوانهم الدرروز ان يفتكوا بنصارى الدير لانهم متموت لهم وهم قوتهم وسبب بقاء وجاهتهم وان الشيخ قاسم القاضي نسيب للمشايخ وبالطبع يحافظ جهده على كرامتهم

وتعزبز قوتهم
 وكان بدمشق عدد كبير من مهاجري دير القمر يشتغلون فيها فجمعهم الدكتور
 مشافه وقص عليهم ما وقف عليه بطريق الصدفة وتداولوا باياهم في الشؤون الحاضرة
 وفض عقدهم على اعلان نصارى دير القمر وتحذيرهم من الدرروز واقترح عليهم ان
 يتلافوا الامر بالنبي هي احسن ولكن اذا كتب لقوم الشقاء ومنوا بما كم جاهل عبثاً
 تجاول الافراد منه رد مكروه واطفاء ثورة وخصوصاً اذا كان هو الدافع والمتخذ ضدها
 كما كان عمال الدولة بذلك العصر

الفصل السادس والثلاثون والمائة

في حادثة دير القمر الثانية

مرت الايام على حادثة بعقلين والدرروز في خلالها في حركة وذهاب واياب وعقد
 مجتمعات وتأهب بخلاف نصارى دير القمر الذين ناموا الى معاقل ال نكد وظنوا انفسهم
 في مأمن منيع من طوارق الحدثان وكانوا يذهبون من مكان الى آخر بدون تحذر
 ويشاهدون قدوم الدرروز وتكاثر عددهم من يوم الى آخر ولم يفتنوا الى مغبة غفلتهم
 واقبل درروز اقليم المناصف الى الدير ليلاً وباتوا عند اخوانهم بدون ان يشعر بقدمهم
 احد من النصارى او شعروا ولم يكثر ثوابهم لانهم كانوا على ثقة وهمية في اخلاص
 جيرانهم ومشايخهم آل نكد لهم . وبينما هم على ذلك واكثرهم متغيب عن البلدة في مدن
 سوربا ونواحيها غير عالمين بما تولده الليالي اذ هجم عليهم درروز المناصف فافاقوا من
 رقادهم على صوت البارود وفرقة السلاح

وعند ذلك تراكضوا الى سلاحهم والتحم القتال ودافعوا دفاع الابطال عن منازلهم
 وشرف بسالتهم ولكن عددهم كان قليلاً بالنسبة الى عدد الدرروز الذين ظهروا عليهم
 فجأة واحاطوا بالمدينة باقل من وقت يذكر فاشتد عليهم القتال وحصرهم الدرروز في بيوتهم
 ولكنهم قاتلوا قتال الاشداء وردوا عنهم غارات الدرروز المتواصلة
 والتجأ بعض سكان حارة الدرروز الى مشايخ آل نكد وطلبوا منهم الحماية ومراعاة
 حقوق الجار فلم ينالوا جواباً غير لقاء حتفهم من ايدي الذين كانوا يجارون عنهم غير ان
 الشيخ حموداً تقدم الى ابراهيم مشافه وقال له كن على ثقة لا يقترب احد الى بيتك ولا

يسك ضررًا من رجالنا

ولما علمت نساء الحبي بتأمين بيت مشافة اقبان اليه مستغيثات . وحدث ان ابراهيم مشافة نفقد ولده فلم يجده في البيت فخرج يفتش عنه وبعد خروجه بمدة قصيرة هجم على البيت سبعون من الدروز يتقدمهم احد اتباع الشيخ حمود وكان في البيت اندراوس مشافة ورجل آخر فدافعا عن الحريم جهدهما الى ان صرعا وعند ذلك لما لم يعد من يدافع عن الدخول الى البيت دخلاه واغتصبوا باب غرفة الحريم بخلاف عادتهم وغرضهم ليس الفحشاء بل النهب وعات الضوضاء وملاً صراخ النساء الفضا وكادوا يظفرون باربهم لانهم قتلوا خادم الغرفة وهو وراء الباب ولم يقبل ابراهيم مشافة ومعه اربعة بواسل وهزمهم بعد عراك طال مدة وقتل فيه واحد من الاربعة . وبعد ذلك نقل النساء الى سراي الامير حيث كانت الرجال تدافع عنهم بكثرة وبسالة ودامت الحرب قائمة سحابة ذلك النهار ونصاري الدير يزدادون نشاطاً على الفتك بالدروز وقد ابوا بهم بلائاً حسناً وردوا كيدهم في نحرهم مضى ذلك النهار ولم يقدر الدروز على امتلاك البلدة ولا اخراج اهلها منها الا انهم استولوا على قسم من الجانب القريب من مساكنهم بيوته متفرقة واغاب رجاله غائبون

وهجم الشيخ عباس بن ناصيف بك ابي نكد على محلة الكنائس لعلمه ان العادة في حدوث الفتنة ان يترك الاهالي باموالهم الى الكنائس ورام مع رجاله ان يغتصب بابها ولكن النصاري اصلوه ناراً حامية واصابوا منه مقتلاً فوق عن جواده قتيلاً وفرّ رجاله من امام النصاري الذين ظالوا يعملون بهم الى ان ارجعهم الى مراكرهم وفي ثاني الابرار هجم ثلاثمائة درزي على كنيسة مار الياس للروم الكاثوليك وتصدى لردم عنها ثمانية وافلحوا ومن هؤلاء روفائيل مشافة وتقولا جبور صوصة الذي قيل انه القاتل للشيخ عباس في حادثة الامس وسواهم من اهل المحلة فنقدم الثانية بقلب واحد واصلوا الفرقة الهاجمة ناراً اكلة حتى ارغمهم على النقهقر وخرجوا في اثرهم الى الجبانة وهناك اصاب تقولا جبور بطلق من الورا ومثله اصاب روفائيل مشافة وبعد وصول جبور الى بيته قضى نحبته والطاق عليهم كان في بيت بالقرب من الجبانة من دروز بعقلين عند ما شاهد انهزام فرقة كبيرة العدد من وجه بضعة من الرجال هزته الحمية فرمى تقولا جبور واصاب منه مقتلاً ولحق بروفائيل مشافة العطب ولكنه شفي من جراحه وهجم الشيخ قاسم القاضي برجاله على احدى الكنائس ولقي نخبه وذهب عدد كبير

من رجاله طعاماً لتأخر حمايتها البواسل
وكان شأن الدروز عند ما ينتهبون بيتاً ويستولون على موجوداته انهم يلقون به النار
فاحرقوا بيوتاً عديدة وكان اكثر النصارى نكبة بيت مشافة لما اشتهر عنه ان فيه
ملا طائلاً وموجودات ثمينة فتردد اليه الدروز وسلبوا ما وصلت اليه ايديهم ولما
ايقنوا بخلوه من المتاع احرقوه
وكان من قواد الدروز انهم قبل الهجوم اوقفوا رجالاً على الطرقات ليقطعوا المواصلات
بين اهالي الدير وبين من تدفعه الحمية الى نجدتهم وقد افلحوا بذلك لان نصارى
الباروك اقبلوا الى نجدة اخوانهم وعند ما وصلوا الى بيت الدين وشاهدوا حامية الدروز
محيطة بالمدينة رجعوا على اعقابهم بالرغم عن تجرؤهم فاندبهم الشجاع ابراهيم صقر لهم
وحشهم على الهجوم ولما لم ير منهم اقداماً تركهم وشأنهم وتقدم الى الامام ومعه اولاد
عمه فاخترق صفوف الرجال وكانت الدروز تطاق عليه النار من الخارج واهالي الدير
من الداخل ظناً منهم انه خصمهم . وظل هاجماً واحداث ضجة عظيمة ولم يثنه عن
التقدم مالا فاه من العقبات ولما اقترب من الديرانيين رفع لهم علامة عرفوه منها فحولوا
رصاصهم عنه وصوبوه على خصمهم وتم له ودخل المدينة مع اولاد عمه وكلهم سالمون
وقبل وصوله كان الشيخ حمود قد استولى على حارة الصيادنة وتركها ملعباً للنار وتقدم
منها الى بيت بطرس الجاويش . وكان داخل البيت ثمانية عشر مقاتلاً فاقام على حصاره
وتكاثرت الدروز حوالي البيت وبلغ عددهم خمسمائة محارب وشددوا عليه الحصار فدفنهم
الجاويش برجاله وبينما هو في اشد الضيق يلاقي هجمات الدروز ببسالة غريبة وصل اليه
ابراهيم صقر واولاد عمه لنجدته ودخلوا عليه من الباب الخلفي وبرزوا مع المدافعين
واستأنفوا القتال واخيراً امشق سيفه وخرج اليهم وتبعه اولاد عمه واقتدى به بقية
الرجال واعملوا سيوفهم برقاب الدروز حتى ابعدهم عن الحارة
واقبل ثالث الايام والحرب سجالاً اما حارة الخندق شرقي البلدة فلم يتمكن
الدروز من الوصول اليها لتلاصق بيوتها وبعدها عن حارة الدروز
وفي اليوم الرابع من الحادثة وصل الى الدير السيد عبد الفتاح الاسكندردي من
قبل والي صيدا ففرض جماهير الدروز وعاد يصحبه الامير وكثير من رجاله من
نصارى الدير
وانجحت الحادثة عن مائة وتسعة قتلى من النصارى وعدد كبير من الدروز

بالرغم عن تكتهمم وثلاثة عشر من المشايخ وما دفن النصارى قتيلاً منهم الا ولقوا
بالجبانة عدداً جديداً من قتلى الدروز ولا عجب من كثرة قتلى الدروز لانهم كانوا
مهاجمين والنصارى مدافعين والتعرض الذي يلاقيه المهاجم غير ما يلاقيه المدافع وبلغ
عدد قتلى الدروز ما ينيف عن خمس مائة رجل

ولما ظهر للنصارى غدر مشايخ الدروز بهم في هذه الحادثة نفروا منهم نفوراً تاماً
وطلبوا من الوزير حاكماً عليهم من قبله ورفع سلطة المشايخ عنهم فاجابهم الى ذلك لان
هذا ما كان يرغب فيه ولولاه لما كان الاتراك يحنمون العرضحالات ظعننا على امراء
الجبيل ويحضون اهله على الفتن

الفصل السابع والثلاثون والمائة

في حادثة زحلة

وبعد مضي شهر كامل على حادثة دير القمر اجتمع الدروز ثانية وتأهبوا
للاجهاز على نصارى زحلة فانضم اليهم شبلي اغا العريان بفرسانه الذين تحت قيادته
للمحافظة على ارواح واموال الرعية وتقدموا بعد ان اكتملت معداتهم الى مدينة
زحلة واشهروا قتالاً شديداً ولكن اهالي زحلة كانوا على استعداد مثلهم فردوهم وفتكوا
بهم فنكأ زريعاً واصيب شبلي برمية كادت تذهب بروحه فرجعت الدروز عن زحله
بالفشل وبعد الحادثة شرعت اهالي المدينة في اقامة المتاريس والحصون واعداد
معدات الدفاع ولكن الدولة امرت بهدم ما بنوه مدعية ان ذلك حطة في شأنها
وكان عدد المهاجمين على زحلة من الاتراك خمس مائة رجل نجدة للدولة فتأمل

الفصل الثامن والثلاثون والمائة

في حادثة جزين

رات الدولة ايد الله شوكتها بعد الحوادث المار ذكرها ان تزيد عنايتها في الشهر

على راحة الاهالي فارسلت مصطفى بك بفرقة كبيرة من جنودها المنظمة يجعل في البلاد
الراحة ويلقي بين الاهالي سلاما وفي وصوله ظهر ميله الى تحقيق امان الدولة فيه فصار
يامر وينهي ويعدم من النصارى كل من عرف له مكانة وكأنت الدرروز طمعوا
برضى الدولة منهم فاشهر جماعة منهم من سكان الشوف الحيطي العدا على نصارى
اقليم جزين وهجموا عليهم وقد احسن النصارى الدفاع عن كرامتهم وتغلبوا على
خصمهم بقيادة بطلم الشجاع ابي سمرا غانم من بكاسين وردوهم على اعقابهم والحقوا
بهم رصاصهم حتى ادخلوهم بيوتهم في عماطور وكان ابو سمرا ينوي اللحاق بهم الى النهاية
ولكن محل عزمه وصول فرقة من الجند المنظم الذي كان مقيماً بالمختارة فرجع برجاله ولم يشاء
مقاومة الجند انما قائد الفرقة التي القبض على اربعين رجلاً من اهالي جزين وارسلهم
الى بيروت عند الوزير لتجري محاكمتهم وبعد مدة من وصولهم اطلق سراحهم لانهم
لم يشوروا الا بامر الدولة وتجرىض عمالها بسوريا والي صيدا ووالي الشام بامر من صهر
السلطان الذي قدم من الاستانة بهذه المهمة لنذبح العبيد المارقين بزعمه كما امر بك

الفصل التاسع والثلاثون وللمائة

في تعيين عمر باشا حكامداراً على لبنان



عمر باشا

ارسلت الدولة الى لبنان عمر باشا وهو نمساوي الاصل اعتنق الاسلام وثقل بوظائف الدولة وكان نزيهاً شجاعاً وعقب وصوله الى الجبل سكنت الاحوال وراقت سماء لبنان بالرغم عن الاعاصير والزوايع التي كانت تتهدده والتي القبض على اهل الزعامة من الدرور وارسلهم بالقيود الى الوالي ليؤم الناس ان الدولة بريئة من الحوادث لاناقة لها فيها ولا جمل ولكن يدحض هذا الزعم عدم صدور حكمها على واحد من المذنبين وعلى اثر ارسال اهل العصابة من الدرور الى بيروت اجتمعوا اتباعهم وهجموا على عمر باشا وهو في سراي بيت الدين وقطعوا الماء عنه فخرج اليهم وتهدهم بالعقاب الصارم فرجعوا عنه الى الشوف الحيطي وحضر اليهم شبلي العريان بجنده المنظم وتقدموا الى السمسقانية وهم في الطريق التقوا بفرقة من عسكر الارناؤط قادمة الى عمر باشا ليرسلها الى تاديبهم ولما ادركوا غرض قدوم هؤلاء الى بيت الدين اصلوهم ناراً فارتدت عليهم العساكر بالقرب من ضفة نهر الحمام وهزمتهم وظلت متقدمة الي ان وصلت الى عمر باشا الذي قام لساعته ولحق بهم وهم نازلون في السمسقانية وهناك اشتبك القتال بينهم وكان مع الدرور شبلي العريان وباقل من ساعة هزمهم عمر باشا وولوا الادبار وكان نزاهة عمر وعدالته لم تطابق ما رب الدولة فمزلنه عن لبنان وقسمت الجبل الى قسمين شمالاً وجنوباً والحد الفاصل بينهما طريق الشام وعينت على القسم الشمالي الماهول بانف درزي فقط حاكماً مسيحياً وعلى القسم الجنوبي الذي خمسة وسبعون بالمائة من سكانه نصارى والباقي دروز حاكماً درزياً وابتقت مدينة دير القمر مستثناة حسب طلب اهاليها فظل حاكماً ياتمر بامر والي الولاية

الفصل الاربعون والمائة

في حادثة حاصبيا

في سنة ١٨٤٥ أرسل والي الشام محمد باشا قبر صلي اعلاما الى دروز حاصبيا وحضهم على قتال النصارى ومدهم بالسلاح والذخيرة واوز الى دروز حوران ان يقدموا على مساعدتهم ومثل ذلك سال مسامي البفاع ان يعضدوهم على نصارى حاصبيا وفي اوائل الحركة وقبل نضوجها قر رأي النصارى في تلك المدينة على تركها

والقدوم الى زحلة هرباً من القتال وحباً بالسلام فقاموا عنها مثقلين بالاحمال وقام معهم الامير بشير شقيق الامير سعد الدين وفي وضولهم الى راشيا خرج عليهم الدروز وباشروهم القتال وكان قتال المسيحيين دفاعاً لان عيالهم واولادهم وموجوداتهم من الامتعة ارغمتهم على اتخاذ جانب الدفاع فدافعوا طاقتهم والامير اجهد نفسه بالدفاع ولم يفلحوا وانقضَّ عليهم الدروز انقضاض الباشق على ظير صغير او الاسد على فريسته وسلبوهم وفتكوا بمعظمهم ومنهم من ولي الادبار والتجأ بمسلي البقاع فكان نصيبهم نصيب من تركوهم وراءهم القتل والعذاب المؤلم ومنهم من فضل الرجوع الى حاصبيا فاستقبلهم الدروز فيها والحقوهم بقتلاهم وفربق ظل مع الامير وجدوا المسير الى زحلة فوصلوها سالمين وبعد ايام ارسلت حكومة الشام تطلب الامير بشيراً فتقدم اليها وعينته حاكماً على حاصبيا لكنها لم تسمح له بمعاينة المعتدين وزعماء الفتنة وهذه المعاملة بعدم معاينة المذنبين من دروز لبنان برهنت على ان للدولة يداً في هذه الحوادث

الفصل الحادي والاربعون والمائة

في ثورة دروز حوران

في سنة ١٨٥١ امتنعت دروز حوران عن دفع الخراج لوالي الشام كالعادة فقام محمد باشا بفرقة من الجنود لاختصاصهم واجبارهم على تقديم المفروض عليهم ولكنه رجع بالفشل والخيبة بعد معركة طالت بضع ساعات ولولا القليل كانوا فتكوا به واستولى الدروز على الذخيرة والمدافع ورجع الباشا الى الشام وجنوده افراداً اوازواجاً وبعد مدة توسط المستر وود فارجعوا الى الحكومة مسلوبات عساكرها

الفصل الثاني والاربعون والمائة

في مقاصد الدولة والدول

لما كان غرضنا بيان اصل جرثومة المذابح وما فعلته الدولة من ايقاد نيران الفتنة وايغار صدور رعاياها من دروز ومسلمين على النصارى المستظلمين بظلمها - اضطررنا

ان نرجع بالفارى الى المعاهدة المتفق عليها بين الدولة التركية والدولة الافرنسية لما لها من العلاقة المهمة في موضوعنا الآن بعد ان تبوأ نابليون الثالث عرش فرنسا بحث في المعاهدات الدولية القديمة فوجد المعاهدة التي تخول لدولة فرنسا الحق بحماية مسيحي الشرق التابعين للكنيسة رومية ومصادق عليها من سلاطين الاتراك القديما فطلب من الدولة التركية تجديدها مع تجديد حماية وارثة لبنان واعترفت له الدولة بذلك الحق اعترافاً مبهماً وجددت له المعاهدة والحماية. وفي سنة ١٨٥٤ علم بهذه المعاهدة قيصر الروس بولس الثاني فرام الغاءها لانه كان يريد الحط من منزلة نابليون الثالث لاسباب لا نسترسل بذكرها واخذ يسعى لدى الدولة بالغاء تلك المعاهدة ولم يفلح

ولما لم ينجح في اسقاط حقوق فرنسا في الشرق عموماً وسور ياخذ وصحاً طلب منها ان تحوله حق حماية نصارى الشرق من الروم الارثوذكس فلم تجبه على طلبه مع ان قيصر الروس كان على جانب عظيم من الابهة وعلو الشأن وكان يرى تضعف الدولة التركية وضعفها وقرب زوالها وراى ان دول اوربامشغلة عنه بنفسها وراى ما كان عليه من قوة الجيش واشتغال الدول بمهام شوونها وضعف دولة بني عثمان ان الوقت لا كتماسحها قد آن وميعاد ضمها الى مملكته وتنفيذ وصية بطرس الكبير سلفه اقترب . وحتى يجعل له سبيلاً لمقاتلتها اخذ بكرر طلبه منها حقوقه حماية روم الشرق اقتداء بدولة فرنسا ومن طبع الدولة التركية المماثلة . فاخذت تماطله وهو يتأهب ويعيد طلبه حتى اكتملت معدات الحرب من تاهيب الجنود وتحضير السفن الحربية وكانت دولة الانكليز وفرنسا تفضلان الاتراك على الروس وتعدان الدولة التركية بمساعدتها لانهما انتهتا الى الخطر المحقق بدول اوربا اذا اسنوت دولة الروس على الاستانة لذلك صممتا على قتال روسيا لا دفاعاً عن الاتراك بل حفظاً لاوربا من خطر روسيا عليها

وفيما كان قيصر الروس يطالب بحقوقه في حماية بني مذهبه في الشرق والدولة تماطله على جاري العادة هجم الاسطول الروسي في بحر الاسود على الاسطول التركي وحطمه وكان ذلك كافياً لاشهار الحرب بين الدولتين وعند ذلك زحفت الجيوش الروسية وتقدمت الى الاستانة وكان لها من النصر ما ذكره التاريخ ولا حاجة الى اعادته انما نذكر ان الدول ادركت دنو الخطر لانها ايقنت ان روسيا الظاهرة — فاشتركت كلها على مقاتلتها وطالت تلك الحرب ثلاث سنوات كان النصر فيها حليف الروس من البداية الى النهاية غير ان مداخلة الدول اضطرت روسيا الى ارجاع ما امتلكته واعادت دولة بني عثمان

الى الوجود بعد ان كاد يقضي عليها ودفعت دولة الانكليز اكلاف الحرب وحصلت
الدولة الروسية على مطالبها وامتيازات فوقها مثل اجبارها الدولة التركية على مساواة
حقوق النصارى بالمسلمين بعد ان كانت الدولة التركية تدعوهم عبداً آقبلت هذه الشروط
ولكنها لم تبرزها الى الوجود بل كانت تؤجل العمل بها والدول تلح عليها في انجازها
وكثرت تشكيات فواصلها من سوء تصرف الاتراك مع النصارى خصوصاً بسوريا
وعند ذلك رأت الدولة الافضل لها ان تقرض هذه الفئة من رعاياها وترىح نفسها
من مضايقة الدول لها لاجلهم . وعلى هذا الراي انثدت من رجالها الصادقين صادق
افندي وارسلته الى سوريا لزرع جراثيم الفتنة واثارة الدروز والاسلام على النصارى
وقرضهم ولم تتجاهر على اظهار غايتها او العمل بها راساً خوفاً من قيام الدول عليها بل
عملت عمل نيلاطس البنطي حيث غسل يديه من دم المسيح بعد ان امر بقتله

الفصل الثالث والاربعون والمائة

في وصول صادق افندي الى الشام

قدم صادق افندي الى الشام في اواخر سنة ١٨٥٩ مرسلًا من قبل الدولة لزرع
بذور الشقاق بين الاهالي وكان مشهوراً في عالم السياسة وله فيها القدر المعلي فربيروت
ثم حضر الى الشام وعين احمد باشا المشير الشاهاني واليا على ولاية الشام وشرع في انجاز
مهمته وكان كثير الاجتماع بمشائخ الدروز والمسلمين المتعصبين وكانت المشايخ تحصل
على وعود باهظة اهمها انهم لا يقاصون على فتكهم بالنصارى وان اتوا ما عهد اليهم من
التنكيل وقرض الكثرة بنالون المراتب العالية وغير ذلك من المواعيد . ولم تنطل هذه
الحركة على العاقل المتبصر فبات من لحظ هذه الشرارة يتربق تأثيرها بقلب واجف وقد
تبين ان جل مهمته محصورة في هذه الفئة التي تزوره ويكثر من الاجتماع بها دون
سواها من بقية الاهالي وحيث قام عن سوريا في قضائها وقبل ان يعود الى الاسنانه
وردت اليه تعليمات من الدولة تشير عليه ان يوصي الوالي بحفظ المبادي التي زرعها ومساعدة
البذور على النمو وبعد تركه الشام انقلبت سياسة الوالي مع النصارى بطناً لهم وذلك
بما يؤكده انه تآقت اوامر جديدة من صادق افندي لم يكن يعلم بها من قبل ولا خطر له

العمل بموجبها قط

وبعد قيام صادق افندي من سوريا حدث في جوها بروق ورعود اكد ظهورها انها طلائع حرب هائلة ومجازر ليس بعدها مجازر وبدأت غيوم العداة تتجمع في لبنان الشرقي وتمتد منه الى الغربي حتى خيمت فوق حاصبيا ومقاطعة وادي التيم وامتدت منها للبنان الغربي حتى عمت مقاطعة المتن الغربية من بيروت وخيمت فوق قرية بيت مري وغيرها

فقام الدرروز بتجريض الدولة على يد صادق افندي واستعدوا للحرب واكثروا من التعدي على امراء شهاب حكام راشيا وحاصبيا منذ القديم وقتلوا عدداً من اتباعهم ونهبوا املاكهم وغير ذلك من التحرش ولا نعيد التنبية لمخيلة القاريء ان الدولة دفعت الدرروز لذلك وكان تعديهم هذا افتتاحاً للفتنة ليحملوا المسيحيين على دفعهم وردة القوة بالقوة لان الحكومة لم تكن تنصفهم ولا تقنص لهم من مضطهدتهم

فقتل رعاة الدرروز بضعة عشر رجلاً في اقل من شهرين فاكثر المسيحيون المشكي للحكومة ولا حياة لمن تنادي وكان خورشيد باشا والي ابالة صيدا يدفع الدرروز بامر الدولة ويحثهم على الفتك بالنصارى ويمدهم بمعدات الحرب من ثكنات الجند وبينما الامور على ذلك والناس واجسة خائفة هجمت سرازم الدرروز على قرية بيت مري في ٣٠ آب سنة ١٨٥٩ واشهروا على اهلها الحرب وبيت مري قرية بالقرب من بيروت تبعد عنها مسافة ستة اميال فقط ولو صاح الرجل منها خورشيد باشا الوالي لسمعته ومع ذلك لم يسمع حتى فرقة البنادق وصليل السيوف وكان جمهور من الدرروز يسكن بيت مري مع اهلها النصارى

فاتخذ الدرروز مع ابناؤ دينهم المهاجمين على جيرانهم المسيحيين واشتد سعير الحرب فدفعهم النصارى واحسنوا الدفاع وبعد ساعات قليلة اجلوا الدرروز عن القرية وهزموهم شرهزيمة فولى الدرروز منهزمين بعد ان تركوا في ساحة الحرب عدداً كبيراً من القتلى رغمًا عن كثرة عددهم وقلة عدد مدافعهم واتسع الخرق وتقدم يوسف عبدالمالك احد مشايخ الدرروز برجاله فسلب واحرق ثلاث قرى مسيحية وقتل بعض رجالها

ولما وصل الامر لهذا الحد نهض خورشيد باشا من بيروت بفرقة من الجند وكانت معدات المذمجة لم يتم بعد فغمز الدرروز لاسكينة ريثانم المعدات وبأ تي لنصرتهم اخوانهم من

حوران ووادي التيم وغيرها من الاصقاع الآهلة بالدروز فأخذ الدروز للسكينة وموعدهم
فصل الربيع المقبل من سنة الاهوال

الفصل الرابع والاربعون والمائة

في سنة الاهوال والاستعداد

وبعد حادثة بيت مري الاولى تجرك المسلمون في مدن وقرى سوريا يريدون
الفتك بالنصارى على جاري عاداتهم لانه كان يعز عليهم ان يروا قوما كانوا
بالامس بدعوتهم عبيداً ويسترقونهم واليوم اصبحوا احراراً نظيرهم لهم ما لهم وعليهم ما عليهم
بفضل حرب القرين واكره الروس الانراك على اعتناق النصراني واعتباره حرّاً كالمسلم
امام الشريعة . وكان ذلك يا باه المسلمون ويزرقبون فرصة ليقعوا بهم لانه عز عليهم
ان يروا العبد حرّاً

فنقاطر اشياخ الدروز الى بيروت وقضوا فصل الشتاء بها ضيوفاً على خورشيد باشا
وهو يولي عليهم كيفية قضاء المهمة وذبح القطيع او العبيد كما كان يعرف الانراك لقب
النصارى

وفي اول فصل الربيع من سنة ١٨٦٠ هب مشايخ الدروز الى اوطانهم وبدأوا
باعداد معداتهم وحشدوا عصائبهم وبدت وفود الدروز من وادي التيم وحوران وغيرها
تفد على المختارة مركز آل جنبلاط مشايخ الطبقة الاولى من الدروز
وفي شهر نيسان من تلك السنة ورد أمر الى خورشيد باشا من السلطان باعدام
المسيحيين ويأمره باطلاق ايدي الاوباش وذبح النصارى عن آخرهم . وللحال اشتهر
الامر في بيروت وعلم القوم واشتد خوفهم وايقنوا بدنو الاجل
وللحال ارسل خورشيد باشا بالامر الى سعيد بك جنبلاط واعلمه بفرمان السلطان
المرسل للدروز والمسلمين يأمرهم بالفتك بالمسيحيين وقطاع ديارهم والح عليه ان يصدع
بالامر ويباشر المذابح

وما بلغ جنبلاط بك الامر حتى بث رجاله لايصاله لمشايخ الدروز الآخرين وامرهم
بالمهجوم على النصارى فنقدمت شزيمة من الدروز وقتلت بضعة عشر شخصاً من النصارى
في الطرقات ثم لدير عميق وقتلوا رئيسه وهو على فراشه وبضعة من خدام الدير ونهبوه .

ثم حدث لهم مناوشة بقلب دير القمر فقتل منهم جماعة وعادوا مخذولين
 اما سعيد بك جنبلاط لما كان عالماً بالامر السلطاني العالي باعدام المسيحيين عن
 اخراهم قدم الى بيت الدين وطلب مقابلة مطران الكاثوليك وجبرائيل مشافه واخيه زوفائيل
 وبضعة غيرهم من اصدقائه واخذهم معه الى المخارة
 انما زوفائيل مشافه اب راجعاً الي دير القمر على نية ان يرحل عنها الى بيروت
 لعبد ولده خليل الذي كان ترجمانا مقيماً لقنصل الانكليز بها — ولكن طاهر باشا الذي
 كان مقيماً في الدير ومعه فرقة من الجند الشاهاني للمحافظة (كما تدعي الدولة) صدّه
 عن الخروج من المدينة كما منع سواه من الذين طلبوا المهجرة من تلك البلدة التعيسة التي
 اصبحت نقطة لمذبحه هائلة

وكانت مشايخ الدرور تجتمع بطاهر باشا وتلقى الاوامر الشاهانية منه فكتب زوفائيل
 مشافه لشقيقه ابراهيم في بيروت بما وقع له مع طاهر باشا وهذا اطلع القنصل على الخبر
 وفي الحال ارسل القنصل الى بشير بك ابي زكند وطلب منه مساعدة زوفائيل
 على الخروج من دير القمر ووصوله الى بيروت وبعد مماطلة وتكرير طلب تمكن زوفائيل
 من البلوغ الى بيروت بعياله

وكتب القنصل يومي سعيد بك جنبلاط بجبرائيل مشافه . وكان يقال عن البيك
 المشار اليه انه نزيه ولا حاجة الى توصيته ولو امكنه منع القلاقل على الاطلاق
 لكان ضحي كل ثمين على منعهما ولكن اذا كانت الدولة تبغي احداث الفتنه والفنك برعاياها
 ماذا تفيد استقامة الفرد . وكثيرون مثل سعيد بك يودون الوثق والوثام عن
 المثاكلة والخصام

الفصل الخامس والاربعون والمائة

مجزرة دير القمر وجزين في اول حزيران الى ٢١ منه

كان من طاهر باشا انه ارغم نصارى دير القمر على تسليم سلاحهم له وبعثا حاروا والخصاص
 من اوامره لان عساكر الدولة كانت منتشرة في المدينة تنزع السلاح منهم وجماهم
 الدرور رابضة على الطرقات تمنع عليهم الخروج منها لذلك لم يقدر الديرانيون على

رفض اوامر طاهر باشا فجمعوا سلاحهم وسلموه اياه غير ان المطران ومن كان معه من
النصارى في بيت سعيد بك جن بلاط تمكنوا من القيام عن تلك البقعة الى صيدا . وبعد
ان فرغ طاهر باشا من جمع السلاح سمح للدروز بالمحجوم على المدينة فدخلوها واعملوا
سيوفهم في رقاب الاهالي وكانوا يذبحونهم ذبح العاج وطلبت النصارى الالتجاء الى
السراي فصد هم الجنود وساعد الدروز على التكييل بهم بدون شفقة ولا رحمة ولو انهم استجاروا
بعدوهم الدرزي ربما وجدوا بقلبه نوعاً من الرحمة والحنان ولكن الاتراك ابت نفوسهم
ان يكون لها هذا الحنان

فسات دماء الابرار انهرت في شوارع المدينة ودامت الحال ثلاثة ايام متوالية لم
ينج من النصارى الا عدد قليل . ومن كان له صديق من الدروز مخلص دافع عنه او
سعى بنجاته . وفي نهاية المجزرة نهب الجزارون البيوت ولم يتركوا فيها غير الذي شاؤوا
ان يكون مطعماً للنار فاحرقوا مساكن النصارى ولم يتركوا منها مسكناً واصبحت تلك
الحلة بما كان فيها من السكان قاعاً صفيصفاً تنعق في فضاها اليوم والغربان . كل ذلك
حدث ووالي صيدا مقيم بعساكره في الحزيمة لم يظهر اكثر اثاراً كأنه قدم من عالم آخر لا
علاقة له بعالم الديار وحوادثه مع انه علم بما جرياته الاولية وربما كان عالماً به من
قبل وله ضلع يجمع السلاح الى آخر ما هنالك من التحضير والتأهب بامر

الان قناصل الدول تقدموا اليه وشدوا عليه بالقدوم الى الديار والذب عن النصارى
وكان بإمكانه قطع المسافة بضع ساعات لو شاء المدافعة عن غنم المسيح لكنه جعل
مسيره بكل بطء فلم يبلغ محل المجزرة الا بثلاثة ايام كأنه اراد ان يفسح للدروز
مجالاً للفتك وفي وصوله وجد بيت الجاويش لم يزل قائماً والدروز يقيمون على حصاره
والقارى ينتظر منه المدافعة عن البيت وسكانه وارجاع الدروز عنه . فهو لم يفعل من
ذلك شيئاً بل ظل واقفاً يشاهد بطش الدروز بما كان في داخله من النفوس حتى اذا
ابادوها القوا في جوانبه النار وعاد شملة فرماداً

ولم يصدر امره بالامان حتى اكدم برأى عينه ان جميع الاهالي مفروشة
على الخيض جنباً هامدة عند ذلك لعل المادي بصوته بالامان ولم يبق حياً حتى
يسمع مناداته سوى النساء المولولات على فقد رجالهن واولادهن واصبحن نائبات لا
ثياب تجمال حرمتهن ولا قوت بسد جوعهن . نهن بالبراري وطفن على المدن والقري
المجاورة ناديات نائحات من اصابهن من الويل والعسف والجور ودرن على البيوت

ممسولات بحالة تدمي الفواد
ولم يكف الدرروز عن الحرب حتى اكثروا منهم غدروا بكل حي ونهبوا كل متاع
ذات قيمة

اما الجنود التركية فارثكت المنكر كعادتها واستباححت المحرمات وهتك العرض ومن
شب على خلق مات عليه وبلغ عدد قتلى مذبحه الدير ما يقارب النفي نفس من رجال
بالغين ونساء واطفال رضع

وقام الدرروز من دير القمر ومن بوابة بيروت وما في طريقهم الى الشام كانوا
يفتكون بمن تصدى لهم من الاحياء او عثروا عليه من المتاع

والتقوا بالامير بشير القاسم في طريقه الى منزله وقتلوه ولدى وصولهم الى جزين
اعملوا سيوفهم بالاهالي ونهبوا ما وصلت اليه يدهم وازاحوهم عن وطنهم وحدث انه قدر
لواحد من النصاري النجاة والفرار الى قرية جباغ في بلاد الشقيف ونزل على الشيخ
عبد الله ضفمة فاغاثه وكان لهذا الشيخ منزلة رفيعة عند الشيعيين لتضامه بالعلوم
ولحسن سيرته وسريته الا ان درزيا تابع اثر المستغيث حتى وصل الى باب الشيخ
وعند ذلك قامت قيامة المتاوله عليه وعلى رفاقه ونهبوا نهضة واحدة لمقاومة الدرروز اذا لم
يراعوا حرمة شيخهم الجليل . وكان من الوزير لما علم بما وصلت اليه حالة المتاوله والدرروز
انه اسرع اليهم ووصل الى الشقيف في ثاني الايام مع ان المسافة عن بيروت اضعاف
المسافة من بيروت الى دير القمر ولو سار على معدل مسيره ذلك لما كان وصل الى بلاد
الشقيف باقل من اسبوع فتأمل كيف ان الانسان آفة غايته . وفي وصوله منع المتاوله
من الهجوم على الدرروز واصلح بينهم

الفصل السادس والاربعون والمائة

في مذبحه حاصبيا

من يوم الجمعة ٢٤ ايار الى اول حزيران سنة ١٨٦٠ في خلال هذه الحوادث
استعفى الامير سعد الدين من حكومة حاصبيا وعين والي الشام ولده الامير احمد خلفاً له
وكان احمد باشا والي الشام يظهر للامير سعد الدين كل تودد واعتبار ويخاطبه كما كان
يخاطب والده

فارسل اليه امرأ يستحثه للحضور الى حاصبيا وجمع نواقي الخراج من الدرروز وارسل فرقة من العساكر لشد ازره ولما علم الدكتور مشاققة بعزم الامير على القيام اجابة لطلب الوالي منه اشار عليه بعدم الذهاب واعفاء نفسه من هذه الورطة لانه رأى من طالع الحال الخطر عليه من ثورة الدرروز ولا يبعد ان يفتكوا به فاعتذر الامير اولاً وثانياً عن عدم امكانه للذهاب ولكن الوالي اصر على كلامه وكرر طلبه فقام الامير بالجنود من الشام الى حاصبيا ونزل في مركزه

وبعد وصوله طلب من الدرروز البواقي للحكومة وكان هذا الطالب كافياً لاثارتهم عليه فتألب درروز راشيا واقليم البلان مع درروز حاصبيا ومجدل شمس من شعراء الحولة المشهورين بالشدة والاقدام ونزلوا بالقرب من حاصبيا بقرية شوبا وعنيقة . ولما اكتمل عددهم هجموا على البلدة ولم يلاقوا مقاومة عنيفة من النصارى لفلة عددهم غير ان عدد قتلى الطرفين كانت متساوية مع وجود هذا التفاوت . وبعد ساعات تراجع النصارى وتحصنوا في بيوتهم ولحقهم الدرروز وفتكوا بهم واحرقوا مساكنهم فامر الامير قائد الجنود بالمجوم على العصاة بعساكرهم وردم عن بيوت الاهالي فتردد بالمجاوبة على طلب الامير واخيراً نظاهر بالمجوم ولكنه لم يطاق ولا ابر الجنود باصابة الرماية وكان معه مدفع ادعى تعطيله بعد طاق واحد في الفضاء . والآنكى من ذلك انه لما رأى الدرروز لا يتجاسرون على الدنو من السراي خوفاً من حمايتها المعززة بالسلاح عمل على ازالة هذا الحاجز فطلب من الحماية سلاحها وتعهد بارجاع الدرروز عن المدينة فلم يسع اولئك الابطال الا الامثال خوفاً من انهم اذا رفضوا طلبه يتخذ بعساكره مع الدرروز عليهم وبعد ان جمع سلاحهم نظاهر بارساله الى الشام والحقيقة انه صار تسليمه الى الدرروز ولما لم يبق ريب عند النصارى في اتحاد الجنود مع الدرروز عليهم طلبوا الفرار ارج عيون وهي على مسافة اربعة اميال عنهم ولكن حال دون خروجهم من السراي العساكر الشاهانية

وكان قناصل الدول يلحون على الوالي كي يرسل الجنود ويفرج عن الاهالي من ضغط الاتراك وقساوة الدرروز وقرراي الوالي على ارسال فرقة كبيرة من الاكراد بقيادة احمد بك صاحب الشهامة الذي طلب من الوالي ان يسمح له بضرب الدرروز اذا لقي منهم مقاومة في الامثال لاوامره فلم يسمح له بذلك . ولما رأى عدم التساهل في اجبار الدرروز على الكف عن النصارى استعفى من القيادة وعند ذلك استحضر الوالي

الشيخ كنج العماد وارسله مع باوره الى حاصبيا وفي اثناء الطريق استغاثه بضع عشرات من النصاري فاغاثهم واحضروهم معه الى المجزرة وفي وصوله الى السراي ومفاوضته مع قائد الجنود التركية قرر رأيهما على ترك الدروز ان تدخل على النصاري وتفنك بهم وفي ثاني الايام نفي الجنود عن باب السراي فدخل الدروز وقتلوا كل من كان فيها بعضهم بالرصاص والبعض الآخر بالسيوف والذي كان يفر منهم كانت الجنود ترجمه وتقدمه للذبح . وبعد ان اجهزوا على الرعية سعدوا الى الطابق الاعلى حيث الامير وصهره موجودان وقتلوهما وقتلوا الذين استغاثوا الشيخ كنج واغاثهم واحضروهم معه . وقتلوا أربعة من امراء الدروز ذهبوا ضحية الغلط والطيافة ظناً منهم انهم من النصاري ونهبوا المدينة وحدثوا النار في معظم بيوتها وتركوها خراباً ومن جملة قتلاهم الشيخ ابو صلاح الذي اصيب بجرح . وقبل وفاته احضروه الى قرية شوية وعالجوه وكان قائد الجنود يزوره ويصف له علاجاً . وعند وفاته اظهر كدره الشديد عليه وخلع على شقيق ابي صلاح فرواً وعزاه وشاطره الاسى على فقده . ومثل هذه المعاملة وانماها كثير مما يثبت للملا اشتراك الدولة في هذه الحوادث التي نرويها لك . وبلغ عدد القتلى ٧٢٤ من المسيحيين و ٤٠ من الدروز وجند الاتراك

الفصل السابع والاربعون والمائة

في مجزرة راشيا الوادي من ٣ حزيران الى ١٢ منه سنة ١٨٦٠

في ذات النهار الذي جرت به مذبحه حاصبيا بعد ان نزع قائد الجنود من النصاري سلاحهم كما تقدم بفت دروز حوران نصاري راشيا الوادي في بيوتهم وفي السراي وعلى مرأى الجنود التركية وبمساعدهتها اجهزوا على جمعهم وقتلهم مع امراء شهاب ولم ينج منهم سوى اميرين ثم نهبوا بيوتهم وتركوها عارية خالية . وقيل ان عدداً منهم استغاث باهل الاستقامة من الدروز واغاثوهم وردوا عنهم نكبات اخوانهم وبلغ عدد قتلى راشيا الوادي خمسمائة رجل وطفل وامرأة

الفصل الثامن والأربعون والمائة

في اجتماع الدرروز علي زحلة من اواخر حزيران الي ٤ تموز سنة ١٨٦٠

لا ريب ان القارىء يذكر حادثة زحلة سنة ١٨٤١ حين هجم الدرروز عليها وشاهدوا من اهلها الاهوال وكيف ارتدوا عنها بالفشل والخيبة وكيف ان الاهالي ابنت المتاريس والحصون عتيب الحادثة وامرت الدولة بهدم ما بنوه وغير ذلك مما روينا في ذلك المقام والذي ترويه الان حدث بعد ان فرغ الدرروز من الفلك باهالي راشيا وحاصبيا اذ تحولوا الى شن الغارة على هذه المدينة التي ابق في قلوبهم غصة فاجتمعوا من كل حدب وناد وتقدموا اليها وقلوبهم واجفة خائفة من شجعانها وعدم استسلامهم الى مواعيد الدولة واعتمادهم على قوتهم الذاتية وكان ما راوه من غدر الجنود التركية باخوانهم في دير القمر وسواها من المدن دعاهم الى اليقظة والمذلل لذلك رفضوا مساعدة الدولة لهم ولم يسمحوا للجنود في الدنو منهم فنزلت العساكر الشاهانية خارج المدينة وكانت مختلطة بهداد الدرروز كانوا واياهم على وفاق صريح في مهاجمة العدو ولم تكتمف الجنود بهذه المسألة والملاطفة لهم بل كررت طائها من النصارى وهم داخل المدينة بجمع سلاحهم وارساله لها وكانت اهالي زحلة اكبر من ان يوخدوا بهذه الخديعة فسخروا بالطلب واحترقوا صغار الطالاب وكان من اسماعيل الاطرش انه وهو في طريقه الى زحلة مر بقرية كناكر وقتل من عثر به من نصارى اقليم البلان الذين كانوا ملتجئين الى الشيخ من سكانها المسلمين وفي وصوله الى زحلة اجتمع بقايد الجنود بدعوة منه واطاعه على قدوم بطل لبنان يوسف بك كرم الاهدي برجاله الاقوياء لنجدة اخوانهم الزحلاويين وحرضه على الاسراع بالمهجوم على المدينة قبل وصول الاهدي ورجال شمال لبنان البواسل واطاعه على ان الوالي بذل جهده بصدده عن التقدم ولم يفلح

فاستصوب الاطرش راي القائد وهجم برجاله على المدينة وخرج حماة الحملة اصحاب النفوس الكبيرة الى ملاقاته خرابهم ورضاصهم وارجعهم عنها مراراً وطال القتال يومين في نهايتهما قفل الدرروز راجعين الى الورا واقبلوا عن زحلة مخذولين

الفصل التاسع والاربعون والمائة
في قدوم يوسف بك كرم الى زحلة



يوسف بك كرم

ولما انتشرت اخبار الحوادث والمذابح وقتك الدروز بالنصارى على السواء ومساعدة
الدولة لهم في العمور وبلغت شمال لبنان نهض يوسف بك كرم الذي اسمه يعني عن
بيان مقامه برجاله البواسل لنجدة اهالي الجنوب وفي طريقه مر بكسروان . وهو على مقربة
من مار الياس شويبا كانت الدروز قادمة الى ضرب بكفيا بقيادة الشيخ حسين تلحوق
وعددهم خمسة عشر الف مقاتل . وعند ما علم الشيخ تلحوق بقدوم بطل لبنان ووجوده
في تلك النواحي حول عزمه عن بكفيا فتركها وشانها كانه ادرك خطارة الموقف واكد
ان وراء الاكمة رجالا كواسر ولكنه ارسل اعلم الوزير بعدوله عن مقابلة المدفوع
لقتلهم والاسباب التي دعتهم الى العدول . وعند ما اتصل الخبر بالوزير اسقط بيده وبالحال
ارسل تهديداً الى يوسف بك كرم اذا ظل في استطراده . وبالوقت ذاته اعلم قناصل
الدول واوغر صدورهم عليه بقوله لهم انه يخشى ان يوسف بك كرم لا يعود يرى امامه

الدروز فقط بل يتحرش بالجنود الشاهانية فيوسع الخرق الذي هو ساع ي كيف
انه باذل قصارى جهده في غل ايدي الدروز عن النصارى وعلى مسعا
بالوقت العاجل

فانطلقت الحيلة على عيون القناصل واخذوا كلامه حجة لا ترد وقرراهم على سوال
كرم بك العدول عن متابعة سيره الى زحلة فكثبوا له رسالة بذلك وطلبوا منه الرجوع
الى بلاده وانه اذا تردد عن اجابة طلبهم بلاقي منهم مقاومة ليس من الدولة والدروز
فقط بل من دولهم

ولدى تلقي كرم هذه الاوامر ادرك ما دبره له الوزير وكيف انه بسعايته حمل
القناصل الى الاعتقاد بصحة دعواه فاسف لحدوث هذا التلاعب وانطلائها على عقول
من كان يقدرهم اكبر من ان تقوى عليهم برقشة الوزير. فكتب على الاثر رسالة وارسلها
الى بيروت عرض بها للقناصل افكاره وما يعلمه من فساد نوايا خورشيد باشا واستشهد
بحوادث دير القمر وحاصبيا وراشيا وبرهن لهم ان الوزير يتربص الفرص ويحث الدروز
على الفتك بالنصارى عموماً وباهالي زحلة خصوصاً وارسل الى الوزير خورشيد باشا
رسالة هذا نصها . « اني مطلع ايها الوزير على سهرك على راحة الرعية الامر الذي لا
ينكره عليك احد وكيف ينكر لك الفضل ومذابح دير القمر وغيرها من البلدان بعد ان
جردت اهلها اخواني النصارى من سلاحهم وزربتهم وساقطهم جنودك الى الذبح الا
تعلم ايها الوزير اني عالم بصدق خدماتك النبيلة هذه ؟

« الا تذكر رسالتك السابقة الي التي بها تتهددني وتطلب مني العهدة ان لا افوم
الى نجدة اهالي الجنوب ولو قامت الاحوال وما اكتفيت بذلك كله بل سوات لك
نفسك الشريفة والنفس امارة بالسوء واوغرت علي صدور مسلي عكا وطرابلس والضنية
وحمص وحررضهم على العبث بناحية الشمال التي افتخر برجالها اقيم امامي عشرة وتشغلي
عن مناصرة الجنوب ورد السوء عن اهاليه الاماجد

« واعلم ان الرجال الذين ردوا غارات اولئك القوم وبددوا جموعهم المجتمعة لم يزلوا
احياء وهم معي الان فبهجتهم القعساء وعلو نفوسهم السماء افتحم صفوف الرجال ولو كانت
بعدد الرمال واقتلع اركان المدافع ولو كانت باعز مكان يقدر ان يتصوره الانسان نعم
ان لا رابطة سياسية تعلقني بالجنوب ولكن رابطة الوطن والمذهب وحب الفضيلة وقطع
الفساد كل هذه الروابط وواحدة منها تفوق الاولى تدفعني الى تضحية نفسي ونفوس

رجالي الاعزاء في الذود عن اهالي الجنوب فتدبر وكن حكيمًا
وبعد ان ارسل الرسالتين رجع بافكاره الى رسالة القناصل له فرأى انه واقع بين
شرين وكلاهما ذوخطارة ان رنض اوامر القناصل يحقدون عليه وان عمل بموجبها يوخزه
ضميره على تقاعده عن مساعدة اخوانه وقر رأيه على الطف الشرين واخف الويلين فانخب
من رجاله مائة وخمسين مقاتلاً وارسلهم الى زحلة بقيادة الامير داود مراد وانهى اليهم
ان يطعموه على ماجربات الاحوال وان راوا تفاقم الازمة واقتراب الخطر على الاهالي
يقوموا بهم الى بعلبك ومضوا

ولقيت هذه الفرقة الصغيرة كل حفاوة وترحاب من اهالي المدينة واطعموهم على
الاسباب التي منعت بطلمهم من الوصول اليهم وكيف ان الوزير خدع القناصل باقواله
المارقة وتغلب على دعم كلامه ببراهين قاطعة

واخر الكلام اشاروا عليهم بالقيام الى بعلبك وهجر المدينة
فقر رأي الجمهور عندئذ على العمل باشارة البك وبدأوا بالتأهب والاستعداد
وبعد ايام سيروا النساء والاطفال مع حامية الى بلاد بعلبك وبقي الجانب الاكبر
منهم بالمدينة ينتظرون ما ياتي به الغد

الفصل الخمسون والمائة

في مقاصد خورشيد باشا

وصل الى الوزير كتاب يوسف كرم فوقع عليه كالمصاعقة على ما فيه من الخشونة
والحماسة وخاف على نفسه من اطلاع كرم على دسيسته الى القناصل وان ما دبره للرحليين
من الاحن يذهب ضياعاً اذا لم يسرع في طلق اخر سهم بجمعته وقام لساعته واجتمع
بالقناصل واعترض على كلام كرم بك اعتراضاً شديداً مفجماً وكرز وعوده الاولى لهم
بالمحافظة على راحة الرعية بالسواء وكان كتاب كرم وصل الى القناصل فوقعوا بنجيرة بين
الاثنين هل يصدقون كلام الوزير ويعمان به ام بكلام يوسف بك كرم وكان المواجهة
الشخصية اثرت بهم اكثر من الكتابة فركنوا الى مواعيد الوزير وكتبوا الى كرم ثانية ما
كتبوه اولاً وقالوا له ان علمت بهجوم الدروز على زحلة لك عندئذ ان تقدم الى
نجدة الاهالي

وفي رجوع خورشيد باشا الى مركزه ارسل الى الدرود اعلمهم بعزم كرم وما يبغيه من المساعدة والذود عن النصارى وحشهم على الهجوم وضرب المدينة ثانية بالقرب العاجل قبل ان تثنأ كد القناصل فساد العمل ثم كتب الى قائد الجنود ان يساعد الدرود ويمدهم بالرجال والذخيرة وبيطش بكرم ورجاله ان تقدموا الى احباط مسعاهم وبلغ الدرود انه لم يبق لهم من الفرصة لضرب زحلة سوى يوم فان ابطأوا الى اكثر ندهم قوة الشمال المشهورة

الفصل الحادي والخمسون والمائة

في نكبة زحلة

وصل لكرم بك جواب القناصل وفي الوقت ذاته وصل للدرود ولقائد الجنود كتاب الوزير واجتمعوا وقرروا بهم على اعمال الخديعة وفي ثاني الايام ارسل الدرود فرقة منهم الى اسفل زحلة لقتالها فهدم الزحليون واحسنوا الدفاع وارسلوا فرقة ثانية من الجانب الآخر ونشروا بينها اعلام ويارق شمال لبنان وغير ذلك من الرموز فانخرج بهم اهالي المدينة وظنوهم رجال يوسف بك كرم قادمين لنجدتهم فخرجوا للملاقاة بهم بالعراضات كما هي العادة وعند ما اقتربوا منهم على مرى الرصاص شعروا بالخديعة وانجحت لهم الدسيسة حيث اطلق عليهم الدرود رصاصهم وفتكوا بمعظمهم . ولما كانت بنادقهم خالية من الرصاص رجعوا مدحورين الى المدينة وتبعهم الدرود على الاثر ودخلوا وراءهم وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً كما كد للاهالي صدق نبوة كرم بك وقرروا ان يتركوا المدينة ويقوموا مع رجال الشمال الى بعابك لئلا يصيبهم ما اصاب اهالي دير القمر وراشيا وهكذا فعلاوا وعند اخلائهم المدينة دخل الدرود والجنود العثمانية واعملوا سيوفهم بين وجدهم من المتخلفين ونهبوا ما عثروا عليه وارتكبوا المنكر وحدثوا النار في معظم بيوتها وبعد ان نهج الدرود مهبتهم برحوا المدينة واخلفوا بها العساكر التركية ترتكب الفحشاء وتمتلك حرمة العذارى وهجموا على دير الراهبات الذي لم يدن منه الدرود واغتصبوا الراهبات ونهبوا ما عثروا عليه من المتاع فيه وفي بقية الكنائس وقاموا بما امرهم به الوزير احسن قيام

وقد بلغ الخبر مسامح يوسف بك كرم في منتصف الليل فنهض للرجال برجاله واسرع في المسير ولم يصل اليها الا صباحاً بعد ان لعبت بها ايدي الدروز وتمتعت بمحصناتها وحوش الجند الشرهة وفي وصوله رجعت تلك النفوس الديئة الي معاقبتها ونظاھرت بتخفيف المصاب عن الاهالي غير ان هذه المظاھرات لم تنطل على رجال الشمال وبطلما المغوار فتحمسوا بما شاهدوه واخبروه وعولوا على البطش بالقايد وعساكره ولولم يردھم بظلمهم وقد اعتادوا طاعته لما ابقوا منهم مخبراً

فقام الجنود عن المدينة كأنهم راوا حراجه مركزهم وتحولت رجال يوسف بك الى اعانة الاهالي ووردت الاعلام من قناصل الدول الى يوسف بك كرم على تعقب الدروز واظهروا اسفهم لعدم اتجاھهم كلامه ثقة والدروز كانوا تفرقوا بعد انجاز مهمتهم شذر مذروا بباغاز من الوزير لاذوا بالسكينة بعد ان قتلوا ونهبوا كل ما وقعت يدهم عليه وحادثة زحلة كانت اخر الحوادث اللبنانية وتعد طفيفة بالنسبة لحادثة دبر القمر وحاصبيا حيث رفض اهلها دخول الجنود الى المدينة وابوا ان يسلموا سلاحهم ولم يقتل منهم فوق المائة

وهكذا كانت نكبات لبنان عن يد دولتهم الفضيحة التي ارادت ان تميم منهم عزة النفس والاقدام المشهورين بهما ورات اخضاعهم واذلاهم واضعافهم عن مقاومة رجالها الذين كانت ترسلهم لا يتزاز ما لهم وكانه ساءها ما شاهدته بهم من عزة النفس وحب المدافعة عن حقوقهم فعزمت على قرضهم ولم يكن التركي رحوماً فيشفق ولا شهياً فيرد المعروف بمثله

الفصل الثاني والخمسون والمائة

في مخابرة القناصل دولها

وفي انتضاء نكبة زحلة ايقن القناصل بفساد مقاصد الوزير واكدوا ان له يداً بمجواث لبنان كلها وانجالت لهم عهوده الباطلة فارسوا قراراً لدولهم شرحوا فيه حوادث الجبل حادثة حادثة واسبابها ومن هو العامل على اثارها وطلبوا منها الاسراع واعمال التدابير في حفظ حياة من بقي من النصاري في سوريا واطلعوا دولهم على ما قرره الدولة العثمانية سرّاً وهي لم نزل ساعية الى انجازه وقرارها قرض النصاري عموماً من سوريا ولبنان

لترفع عنها ثقالة مطالبكم بهم وكيف كانت جنودها تعضد الدروز بكل فرصة سئمت لهم ، وطلبوا منها التشديد على الدولة وارغامها على ما قررت
وعند ما وصلت تقارير القناصل الى مراكزهم وعلمت الدول مقاصد الاتراك وعمالهم الفظيع طلبوا بلهجة واحدة من الدولة التركية التوقيع على المعاهدة لحماية النصارى واحق هذه الدول في الطلب دولة فرنسا واجتماع الدول على المطالبة بذات الحق لا يراد به الا التمويل ولما كانت الدولة مفطورة على المماثلة رجعت تماطل الدول كعادتها وخافت ان يجبروها على التوقيع قبل ان ينفذ سهمها في قلوب علة هذه المطالبة فارسلت الى مأموريها عموما والى احمد باشا والى الشام خصوصا وطلبت منهم ان لا يتركوا واسطة الا ويطرفونها لقرض النصارى من بين بقية رعاياها لان وجودهم يقضي مراقبة الدول على اعمالها الجزئية والكلية وذلك مما يحبط بعظمتها ويجول دون استطراد حكمها على رجالها المسلمين

الفصل الثالث والخمسون والمائة

في التدابير التي اتخذها احمد باشا لمذبحة الشام

فيل ان مذبحه الشام لاعلاقة لها بحدوث لبنان ولا تعزي لها الاسباب التي عزيت لتلك وان من اسبابها الاولية عبث النصارى بالشريعة التي احدثتها الدولة على اثر حرب القرين مكرهة من دولة الروس على وضعها ومفاد الشريعة مساواة الرعايا بالحقوق لمدينة واعفاء النصارى من الخدمة العسكرية وهذه الشريعة على ما فيها من الغبن بحق المسلمين كانت الباعث على انشاء الضغائن والاحقاد لما فيها من الممايزة وكانت الدولة تنقاضي النصارى بدلا عن الخدمة العسكرية خمسين ليرة ومن المسلم مائة فهذا التمييز المحسوس حمل النصارى الى المظاهرة ونفخ صدورهم تعنتا وزاد عقولهم تصللا وصاروا يتباهون به وظنوا انهم قبضوا على مفتيح السماء وكان يكفي للمسلمين التعصب الديني والعداء المذهبي لاغارة احقادهم على النصارى فجاءت هذه الشريعة ضغنا على ابالة وقيل : ان الدولة رغبت في وضع هذه الشريعة التي يقال عنها المساواة وهي ليست على شيء منه لتثير خواطر شعبيها على النصارى وتجعل لهم سبيلا لبغضهم ومقتهم ولو كان النصارى وقتند على شيء من الحكمة لرفضوا اعفاءهم من الخدمة العسكرية التي جردتهم

من الوطنية وابكمت لسانهم عن المطالبة بحقوق جنسيتهم واعدادهم من الدخلاء تلك هفوة كبيرة واكبر منها اتخذهم شريعة المساواة غير ماخذها فتجاوزوا بها جزافاً وعبثوا بحقوقها المقدسة وضلوا عن الهداية وتناسوا ماضي ايامهم وكيف كانوا يسامون وبعاملون من الرعايا المسلمين انواع العذاب واشده من الحطة كاحط واحقر معاملة نالها الرقيق بابام رقه وعبوديته

وكان مسلو دمشق عموماً وسوريا خصوصاً على الاطلاق لانري بهم اهلية للحربة وكانوا يسفون على الدولة التركية عملها اندي قامت به مضطرة عقب حرب القرين كما كان يسفه سكان جنوب اميركا دولتهم على تحريرها العبيد الارقاء ببلادهم

وكثير تدمر المسلمين من الدولة مع التقرب فاجابتهم انها لم تفعل ذلك الا مضطرة وبلغ من حقد المتعصبين انهم تأمروا والوا الجمعيات السرية بطلبون بها خلع الدولة التركية وابدالها بدولة تعيد مجد الاسلام والاسترقاق للمسيحيين وبلغ الانراك امرهم فاوغروا صدورهم على النصارى ليأثمهم عنهم ويتخلصوا من شرهم والله اعلم . ولما وصلت تعليمات الدولة للوغد احمد باشا انتبه الى طريقة فراج الدولة من هذه المعضلة وكانه لحظ ان الافكار تهيات وعلى استعداد لبث شكرها الى السيف

فاستحضر وجوه النصارى وطلب منهم دفع ثمن بدل الخدمة العسكرية عن عموم اخوانهم وهددهم بالسجن اذا لم يسرعوا بتعضير طلبه ولما لم يكن لهم مقدرة على مجاوبته كما يريد اعتذروا له وعند ذلك امر بسجنهم الى ان يتعهدوا له بدفع كل ما يطلب للحكومة من نصارى المدينة

وكان يلقي القبض على كل من علم بمقدرته فامتلات السجن ونعطت الاشغال وعلا صراخ العيال من الجوع والفاقة واصبحوا بجالة يرثى لها فذهبوا الى بطريك الروم الارثوذكس ليستغيثوا به لسوء الحظ كان غيبته منغيبا عن الكرسي ولم يكن في البطر كخانة غير نائبه المطران يوسف اسقف . ولما راى حضرته قدوم الجمهور اليه على تلك الحالة داخله الرعب نظراً لجهله عوائد البلاد ولغتها والحال كذب للوالي وعرض له ان النصارى تجمروا كعصاة وارادوا الايقاع به

وقصده بذلك ان يبرهن للوالي عن حالهم ونقرهم وعدم مقدرتهم حتى على تحصيل معاشهم فكيف دفع مطالب الدولة منهم . وغاب عنه ان الحكومة تمشاءم من كلمة عصاة وتبني عليها القصور العالية لاسيما اذا عنت النصارى وان لها وقماً شيئاً باذهاب

مسلي المدينة الذين كانوا منتظرين سنوح الفرصة للايقاع بالنصارى لانهم كانوا ينظرون اليهم نظر الحاسد المنتقم المتعصب خصوصاً بعد ما بدا من النصارى على اثر شريعة المساواة المباشرة وعدم الاكتراث بين حوالهم فثقي على المسلمين ان يروا رقيةهم بالامس اصبح يقاسمهم الحقوق والنفوذ بعد ان كان بقبضة يدهم يتصرفون بالهوا وراحتهم ويتجرشون بعرضه متى وكيف شاءوا حتى انهم كانوا يطلقون عليه احقر الاسماء التي تدور بمخيلتهم ويحجون مجالسهم عن ذكره حتى يتلب مركز الحكومة فضلاً عن الشوارع والازقة فجاءت كتابة المطران بوسف الى الوالي عن ثورة النصارى سلاحاً ماضياً بيده على الفتك بهم فاثار الخواطر ونفخ بصدور رعايا المسلمين روح الفساد فاماظ عنها الضغائن الكامنة ولم يشاء ردع النصارى رأساً فاناط بتاديبهم رعايا المسلمين الذين كانت الحكومة تخشى بطشهم ولا تتجاسر على مطالبتهم بدفع الضرائب وكانت الدولة غير راضية منهم لفتكهم ببعض وزرائها وامتناعهم عن اجابة مطالبها ورغبة احمد باشا بانثارتهم على النصارى كي يتخلص منهم او من بعضهم فيقل عددهم وتضعف شوكتهم ويصبح الخضاعهم لاوامر الحكومة مكفولاً فيرد عن دوله الخطر الذي كان يتهددها به مسلمو الشام الذين جاهاوا بخلق دولة الاثراك عنهم وراسلوا دولة مصر لناقي لتجدتهم ولم يفلحوا

الفصل الرابع الخمسون والمائة

في بوادر ثورة الشام

وما زاد الطين بلة هو ما كان ياتيه احمد باشا من الاعمال والاستعدادات وذلك انه :

امر بنصب المدافع على ابواب الجامع الاوي واعان ان غرضه من ذلك الاحتراس من غدر النصارى من يكون داخله في اوقات الصلاة وغايته ليزيد المسلمين حقداً وكرهاً للنصارى ويزيح الرماد عن النيران الكامنة بصدورهم . وهل يعقل ان المسلمين الذين هم اصحاب الحكومة ولهم ولاء الجنود ومعداتهم الحربية من مدافع وقلاع ووخزيرة ويبلغون نحو ثلاثين الف مقاتل بالمدينة ومائة الف بجوارها يخشون بطش وغدر بضعة آلاف رجل كثيرهم لا يعرفون نقل السلاح ولا يصلحون للقتال ومعظمهم لا يقدم على ذبح ديك او حمامة فيحملها الى الجزار هرباً من الوقوع تحت جرم القتال فهل يصدق

العاقل ادعاء احمد باشا بان حياة مائة وثلاثين الف بخطر من ثلاثة آلاف مسيحي
تسعون بالمائة منهم لا يوجد عندهم قطعة سلاح تصلح للدفاع وان وجد عند بعضهم لا
يجسنون المدافعة ولا المقاتلة

فاحمد باشا كان يفعل ذلك كله ليثير احقاد المسلمين على النصارى وخصوصاً الرعايا
منهم وهذه المظاهرات لم تجعل تأثيراً على عقول الخاصة ولا انطلت عليهم انما كان
تأثيرها في اشدده على عقول العامة فتمسكوا بها واستعدوا للفتك بالنصارى عند اول
اشارة تصدر من الوالي الحكيم

وبينما كان النصارى بالحصار منهمكين باشغالهم ومنفردين لاعمالهم في جوار المدينة
ثار عليهم الدروز والمسلمين معاً وسدوا عليهم الطرقات فوقع عليهم الخوف وتولاهم
الرب وكثير منهم جاء من امكنة بعيدة فتعذر عليهم الرجوع الى محلاتهم فاضطروا
للبقاء تحت الخطر المحدق بهم ونصارى المدينة لو تمكنوا من الخروج وترك المدينة لما
ترددوا لحظة انما آثروا البقاء على القيام لعلمهم ان على الطرقات بلاقوت حتفهم مع
ان بقاءهم لم يكن اخف خطراً على حياتهم

الفصل الخامس والخمسون والمائة

في احتفال الحكومة لنكبة زحله

رابع تموز سنة ١٨٦٠

ولما بلغت الحال هذه الدرجة من التفافم والحراجة اجتمع قناصل الدول بدمشق
واعترضوا على الوالي لعدم اكثراته لما يجرى امامه وعلى مسامحه من الحركة والقلاقل
واضطروه لتلافي الخرق الذي احده قبل اتساعه فيجاب اموراً وخيمة العاقبة
فما ظلمهم بالجواب ولم يحتفل بكلامهم وعند ما رأوا منه ذلك ظلموا مقابلته ولم
يسمح الا لواحد منهم ينوب عنهم فارسلوا بورغا كي نائب قنصل دولة اليونان فقابله
وعرض له ما تراتيه بقية القناصل من وجوب نسكين الخواطر وايجاد الامنية وهده
بالمسئولية ومطالبة الدول منه ما يقع على النصارى من الضرر . فرجع عنه بالخيمة
والقنوط . وفي هذه الاثناء ورد خبر نكبة زحله وتغلب الدروز مع معاضدة الجنود على

فتحتها ونهبها وكان لوصول الخبر وقع حسن في دوائر الحكومة وبقية المسلمين فامر احمد باشا باقامة الافراح وتنوير الشوارع احتفالاً بفتح زحلة كأن الدولة استولت على عاصمة القياصرة او قلعة سباسبول او جبل طارق او غيرها من الممالك والقلاع الحصينة في العالم

الا ان محمود افندي حمزة استاء من هذه المظاهرة واقامة الزينة والاحتفال وامر باطفاء الانوار التي كانت بالقرب من منزله • اما النصاري فلم يعد عندهم ريب بحلول مصابهم وقرب اجلهم عن بد الحكومة • وانقطعت آمالهم بها وتكاثرت النصاري عدداً عن ذي قبل لصعوبة الخروج من المدينة ومن جوارها فاضطر عدد عظيم من الفقراء الى المجيء اليها ليحصل على سد رمقهم او لتقديم اعنائهم للقطع والحصد وقائل يقول انهم جاؤوا لفقدهم الامنية في النواحي التي كانوا يقطنونها فقدموا الى الشام ليستجبروا من الرضاء وكان النصاري بأتونها من راشياً وحاصبياً وبقية القرى المجاورة لها وكثير حشدهم وضاقت المدينة على رحبها بهم • ولما لم يكن محلات كافية بأوون اليها اضطر اكثرهم مع عيالهم واطفالهم ان يتوسدوا الثرى في الشوارع وباحات الكنائس وجعلوا الارض فراشهم والسماء غطاءهم

و بالرغم عن الفاقة التي بها نصاري المدينة كانوا يشفقون على اخوانهم ويمدونهم بكل ما في وسعهم

وقد خصصوا لهم فرناً من افران المدينة ليقدّم لهم ما يجزئه من العجين لسد جوعهم واضرب المتوظفون بدوائر الحكومة من النصاري عن عملهم خوفاً على حياتهم وتفاقم الخطب وقرب يوم العصب • • • ووقفت حركة الاعمال حتى في دواوين الحكومة حيث اكثر الكتابة منهم • والقلاقل تزداد يوماً فيوماً وقدوم الدرود الى المدينة على تكاثر من يوم الى آخر

كل ذلك واحمد باشا لائذ الى السكون لا يحرك صامتاً ولا يسكت صائحاً وقد نقرر من سكوته وسروره عندما بلغه نكبة زحله انه العامل القوي في حدوث الاضطراب والتشويش وكثيراً ما كان يقول اللهم اهلك الكافرين بالكافرين متخدياً خورشيد باشا والي صيدا النذل

الفصل السادس والخمسون والمائة

في مأثرة الامير عبد القادر الجزائري

قنط النصارى من النجاة من مخالب الحكومة وشراسة الاتراك وحقد المسلمين وقساوة الدروز وابلوا بالماعة فقتلوا من الحياة جوعاً وتعددت عليهم المصائب وكثر ارتياهم ولكن قدر لهم ان يكون بين المسلمين شهيم يرق لحلمهم ويرثي لمصائبهم . وهذا الشهم الذى نعنيه هو الامير عبد القادر الجزائري الذى طبق ذكره الخافقين وعم فضله وكرمه نصارى الشام على السواء . وكان لا يترك فرصة تفوته من الدفاع عنهم واجتمع بالوالي مرات وباعيان المدينة ووجوه قراها وحضهم على السكنينة والاخلاد الى السلام والافلاج عن الثورة وترك النصارى وشأنهم وقد بين لهم وخامة العواقب التى تسقط على رؤوسهم اذا عملوا على الفتك بهم وكيف تخرج البلاد من ايدىهم وظهر لهم عدم جواز قتل المسيحيين شرعاً ودينياً وافرغ قصارى جهدهم فى ارجاعهم الى الهدى والصواب ولم يتركهم حتى استوثق منهم بالوعدود باجابة طلبه وفي السابع والثامن من تموز سنة ١٨٦٠ راقت الاحوال ورجع شيء من الطمانينة الى قلوب النصارى . واصدرت الحكومة امراً للكتاب بالعودة الى اشغالهم ومثلت وجوه النصارى وتفاءلوا من هذه المدينة خيراً وخرج اصحاب الاعمال الى اشغالهم وعادت الحركة التجارية والصناعية الى سابق عهدها

الفصل السابع والخمسون والمائة

في مذبحة تاسع تموز سنة ١٨٦٠

خرجت اصحاب الاشغال الى العمل وافكارهم هادئة نوعاً غير عالمين ما تولده الابام من الاحن والكوارث . وامر الحاكم احمد باشا فى عصارى النهار باخراج بعض الرعاع المسجونين من المسلمين بقصد تطوافهم بالشوارع وهم مكبلون بالقيود ارباباً للثوار من المسلمين والدروز معاً . هذا ما اشاعه به انما غرضه من تجول المحاييس على تلك الصورة ليس الارهاب كما كان بوهم البعض بل ليحرك عواطف المسلمين ويجعل لهم سبيلاً الى الفتك والتخرش بالنصارى لان عمله كان قد نضح

وفي وصول المحاييس الى باب البريد هجم بضة من المسلمين على الخفر وبتشوا به
 وخلصوا رفاقهم من القيود ونادوا بالجهاد لقتل الكفار وكان ذلك النهار بدء المذبحة
 العظمى والمصيبة الكبرى والنكبة التي ليس فوقها نكبة عمّت نصارى المدينة وكادت تكون
 القاضية عليهم
 وكان الصارى متفرقين بالمدينة ذلك مما زاد ضعفهم فهجم اوباش المسلمين عليهم
 في بيوتهم ومخلاتهم واين ما عثروا عليهم اعملوا بهم السيف
 وقد اخترفوا حرمة العرض فدخلوا البيوت وقتلوا الرجال وسبوا العيال ونهبوا وارتكبوا
 المنكر ولم يتركوا امرأ قبيحاً الا وفعالوه ومحرماً الا واستحلوه حتى انهم نهبوا الكنائس
 وقتلوا الرهبان في مخادعهم والحقوا اضرارهم بالمسلمين اصحاب الرسالة من الانكليز وسواهم
 ولم يبقوا ولم يذروا فقتلوا القوي والضعيف الصغير والشيخ الكبير المريض بفراشه والكسبيح
 في ساحته والضرب على عنكازه ورجال الدين وهم سجود او نيام . وكان فتكهم بالصارى
 الذين جاؤا المدينة ملتجئين الى حكومتها ذريعا فقتلوا منهم عدداً كبيراً واستباحوا
 المحرمات وقصدوا مستشفى البرص والجذام وفتكوا بالمرضى ونهبوا ما وجدوه من المال
 واحرقوا مكاينهم ثم قصدوا دير الرهبان الاسباني وقتلوا ثمانية من رهبانه ونهبوا ما عثروا
 عليه من المتاع واطلقوا النار في المحل وقصدوا دير العازرية الفرنساوي وصددهم حاميته
 القوية عن الدخول اليه بضع ساعات حتى قدم لنجدتهم الامير عبد القادر الجزائري
 برجاله وافرج عن الرهبان وحفظ حياتهم انما لم يقو على حفظ الدير من النار والمال
 الموجود به من السلب فنهبوه واحرقوه ولم يكن هم الامير الا المدافعة عن الحياة
 وارسل احمد باشا قوة عسكرية الى حي الصارى بقيادة صالح زكي بك ليوم
 الشعب اخلاصه لهم وفي وصول هذه الفرقة وقائدها الشجاع افرج عن الصارى وبدد
 جموع المسلمين عنهم ولم يكن ماذوناً برماية الثوار محلاً قاتلاً فكان يطلق عليهم طائشاً
 ومع ذلك لكونه نغاب على طرفهم من حي الصارى نال غضب احمد باشا وكدره فاستقدمه
 وحاكمه وارسله الى الاستانة تحت جرم الخيانة ولم تكن جريمته سوى انه غل ايدي
 الثوار عن الصارى كانه كان جاهلاً مقاصد الدولة واحمد باشا الوغد بهم
 وفي مساء ذلك النهار اجتمع الامير عبد القادر الجزائري باحمد باشا واطاعه مجلس
 الشورى وسالمهم مساعدتهم على اطفاء شرارة الثوار وبين لهم براهين ادعمها بايات
 الشرع تقضي على الحاكِم بمقاتلة الثوار ولو كانوا من اهل الشريعة وساعده على



الامير عبد القادر الجزائري

تثبت دعواه ففي الولاية طاهر افندي فقرر اياهم على معاينة الثائرين ومقاتلتهم اذا
 تابروا على ملاحقة الثورة والفتك بالنصارى . وقفل راجعاً الى بيته بعد رجاله الى الغد
 ولم يمض على رجوعه عن احمد باشا بضع دقائق حتى الحقه برسول وعرض له عدوله عن
 ضرب الثائرين وارجاعهم للطاعة . عند ذلك حول اتمامه لتخليص من يقدر على
 خلاصه من العيال والرجال بيض الله وجهه

الفصل الثامن والخمسون والمائة

في مدافعة الجزائري عن النصارى

ولما قنط الامير عبد القادر من مساعدة احمد باشا بالمدافعة عن النصارى امر رجاله
 بالذهاب الى حبيهم وعزم ان يضحيمهم في الذود عن عيالهم واطفالهم ما استطاع لذلك
 سبيلاً واوصى رجاله ان يحضروا اليه من النصارى رجالاً ونساءً واطفالاً وكل من
 يقدر على الوصول الى تخليصه من مخالب الثائرين
 واقتدى به اسعد افندي حمزه وطاف برجاله شوارع المدينة واغاث الملهوف
 واحضره الى بيته

وعلى هذا النحو جرى الشيخ سليم المطار وصالح اغاشور بجي وسعيد اغا النوري
وعمر اغا العابد جاؤا الى حي الميدان ودافعوا عن سكانه دفاعاً مشكوراً مع ان رعا
المسلمين كثروا في ذلك الحي وزاد بطشهم

وكان هؤلاء الابطال يتباهون بكثرة ما تخضره رجالهم من النصارى وقد اجتمع
عند صالح اغا بضع مئات وكان يقدم لهم كسوة وطعاماً وكان الحشد في بيت الجزائري
عظيماً وفي ثاني الايام لم يحدث في المدينة غير استحضار ما بقي من النصارى الى بيوت
اولئك الابطال المار ذكرهم الذين تابروا على تخفيف الكروب واطفاء شرارة الثورة
جهدهم وقد نجحوا في ذلك النهار وفازوا بتسكين الخواطر وقمع العصاة نوعاً انما أتى نهار
الاربعاء وهو النهار الثالث من حدوث المذبحة ببيشه وجنده وهدم ما بنوه بالامس وذلك
انه خرج جمهور من رعا المسلمين في ذلك الصباح ونشروا اوامرهم في انحاء المدينة على
كل مسلم اغاث النصارى في بيته ولم يزل مستحفظاً عليهم ان يسلمهم ليفتكوا بهم وان
خالف واصر على رفض طلبهم يهجمون على بيته ويبطشون به وبعياله ومن كان
داخل بيته وبعدان يجهزوا على الارواح وينهبوا موجودات البيت يحرقونه

فخارت قوى بعضهم وخافوا على حياتهم من بطش الرعا بهم ولم يروا بدءاً من تسليم
النصارى الذين اغاثوهم للثوار بعد ان تكبدوا المشاق لتحضيرهم فادخلوا العصاه عليهم
وهناك علا صراخ الاطفال وعويل النساء وانين الرجال وكانوا ياخذون الاحداث
والرضع عن صدور امهاتهم ويذيقونهم حثفهم على مرأى منهن بلا رحمة ولا حنان
وقدم بعض الثوار الى الصالحية واطلقوا الصوت على سكانها من المسلمين وحمسوم
على نجلده العالم الشيخ عبدالله الحلبي وطرد النصارى الذين هجموا على بيته يريدون
الابقاع به وبكل من وجدوه في البيت فهب مسلو الصالحية وهجموا على المدينة
وقصدوا بيت الامير عبد القادر الجزائري حيث بلغهم انه محتفظ على عدد كبير من
الكفرة فتجمعوا حول منزله وراموا الفتك به اذا ابى ان يسلمهم النصارى الموجودين
بعنده ولم يكن الجزائري ممن يهولهم التهديد والوعيد فخرج اليهم برجاله الامناء وتهدهم
بصرامة العقاب ان تحرشوا بجرمته واظهر لهم انه مستعد تمام الاستعداد لمقابلتهم
بالقوة ويمطر عليهم ناراً تبيدهم على الاطلاق ولما شاهد العصاة انه على اهبة ان يكيل
لهم الكيل وازود تركوه خوفاً من سطوته وشدة باسه
الا ان الاكراد ونصراءهم قد اتوا اعمالاً بربرية في ذلك اليوم تخلد لهم

الذكر في تاريخ الجزائر التي عجز عن مجاراتهم بها الامم الهمجية فقتلوا المئات من
النصارى ونكلوا بالآخريين ممن وقع بايديهم . وكان قواد الجند من الاتراك والاكراد
مثل اسمعيل اغا شمدين وفرحات اغا وسواهم من المتحمسين يحرصون الجنود على
التوغل بالفتك وكانوا يبرون احياناً أمام السراي ليشهدهم احمد باشا ويثني على
بسالتهم وصدق اخلاصهم له كل ذلك واحمد باشا قد طاب له السكوت ولذلك استبسال
رجالهم وقساوة المسلمين والدروز فلم يبد حراً كآ كآه سكر بخمرة الانتصار
ولا نضن عليه بذكر مأثرة وهي محافظته على الكتاب الذين سألهم الرجوع
الى اشغالهم فعند ما شبت نار الثورة بالمدينة ابقاهم داخل السراي ليستفيد منهم وبذلك
ابقي لهم حياتهم وقديكون الذي حمله الى ذلك حاجته لهم . اما النصارى سكان شرقي
المدينة مع مطران السريان الكاثوليك فتركوا المحلة قبل وصول النوار اليهم وذهبوا
الى قرية سيدنايا وتحصنوا بديرها المنيع وكان بالقرية عدد كبير من النصارى وكلهم
يشهد لهم بالقوة والبأس

فوجه احمد باشا لقتالهم دعاس اغا الجيروري بفرقة من الجند بمن التف
حوطهم من المسلمين . وعند وصوله الى الدير خرج لقتاله ورده اهل الحمية واحسنوا
لمدافعة ولم يتمكن دعاس اغا من الحاق اذيته بالخاصرين الذين كانوا يخرجون اليه
ويبطشون برجاله ويهودون الى رفاقهم سالمين وظل الحال بينهم الى ان ارغموا دعاس
ورجاله على العودة فرجع مخذولاً

ومثل هذه التعديت من عسكر الدولة ورجالها الامناء كانت تنوالى على النصارى
من يوم الى آخر وقد دلت دلالة واضحة على ان للدولة اصعباً بها . واكبر برهان على
صحة هذا الزعم تقاعد الوالي عن قمع العصاة واخضاعهم للشريعة ولو انه طاف
بشوارع المدينة او ابدى اقل اهتمام بتسكين خواطر الشعب الهائج كما تقتضي وظيفته
لامكنه مع ماله من القوة ان يمنع حدوث ما حدث . . او لو انه عهد لصالح زكي او
سواه من اهل الاستقامة في اخاد الثورة لكان اتقذ الوفاً من النصارى من تجموع
كاس الحمام على تلك الصور الفظيمة

وما يثبت اشتراك احمد باشا بالحادثة اخلافه مع الامير عبد القادر كما مر بنا
وكيف انه تعهد له بضرب العصاة وصادق المجلس على قوله ووعدته ولما خرج الامير
من حضرته ليعمد رجاله لمعاضدة الجنود عاد فانهى له عدم مقدرته على اخضاع الثائرين

وفضلاً عن ذلك انه لم يرسل فرقة الى حي النصارى للمدافعة عنهم والانكى
انه بعد ان فتك المسلمون بالارواح واستولوا على المال والمتاع امر باطلاق قبيلة على
احد البيوت فالتهب وامتد الالهيب ببقية بيوت النصارى في ذلك الحي والجنود تراقب
انتقال النار من بيت الى آخر ولم تبد حراكاً مع انه اتفق ليهودي انه تقدم الى
احمد باشا وطلب منه رجالاً لاطفاء النار من بيته وللحال اجاب طلبه وارسل معه
رجالاً ولدى وصولهم شاهدوا الالهيب في غير بيته فرجعوا على اعقابهم بدون ان يمدوا
يداً لذلك البيت فقد وصل تعصبهم حتى الى الجهاد فما هو ذنب البيوت والاملاك هل
هي تعقل فارادوا تأديبها

وقد اظهرت الحكومة في اثناء الحادثة ولاءً وثقة بالشعب الاسرائيلي اكثر من
ذي قبل وبالرغم عن العداء الكامن بين الشعبين كنت تشاهد مسلوبات النصارى في
بيوت اليهود وكنت ترى الاسرائيلي يحتفل بقدوم المسلمين والجنود بها ويقدم لهم
ماء قراحاً اخلاصاً وتودداً ولو كان المسلمون والجنود التركية غايتهم النهب فقط لراوا
مغماً وافراً عند اليهود اضعاف ما حصلوا عليه من النصارى بالاف من المرات

الفصل التاسع والخمسون والمائة

في مأثرة صالح اغا

غصت دار الامير الجزائري بالنصارى وكان عددهم يتضاعف وعلى ازدياد من
وقت الى آخر وفي النهار الرابع من المذبحة والخامس كان الوفود عظيماً ومع ذلك لم
تقرهمة رجال الامير عن التفقيش بالا بار والكهوف عن التائمين واحضارهم الى
منزله ولكن لما رأى ان عددهم يتزايد ورأى منزله اصبح ضيقاً على روجه به
قدم الى احمد باشا وسأله ان يسمح له بالقاعة ليجمعها مأوي لهم وهكذا كان كلما وصلت
اليه شردمة ارسالها الى القلعة يخفرها برجالها ولا نعلم كيف استسلم لوعود الباشا بعد ان
اختبره وقبل منه ان يقيم الجنود على باب القاعة ولكن اذا جهلنا السبب فما علينا ان
نكذب الواقع

في النهار الخامس اصدرت الحكومة امراً بفصل الرجال عن النساء والاطفال وكان

وقوع الخبر على النصارى عموماً عظيماً لانهم قدروا نصيبهم من هذا الانفصال بما اختبروه من حوادث ذير القمر وراشيا وحاصبيا وبنائوا بجندر وخوف على حياتهم من غدر الحكومة بهم كما غدرت بغيرهم . وكان حذرهم بمحله لان احمد باشا ارسل فاستقدم دروز جوران للفتك بهم وهم داخل القلعة وبالذين في حماية صالح اغا في محلة الميدان ولولا استقامة صالح اغا لنفذ بهم المقدور ونالهم من الدروز ما اصاب اخوانهم سابقاً لكن وجود صالح اغا وشهامته القمساء دفع عنهم الضرر ورد جماهير الدروز بالخطية بعد جدال وعراك دام ثلاثة ايام

الفصل الستون والمائة

في تعيين معمر باشا بدلاً من احمد باشا

وصل الى الشام في صباح الثامن عشر من شهر تموز اي بعد ان مر على الحادثة ثمانية ايام معمر باشا والياً على ولاية الشام وفي وصوله انزل احمد باشا عن كرسي الولاية ونشر اعلام السلام في المدينة وبالجمال اعاد الامنية ورفع التعدي واسكن القلاقل وربما يسأل القارىء كيف تأتى لمعمر باشا ارجاع الامنية واخماد الثورة في حال وصوله ولم تغدر ذلك على احمد باشا . والجواب يحضر نفسه ويحكم على ان الدولة لها ضلع في حوادث لبنان وسوريا على السواء وانى للدروز او الاسلام الاقدام على ملاحقة تمدياتهم وبطشهم بالنصارى من مكان الى اخر بدون ان يحسبوا للحكومة حساباً اذا لم يكونوا على ثقة من رضاها عليهم وارتياحها الى اعمالهم وفي اخلاصهم الى السكينة والطاعة طمأنتهم بالكف عن سوابق اعمالهم عن يد معمر باشا برهان على عدم اقتدارهم على مقاومتها كما كانت تدعي وفي عدم معاقبة الدولة لهم بما اتوه من المنكر والفظائع والعيث براحة رعاياها شاهد لا يدحض على مشاركتها لهم بكل ما جرى اولاً ولا حقاً



الفصل الحادي والستون والمائة

في الاضرار التي لحقت عائلة مشاقه

راينا من الواجب ان نضم هذا الفصل الى حوادث الكتاب لما فيه من الحقائق
الرائحة التي دونها الدكتور مشاقه على اثر حدوثها له والتي نسال القاري ان يتخذها
قياساً محسوساً على ما اصاب بقية العائلات من المشاق والاطار ونحن نتوخى ان
نلقي نفس كاتبها بما على غاية ما يخولنا المقام قال :
« لما كنت متخذاً قبولة ظهر نهار الاثنين الواقع في تاسع تموز من سنة ١٨٦٠ استيقظت
مذعوراً على الصباح واثر قرعة قوية على باب الدار فسالت من هو الطارق وسبب الصباح
ف قيل لي ان الاسلام نهضوا للذبح النصرى وبادوا بذلك فخرجت خارج البيت الى
باب الدار لا تحقق الامر بنفسي فنظرت القوم ترا كض من كل حدب فتأكد عندي
حقيقة الخبر وقلت راجعاً الى البيت انتظر قدوم قواص القنصل الانكليزي المستر
برانت الذي كان ولدي ناصيف موظفا عنده . وفيما انا على ذلك دخل علي رجلان
من اتباع محافظ الحمي وصحبتهما رجل مسيحي كان التجأ الى بيت المحافظ فارسله الي و بعد
قليل حضر القواص المسلم وعند حضوره ارسلته الى الامير عبد القادر الجزائري وطلبت
منه رجلاً ليوصلوني اليه . . فما لبث ان زجع وقال : ان الامير كان غائباً عن البيت
وحضر في ساعة وصولي ودفع الي ستة من رجاله انما لم يمكنهم الوصول مع لانهم اعزال
والطرق مزدحمة بالثائرين فلا بقدرن على المحافظة عليك بدون سلاح
« فلبثت انتظر قدومهم بعد ان يتسجلون وفيما كنت منتظراً هجم علي شرذمة من العصاة
وقصدوا الايقاع بي ولما لم يقدرنوا على اغتصاب الباب جعلوا يضربونه بالبلطات
والفؤوس حتى كسروه ودخلوا الدار وتقدموا الى البيت وصاروا يطلقون على النوافذ
الرصاص وعلجوا الباب ليخلعوه
« وعند ما أدركت الخطر ولم يخضر لنجدتي أحد خرجت من الباب الخلفي بعد أن
أخذت معي مبلغاً من المال ولم استصوب نقل السلاح لئلا يزيد هياج الثوار علي . .
وتبعني القواص وولدي ابراهيم وابنتي واتخذت وجهتي دار الامير وبينما انا اعدو بن مي
قابلي جمهور من الثوار وهجموا علي مشهرين السلاح فرشقتمهم بقبضة من المال فرجعوا

لجمعها وابتعدوا عني فنجوت منهم وواصلت سيرتي وقبل ان ابليح المحل المقصود اعترضني جمهور آخر ففعلت معهم كما فعلت بالاوين واشغلتهم بالتقاط المال الذي رميتهم به وتراجعوا عني قليلاً واصبح الموت وراي وامامي قد دخلت في زقاق ضيق يمكن الوصول منه الى دار الامير ورجوت عدم وجود احد على الطريق ظاناً ان اهل جواره ذهبوا للجهاد الى حي النصارى وخاب فالي حيث رجال الزقاق كانت قد عادت من اشغالها لاخذ سلاح من بيوتها وتذهب الذبح الكافرين

« فالنقمة بهم ولم يعد لي منهم منج فخطوني من كل الجوانب وتقدموا الي يبعون سلمي اولاً وقنلي ثانياً وكانت ابنتي تصرخ املوني قبل والدي وابقوا عليه او اقتلونا قبل ان توفعوا به شراً فتقدم احدكم الى ابنتي وانتهرها بالسكوت ولما لم تفعل ضربها فشح رأسها واسال دمها ثم اطلقوا علي النار واخطاوني مع ان المسافة بيني وبينهم ستة اقدام فقط

« ثم هجموا علي بالبلاطات والنبايت فجرحت بيهجتي وتهشم جانبي الايمن ووجهي وذراعي من ضرب نبايتهم وكثرة ازحام اقدامهم حولي ولم يعودوا قادرين علي اطلاق الرصاص نحوهم من اصابة احد منهم

« فخذعتهم بقولي اني كنت ذاهباً الى البك محافظ المحلة بشغل له انما اجتمع القوم وحشد الجماهير اوقفني عن اتمام مهمتي فخذوني اليه وصدف ان جماعة منهم من اخلاء البك المذكور فقالوا نحن نأخذك اليه

« فساقوني اليه عقب ان سلبوا مني ما تبقى معي من المال حتى لم يتركوا علي راسي طربوشي واخذوا ساعتى وتبعني جمهور كبير وفيما نحن سائرون بالطريق لحقنا درويش التعصب يزيد بتعصبه علي كل افراد الجمهور وكان متعمداً بعامة خضراء وشعوره مدلاة مكحل عيونيه ويده عصا طويلة وضع علي راسها منجلاً

« وكان يمد عصاه من فوق روس الرجال المحدقة بي ليقطع راسي بمنجلة فما توفيق للعمل ونجوت منه ومن معي ووصلت الى دار المحافظة بمصلبة باب توما فلاقني المحافظ المذكور وفرق عني الجموع واعتذر الى اسفك علي ما لحق بي من الالهانة ثم وضعني في بيت احد ابناءه ولا يوجد به سوى امرأة عجوز وهي صاحبة البيت واطلعتني مع القواص الى قصر بطل على الطريق وكان باقي من النهار ثلاث ساعات ولما خلوت بنفسي ضربت ففكري لعائتي وما ترى كان امرها مع المتعصبين وماذا جرى لكل فرد منها وما اذ

كانوا بجوع ام عري وفيما اذا احرق الثوار داري ام ابقوها ثم اذا كانوا احياء فعلى اي فراش بنامون وباي غطاء يتغطون . . لانني ابقيت الثوار يعالجون الباب وانهم سوف لا يبقوا عليه ولا يذروا ثم لاعلم لي بما وقع لهم افرادا واجمالا وخصوصا ابنتي التي ضربها ذلك الوغد بالبلطة وشج راسها وفيما هل وجد بين اولئك الطغاة من بقلبه حنان كاف ليضمدها جرحها ثم اطلقت تصوراتي نحو زوجتي وطفلها الرضيع ووالدتها وخالتها اللواتي فارقتهن بالبيت عند خروجي منه فماذا حل بهم بانري

« ثم افكرت باولادي الكبار وماذا حل بهم وهكذا كانت تنازعي الافكار والهواجس

وانستني الي واوجاعي

« ثم سمعت صوت دوي البنادق والنار ببيوت النصاري التي كانت تقصف كالرعد وكثرة وفود الدروز واسلام القرى المجاورة للمدينة واشتركوا بالجرمة والمذبحة كل ذلك كان من البواعث التي انستني الامي . . فطليت من احدى نوافذ المقصورة فنظرت المحافظ اتياً لبيته بجملة عيال ورجال فكفرت كيف انه لم ياخذني الى بيته اذا كان يقصد الذب عني وترجح عندي انه يضمري الشر ولولا ذلك لما اتى بي الى هذا المكان المجهول فهو ينتظر سدول الظلام ليرسل من يقوم بقتلي لانه لا يتجرأ عليه جهاراً

« فكفرت بعرض افكاري هذه على القواص لئلا يصديه شراً بسبي لانهم قد يقتلونني مسي لا خفاء الجرمة فقلت له ما انا مفكر به ورجوته ان يخبرني نفسه لاني عازم على النجاة بالهرب بعد سدول الظلام لبيت المحافظ الذي لا يبعد اكثر من ثلثمائة خطوة

« ولا يلزم لي اكثر من دقيقتين فاوصل اليه وهناك عنده ما ينيف عن ثلثمائة من

المتجئين وهناك اطاب رجالاً من الامير الجزائري فيرسلهم الى نصرتي

« فاستوصب القواص افكاري ورأيتي وقال لي اذا كان المحافظ يريد بك شراً فسوف ينتظر الظلام ليرسل من يفتك بك والا فلا . اما انا فلا اريد ان افارقك البتة بل اريد اوصولك لبيت المحافظ ثم اذهب بخبرك للامير واذا خرجت الآن وتركتك اخشى من ان يعاقبوني على الفرار وترتكك لوحدك فلا افعل وانا كذلك منتظر سدول الظلام ليقضي وبك امراً كان مفعولاً

« وبت منتظراً الظلام وأنا على مثل الجمر والطريق مزدحم بالمارة بتوارد هم من

القرى رغبة في القتل والسلب وعند سدول الظلام نظرت سبعة رجال ساكين السلاح

جاءوا وطرقوا باب الدار ففتحت لهم العجوز فسألوها اين هو ميخائيل مشاقفة
فدلتهن على المقصورة التي تضمني داخل جدرانها حينئذ قنطت من الحياة ولبت منتظراً
تسليم الروح فاشرت على القواص بتسليق الجدران والذهاب بخبري لثلا اذهب ضياعاً
وفيا انا على ذلك سمعت صوتاً ندهني يامخائيل مشاقفه انزل لعندي انا صديقك
السيد محمود السوطري جئت برجال الامير عبد القادر لكي تكون عندي آمناً فلا تخاف
فما عليك من بأس

« فنزلت اليهم فالبسوني هدموم المغاربة ومشوا جماعة خلفي وامامي ومعهم ابن شقيق
المحافظ وكنا ندوس فوق جثث القتلى بالازقة حتى وصلنا لدار الامير فوجدناها مزدحمة
وقد ضافت رحبها بالعالم الملتجئين اليها من دفع عنهم الامير الاذى واغاثهم وكان هذا
الشهم الباسل متقلداً اسلحه ومعه رجاله البواسل ودام على هذا المنوال ثمانية ايام
وثماني ليالي لم ينزع سلاحه ولا حذاه ومثله رجاله وان اعياء النعاس كان ينام قليلاً على
حصير بياب داره

« فالتمس السير محمد السوطري من الامير اخذي الى بيته لشدة الازدحام عنده
ولكوني مثخناً بالجراح فيلزمني الراحة فاجاب الامير ملتصقاً وذهبت مع هذا الشهم لبيته
وبعد ان استقر بنا المقدم سألني عن عائلتي وما جرى عليها واين هي ليستحضرها
لعندي فاجبته بما جرى واني لا اعلم من امرها شيئاً سوي ان ولدي كان معي وابنتي
وعندما ضربوني وضربوا الابنة فرقوني عنهما ولا ادري كيف ال امرها وزوجني وطفلهما
الرضيع ووالدتها وخالتهما تركتهم بالبيت عندما هاجمه المتعصبوا وانباي الكبار احدهم
بقنصلية الانكليز والآخر بمدرسة بطريركية الروم الارثوذكس ولا ادري ما اتصلت
اليه حالهم . فقال لي: ان قنصلية الانكليز دون باقي القنصليات لم ينتهك حرمتها الشائرون
فكن مطمئن علي ولدك بها : اما باقي العائلة فسوف امضي للبحث عنها في هذه الساعة
واحضرها اليك انما اخشى من انهم لا يعرفوني لعدم سابق معرفتي فيهم فاطلب اليك
ارسال القواص معي ليطمئنهم عنك ويخبرهم بانني لا اريد بهم شراً

فاجبت فليكون ما تريد ايها الشهم الهام واصحبت معه القواص فذهبا سوية
وفتشاعن العائلة وبعد قليلاً رجعا بها الي الأ ولدي سليماً فذهب للفتيش عنه فعاد
ولم يقف له علي خبر فظننا انه بين المقتولين ثم سألت سوطري اغا عن كيفية معرفته
بجمل اقامتي اجاب اننا عند بدء المذبحة كنا ظننا ان المسألة جزئية وان الوالي لا يدع

الخرف يتسع لهذا الحد

« وعند ما خبرنا ما جرى بباب البريد وددنا منع اولاد النصارى من الاشتراك مع
الثائرين فقلعنا باباً من القصب ووضعناه في الزقاق الموصل لحي المسيحيين فجاء جمهور
من اكراد الصالحية وكسروا الباب وتقدموا الى جهة الحي حينئذٍ ترجح لدينا حصول
الاذى عليك وعلى بيتك

« فحضرت وفحصت عنك فعلت ما توقع لك فذهبت لمحافظة المحلة وطلبتك منه فانكر
وجودك اولاً فذهبت واطلعت الامير على حقيقة الامر فارسل معي رجاله الافراج
عني بالقوة وجئنا للمحافظة وارغمناه على الاقرار بمكانك فارسل ولد شقيقه معنا ليدلنا
على مكانك وكان ما علمت

« وفي ليلة اول المذيحة حضر القنصل الانكليزي ليفتقدني فطعني عن ولدي ناصيف
فبقي ولدي سليم لم افق على خبره مدة ثلاثة ايام المذيحة الاولى ولم يعثر عليه بين
القتلى التي ملأت الشوارع والازقة والابار والخراب وبعد وقوع التنبيه والتهديد من
المعصبين على المسلمين الذين اغاثوا مسيحياً عندهم حضر مسلم تركي الى قنصل الانكليز
واخبره بانه متزوج بابنة علي اغا خزينة كاتبي في بيتها الذي يسكن به ضمن الدار
الخارجية المستر رابصون المرسل الانكليزي وكان عندها سليم مشافه مختبئاً ونحشى عليهم
من فتك الرعاع

« فارسل ولدي ناصيف فطعني عن شقيقه سليم وان جنداً من المغاربة ذهب ليحضره
الى مركز القنصل فتطمنت قليلاً الا انني بت اوحس خيفة على دار الامير عبد
القادر من سطو رعاع الاسلام عليها لان اوباش هذه الطبقة كانت حانقة على الامير
لانقاذ النصارى من مخالبتهم

« فارسلت ابراهيم الى عند اخوته لدار القنصلية المزدهم بها المسيحيون من وطنيين
واجانب الذين عندما نظروا احترامها هرعوا للاحتماء بها اما القنصل فلم يهمل امر
صيانة داره من الاوباش المتحمسين بل احضر جنداً من رجال الامير الجزائري
للذب ونفراً من طرف الوالي

« اما انا فبت ببيت سوطري اغا منشغلاً بتضميد جروحي ومداواة رضوضي التي
احدثها ضرب الثبوت وزاد على مصابي هذا افلاسي لانه لم يبق لي ما اشترى به لوازم
الحياة والطرفات مسدودة ولا وصول لي الى ما يازمني فاحد العلماء المشهورين انتقدني

بشوب من ملابسه لان ثوبي كان مخضباً بالدم مع بعض ريات ظننتها مزدوجة اشدة حاجتي اليها

« فاشترت بها ما كان لازماً لي وهكذا ولدي ناصيف ارسل لي ما كان معه من الدراهم وبعد حضور معمر باشا ومناداته بالامان سلكت الطرفات وحضر لي دراهم من الخارج اشترت بها الكسوة التي تلزم لي واعيا لي

« وبقيت شهراً بدار سوطري انما الى ان شفيت من جروحي اما بيتي فلم يجرقه الثوار لقربه من بيوت المسلمين انما اخذوا اخشابه وبلاطه وقطعوا اشجاره وخرّبوا منه ما امكهم تجرّبه ولما لم يعد يصلح للسكنى فحضرة الشريف محمود افندي حمزة الذي هو مفتي الشام في تلك الايام اخلى داره الخارجية ودعاني للسكنى عنده فقبلت شاكرًا وانتقلت لداره فاقمت بها الي ان قدم فواد باشا لدشق فعينوا لي بيتاً للسكنى بينما فرعون من تعمير ما تهدم من بيتي وما تعزيت به علي مصيبي هو اني لما كنت مقيماً بدار محمود حمزة حضر لعيادتي السيد محمد امين مفتي بلاد دمشق فقال لي يا صديقي ماذا جرى لكم . اجبته ما تراه فقال : ان دماءكم سفكت ونساوكم سبيت ويونكم هدمت بيد بعض اسلام دمشق فهل جرى عليكم غير ذلك . اجبته افلا يكفي ما حل بنا من النكبات وما دهمنا من الكروب قال : يجب علي العاقل ان يتناسى في مصيبة غيره الا طالمت توارىخ الاسلام اليس الذين قتلوا حفداه النبي وسبوا حريمه وهدموا الكعبة المشرفة كانوا من اسلام دمشق ؟ فات بلي قال : اذا تأسوا بما اصاب المسلمين منهم قبلكم « وكان الاسلام يخيرون النصارى اما بالاسلام واما بقتلهم وقد اقدموا علي العجائب » انتهى

هذا الذي لحق الدكتور مشافة مع الوسائط التي له وغيره محروم منها فقس علي ما قصه لنا بما لحق بقية النصارى بذات النكبة التي ما بعدها نكبة وبلغ عدد قتلى دمشق اكثر من ستة آلاف نفس

الفصل الثاني والستون والمائة

في قدوم الحملة الفرنسية

ورغمًا عن حالة لبنان وما جرى به من التمدي علي النصارى كسلب اموالهم ومناعهم وحرق بيوتهم وذبح من وقع بايدي رجالها والدرّوز منهم كل ذلك والدولة لم تحرك

سأكنّا نجمع الثوار وارغام العصاة على الاخلاص الى السكينة بل كان وزراؤها ومأمورها
كصيادي الارنب يبطشون بفرستهم وكانوا يرون تمزيق جوانب الرعية واضعافها وهم
صامتون ودامت الحال اكثر من ثلاثة اشهر حتى عم اخبار الحوادث في تلك الربع
الخافقين حتى ان رجال الاستانة لم يكتثروا بما كان يجري من الولايات والهوائل
وعند ما نظرت الدول نقاعد الدولة عن حماية النصارى قررت ارسال مراكب
حرية ليماء سوريا مع حملة من الجنود الافرنسية لانقاذ الثورة الاهلية الموجهة لقطع
النصارى ولا ذنب لهم سوى دينهم



فؤاد باشا

وعندما رأت الدولة الخطر بقرب منها بسرعة خافت من الدول ان تستولي على بلادها
فارسلت للملافة هذا الخطر اعقل وادهي رجالها وهو فؤاد باشا وزير الخارجية ولكنها
تباطأت في ارساله ورجعت لسياستها الاولى من الماطلة ظننا منها ان الدول لن تفتق
على ارسال حملة لما بينهن من التحاسد والضعيفة ولم تحرك سأكنّا حتى وصلت مراكب
دولة فرنسا الى قبرص وحينئذ تحقق لها اتفاق الدول على اخضاع العصاة وشن
الغارة عليها

فاسرعت بارسال فؤاد باشا لسوريا وبوصوله الى بيروت وصلت حملة كبيرة من الجنود الفرنسية وفي وصول هؤلاء الجنود اخلد الثوار الى السكينة وهدأت الاحوال في سوريا

وحضر فؤاد باشا الى دمشق وامر بجمع المسلوبات من سكان دمشق والقرى المجاورة لها وكانت تسلم للمأمورين اقامهم فؤاد باشا لذلك الغرض وكان المأمور لا يعطي وصولاً بما استلمه ولا اشعاراً بما وصل ليده فزادت اطماعه وغرته كثيرة ما يرد اليه من المسلوب

وكان من فؤاد باشا انه التقى القبض على المشتبه بهم ومن كان له ضلع بالثورة وشدد عليهم بتحضير المسلوب ذلك ما احجم كثيرين عن تقديم ما كان عندهم

وعقب صدور الامر بتفتيش بيوت المسلمين وان كل من وجد عنده من متاع النصارى يكون عقابه صارماً وقع الرعب في قلوب معظمهم وصاروا يطرحون ما عندهم على الطرقات والشوارع وكان اليهود يلتقطون ويشترون اشياء ثمينة باسعار تافهة ولم يتجاسر النصارى على الخروج الى الشوارع ليلتقطوا مثلهم مع انهم احق من اليهود بها لذلك كانت الخسارة فادحة عليهم وبالعكس على اليهود

وليس كل ذلك كان من فؤاد باشا فانه كان يقتل وينفي ويغرم كل زعيم من المسلمين وكانت الغرامة جسيمة وفادحة اجابة للدول فاضطر المسلمون الى استقراض المال من اليهود بربا فاحش بين ٣٠ و ٣٥ في المئة ذلك ما ضاعف ارباح هذه الفئة وزاد ثروتها عما كانت عليه وصح قول القائل مصائب قوم عند قوم فوائد

الفصل الثالث والستون والمائة

في قدوم فؤاد باشا الى القلعة

ثم حضر فؤاد باشا الى قلعة المدينة وشاهد الاحوال ورأى الرجال والنساء والاطفال حفايا عراة الاجسام يتنون جوعاً ويتوسدون الغبراء وعقب مشاهدته هذا المنظر المحزن اذرف الدموع

وامر بترميم منازل النصارى في المدينة وخبرهم بالذهاب الى بيروت على نفقة

الحكومة فهاجر من شاء المهاجرة والذي فضل البقاء انلى لهم من مساكن المسلمين وامر
ان تعطى لهم معايدهم ليقوموا بفروض دينهم اذا رغبوا فرفض التصاري بالشكر هذا الكرم
لعلمهم ان في ذلك يكفرون المسلمين عليهم وبولد بهم حب الانتقام في مستقبل الايام
وعند رفضهم سوء الله عين لهم بعض البيوت لذلك الغرض ثم رتب لهم قوتاً كان
يأتيهم يومياً بحسب افرادهم ثم دفع لهم الاقشة وما يحتاجون اليه من الكسوة

الفصل الرابع والستون والمائة

في نفي بعض المسلمين

وبعد ان ازال فؤاد باشا عن المنكوبين بعض الضنك حول عنايته الى اعيان
المدينة من المسلمين الذين نفخوا بيق التعصب كما امرتهم الدولة وحرضتهم على ذبح
اخواتهم بالوطنية وقد فعلوا واتهمه بعضهم انه رام ان ينفيهم عن المدينة ليطمس على
هذه الحقائق الراهنة

فنفى طاهر افندي مفتي الاحناف وعمر افندي مفتي الشافعية واحمد افندي عجلاني
نقيب الاشراف والشيخ عبد الله الحلبي شيخ العلماء واحمد افندي الحلبي وعبد الله بك
العظيم وولده علي بك الذي منحه الدولة رتبة باشا وعبد الله بك سبط ناصيف باشا
وفردوس بك ومحمد بك العظمة ومحمد سعيد بك شحدين الكردي

وارسل بعضهم الى جزيرة قبرص والبعض الآخر الى جزيرة رودس والى بلاد
الاروام وحدد لهم مدة بقائهم في تلك الاماكن خمس سنين

وتوفي بعضهم وهم بمنفاهم وبعضهم رجع الى الشام وعينت الدولة راتباً للشيخ عبد الله
الحلبي ثمانية عشر الف غرش سنوياً جزاء لصدقه لاوامرها . وعينت طاهر افندي
قاضياً على حماة براتب جسيم وانعمت على محمد سعيد بك وعلي بك العظيم بلقب باشا
مجازة لهم على اعمالهم البربرية

الفصل الخامس والستون والمائة

في ارسال احمد باشا الى الاستانة

وارسل فؤاد باشا احمد باشا الى الاستانة بسلم اوراقه الخصوصية الى مراكرها خوفاً من ان تقع بيد الدول وفي وصوله قدمها مخفوفة بالتجلة والاكرام وأعادته الدولة على الاثر الى الشام لتصير محاكمته فيها وحكم عليه المجلس العسكري بالاعدام وصار اعدامه ربه بالرصاص فنال جزاء ما دبره على قتل الابرياء

وحكم المجلس باعدام اميرالاي الجنود الذي كان حاضراً مذنباً حاصبياً والبكباشي الذي شاهد مذنباً راشياً

بيد ان طاهر باشا الذي كان حاضراً وبامر صار ذبح اهالي الدير لم يحدث عليه مكروه بل ابقته الدولة بوظيفته

ثم تشكلت محكمة دولية لتحقيق المجرمين وسمي هذا المجلس مجلس فوق العادة وكان رئيسه محمد افندي رشدي الذي ارتقى بعدئذ الى الوزارة

وبعد هذا التشكيل طلب من النصارى ان يقدموا شكواهم على الذين سطوا عليهم فكان من النصارى انهم لاذوا الى السكوت ولم يقدموا شكوى على احد وكان جوابهم انهم لا يعرفون غير الذين احسنوا اليهم

وكلامهم الواقع لان الذي يعرف اصحاب الجرائم قضي عليه وقدموا الاثمة لفؤاد باشا اجابة اطلبه بالذي كان له ضلع بالثورة وشرع على موجب الاسماء المدونة باللوائح المتقدمة له صار يحضر اصحابها وكان من المقبوض عليهم البك محافظ محلة النصارى واولاد اخته واما والده الوغد ففر من وجه العدالة

وجرت التفتيحات فكان عدد المجرمين من الدرجة الاولى اربعة وخمسين رجلاً منهم محافظ المحلة واولاد اخته والذين هجموا على الدكتور مشاققة وشجوا رأس ابنته وذلك التعمص الذي اركز على عصائه منجلاً ورام قطع عنق مشاققة به صار اعدامهم شقاً وفر واحد منهم من ايدى رجال التنفيذ ولما قبضت عليه الحكومة ثانية عفت عنه

ومائة واحد عشر رجلاً من الدرجة الثانية صار اعدامهم بالرصاص ومن الدرجة الثالثة عدد كبير كان جزاء اغلبهم الخدمة العسكرية

واما الدرور ومسلمو القرى من الذين قتلوا ونهبوا واستباحوا المحرمات والتجيبوا النساء
لم يعاقبوا وظلوا يعيشون في البلاد فساداً

الفصل السادس والستون والمائة

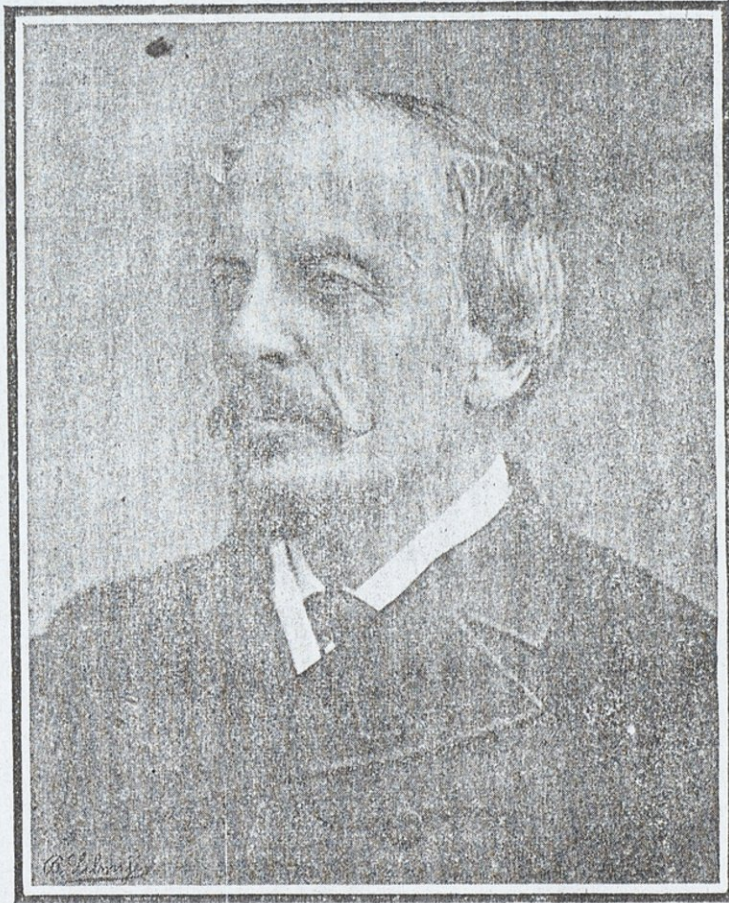
في قدوم نواب الدول الى دمشق

وبعد ايام قلائل حضر نواب الدول الى الشام وشاهدوا ما حل بالنصارى من
النكبات ففرضوا على الدولة دفع غرامة جسيمة وترميم بيوت المنكوبين وتعويض ما فقد
لهم من المتاع وادى هذا الحكم الى تشكيل مجلس كومبارس يرأسه محمد افندي رشدي
واعضاه من جميع الطوائف وبعض من مأموري الحكومة . وصار التحقيق عن خسائر
النصارى وتعهدت الدولة بدفعها ما عدا المساوب من المال وقد دفعت لهم سندات عليها
وكان المحتاجون يبيعونها الى اليهود بالخصم عشرين بالمائة واكثر وعلى سائر الوجوه
كنت خسارتهم عظيمة لانهم كانوا يقبضون الليرة العثمانية على سعر مائة وسبعة
وعشرين غرشاً حال كون سعرها مائة واحد عشر . والحكم قبل بهذا السعر لانه
كان يدفعها للمنكوبين به ولكن عند ما كان يحصل الخراج منهم كان يحاسبهم على
الليرة مائة غرش فقط وهذه المعاملة جعلت النصارى لا يصيبهم من التعويضات التي
حكم المجلس بها غير شطرها وبعد حضور قبولي باشا كان يأخذ سندات الدولة بنصف
القيمة تماماً

اما نصارى قرابا الشام فلم يعرض عليهم ما يساوي جزءاً مما فقد لهم بالثورة بل تعين
لهم مبلغ اقتسموه بينهم بحسب مفقوداتهم

حاسبتهم الدولة بخراج الاراضي عن سنة النكبة ثم مال الجزية وخراج قديم
والفردية عن الاموات والمهاريين وارسلت اليهم جباة لتحصيلها منهم وامرتهم بالقيام عندهم
وارغامهم على تقديم عليق الخليل حتى يدفعوا المطاوب منهم وهو ما يعبرون عنه بالحوالة
والذي كان يطلب منه بقدر ماله على الحكومة من مال التعويض رفعوا عنه
الحوالة وسلموه الوصل والذي زادت اموال خراجه على ماله ضمن الحكومة كتبت عليه
تعهد بدفع الباقي على تراخي الايام فرفض معظمهم هذه المعاملة واعترضوا عليها واتخذوا
حجة لهم عدم تحصيل الدولة من الدرور

ولم تقبل الدولة منهم المماطلة بل ارغمتهم على المصادقة على الوصولات او دفع
مطلوبها منهم وظلت تعاملهم هذه المعاملة ثماني سنين بعد حدوث حادثة الستين ذلك
ما حصل عليه نصارى القرى المجاورة لمدينة الشام من التعويض
ثم وضع فواد باشا ضريبة على ولاية الشام مائة وخمسين الف كيس ثمانية آلاف
على دروز حوران وباقي الضريبة توزعت على البلدان



الورد دوفرين

وقد عين مجلساً في بيروت للنظر بتعويض ما فقده الاجانب ونال الدكتور مشافة
ثلاثة ارباع ما فقده
وبالاجمال نالت الدولة شيئاً من غايتها ولم تخسر من خزينتها مالا بل كانت
الخسارة على الرعية مسلمين ونصارى على السواء
وربجت اذلال الشعب لها وخضوعه التام لكل ما تفرضه عليه من الضرائب حيث

اضعفت الحوادث عصيته واسترسل الى الطاعة والسكون وامانت نفوذ روساء العشائر
ونزعت منهم استقلالهم بحكومة بلادهم في الداخلية

الفصل السابع والستون والمائة

في ما آل اليه لبنان

امر فؤاد باشا فالقي القبض على عدد كبير من دروز حاصبيا وراشيا وكاذ بأمر
باعدام خمسمائة من عددهم بدون محاكمة الا ان النصارى طلبوا منه محاكمتهم واعدام
من توجب الشريعة قتله وهكذا صارت محاكمتهم وانجالت عن تبرير مساحتهم لعدم وجود شهود
ثبت عليهم الجريمة ولم تكن الحكومة تقبل شهادة المسيحي لانه خصمهم وكان من اصعب
الامور على الدرزي ان يشهد على اخيه في مثل تلك الظروف
اما زعماءهم من بكوات ومشايخ فارسوا الى بيروت وحكم عليهم بالنفي مدة رجعوا
في انقضائها الى بلادهم وعينت لهم الدولة راتباً

وتوفي منهم سعيد بك جنبلاط قبل ان يبرح بيروت وقيل انه مات مسموماً .
وخطار بك العماد توفي على اثر رصاصة اصابته عنقه في حادثة جرت بينه وبين الجنود
المقبلة الى حوران انما بشير بك نكد رجع من منفاه وكافأته الحكومة بوظيفة
وبعد ذلك صرح فؤاد باشا ان جنوب لبنان قد انتظمت اموره ولم يبق علينا غير
اصلاح شماله وفي ذلك التصريح دلالة على ان الحوادث التي جرت في الجنوب كانت
على رضى الدولة وبارادتها وعلى اثر وصول فرمان الوزارة له ارسل فرقة الى شمال لبنان
ليضع بطلها ويذل رجاله ولم يفلح لان الجنود كانت اقصر من ان تداني رجال الشمال
بالقتال والقوة فرجعت بالخيبة

وكانت نهاية القتال تسليم يوسف بك كرم على يد قنصل دولة فرنسا وتقيمه الى
باريس كما جاء بتاريخه

الفصل الثامن والستون والمائة

في استقلال لبنان

وانهى المؤتمر الدولي في بيروت قراره على منح لبنان استقلاله الذي يرتع به الآن وان تنصب عليه الدولة وزيراً مسيئياً من خارج سوريا بموافقة الدول عليه وعينت مدة حكمه خمس سنوات تقبل التجديد ان ظهر منه الكفاءة وفرضوا على الجبل سبعة الآف كيس الى الدولة تقدم سنوياً وان الجند اللازم لحفظ راحة اهاليه يكون من ابنائه وفرضت على الدولة دفع رواتب المأمورين ولوزاد راتبهم عن المفروض عليه وصار تقسيم الجبل الى قائمات ومديريات وغير ذلك مما هو معروف عند الجميع ولا حاجة الى تدوينه

وعينت الدولة داود باشا متصرفاً عليه وهو اول حاكم جاء لبنان وحكمه عقب الثورة وعلي اثر الاستقلال وخلفه فرنقو باشا والد المتصرف الحالي

الفصل التاسع والستون والمائة

في ترجمة استقلال لبنان الحالي

لما كنا نعتقد ان هذا الكتاب كبير الاهمية وجدنا من الضروري تعليق نظام الجبل به لتتم الفائدة التي نرعي اليها ولما كان عزمنا اعلام اللبنانيين معرفة قوانين حكومة جبلهم المحبوب ليكون لهم تمام المعرفة في قوانين وسنن الاحكام الاساسية التي قررتها الدول الاوربية المتحابة بمصادقة جلالة السلطان والتي اشركت في مؤتمر بيروت ننقل ذلك عن كتاب (حشر اللثام عن نكبات الشام) وهما كترجمة النظام المذكور :

ارادة سنية من جلالة السلطان

لما كان الاجل المضروب مدة ثلاث سنوات للنظام الذي وضع وللقرار الذي تقدم صدوره بخصوص ادارة الجبل تحصيلاً لاسباب رفاهه وأمن الرعايا النابعين لدولتي العلية القاطنين والمستوطنين جبل لبنان المذكور وكان من المقدر انه عند انقضاء المدة المعينة يباد التذاكر في مقتضى الحال وقد انقضت الآن اجري التعديل والتنقيح في

بعض المواد الواردة في لائحة هذا النظام وعند عرضها على جناب سلطنتي الاشرف والاستندان فيها تعلق شرف صدور ارادتي السنية الشاهانية باجراء مقتضاها على هذا الوجه و بموجبها لزم اعلان النظام المذكور على المنوال الآتي بيانه :

(المادة الاولى) يتولى ادارة الجبل اللبناني متصرف مسيحي تنصبه الدولة العلية ويكون مرجعه الباب العالي رأساً وهو محتمل العزل بمعنى انه لا يستمر في منصبه ما دام حياً ويكون على عهده القيام بجميع خطط الادارة الاجرائية متوفراً على حفظ الراحة والنظام في انحاء جبل لبنان كلها وان يحصل منها التكاليف . وبموجب الرخصة التي من لدن الحضرة الشاهانية ينصب تحت عهده مأموري الادارة المحلية ويتلوا احكام القضاء ويعقد المجلس الكبير ويتولى رئاسته وينفذ الاعلامات القانونية الصادرة من الحاكم الخارجة عن القيود التي ستذكر في المادة الثامنة

(المادة الثانية) ينبغي ان يكون للجبل كله مجلس ادارة كبير مؤلفاً من اثني عشر عضواً اثنان مارونيان بنوبان عن قائمقامية كسروان وثلاثة عن قائمقامية جزين احداهم ماروني والثاني من الدروز والثالث مسلم . واربعة عن قائمقامية المان الاول ماروني والثاني من الروم والثالث من الدروز والرابع من المتأولة وعضو واحد درزي بنوب عن قائمقامية الشوف وآخر عن قائمقامية الكورة من الروم وعضواً آخر عن قائمقامية زحلة من الروم الكاثوليك ومجلس الادارة هذا يكون مأموراً بتوزيع التكاليف والبحث في ادارة واردات ومصاريف حكومة الجبل وبيان ارائه من وجه المشورة فيما يرضه عليه المتصرف من المسائل

(المادة الثالثة) ينبغي ان ينقسم الجبل اللبناني الى سبعة افضية الاول يشتمل على الكورة مع الجهة الجنوبية والاراضي المجاورة الآهلة باقوام على مذهب الروم الارثوذكس باستثناء قسبة القلمون الآهلة بالمسلمين وموقعها على ساحل البحر . والثاني يشتمل على شمالي لبنان ويضم جبة بشراي والزاوية وبلاد البترون . والثالث يشتمل من الشمال المذكور بلاد جبيل وجبة المنيطرة والفتوح وكسروان الاصلي حتى نهر الكلب . والرابع يشتمل زحلة ونواحيها . والخامس يضم المان مع ساحل النصارى وارض القاطع وصايبا والسادس يبتدىء من جنوبي طريق الشام حتى جزين . والسابع يضم جزين واقليم التفاح . وفي كل من هذه الافضية السبعة المار ذكرها ينبغي للمتصرف ان ينصب مأمور دائرة منتخباً من ابناء المذهب الغالبين هناك عدداً في النفوس أو اهمية في الاملاك

والاراضي الجارية بتصرفهم

(المادة الرابعة) يجب ان تنقسم الاقضية الى نواح على نط قريب الشكل من اقسام الاقضية فيلي كل ناحية مأمور ينصبه المتصرف بناء على انتهاء القضاء وان يكون في كل قرية شيخ صلح ينصبه المتصرف بعد انتخاب اهله له

(المادة الخامسة) قد تقرر امر المساواة بين الجميع في شمول احكام القانون ونسخ والغاء كل الامتيازات العائلية لاعيان لبنان خصوصاً اصحاب المقاطعات

(المادة السادسة) ينبغي ان يكون في جبل لبنان ثلاث محاكم ذات درجة اولى يقوم كل منها بحاكم ووكيل ينصبهما المتصرف ومعهما ستة وكلاء دعاوي رسميين تلتخبهم الطوائف . ويكون في مركز ادارة الحكومة مجلس محكمة كبير يتألف من ستة حكام ينتخبهم المتصرف ويعينهم من الطوائف الست القاطنة الجبل وهي المسلمون السنيون والمتاولو والموارنة والدروز والروم والروم الكاثوليك وبلحق بذلك ستة من وكلاء الدعاوي الرسميين لكل طائفة وكيل معين . . . واذا وقعت دعوى لاحد المذاهب المتذاهب الاخرى كالبروتستانت واليهود فيضاف الى المجلس حاكم ووكيل دعاوي رسمي من اهل كلا المذاهب علاوة على الاثني عشر عضواً المار ذكرهم . . . اما رئاسة هذه المحكمة فتتناط بأمور مخصوص ينصبه المتصرف . وان اقتضت حاجات البلاد زيادة فللمتصرفين ان يضاعفوا عدد المحاكم ذات الدرجة الاولى . واجراء للحكومة مجراها المتسقى ينبغي لهم ان يعينوا منذ الآن الاماكن الصالحة بان تكون فيها هذه المحاكم

(المادة السابعة) ان لساخ القرى الذين يقومون بوظيفة حاكم الصلح ان يحكموا في الدعاوي التي لا يتجاوز قدرها مئتي غرش حكماً غير مستأنف . واما الدعاوي المتجاوز قدرها مائتي غرش فتري في مجالس المحاكم ذات الدرجة الاولى . على انه لو عرض امور مختلفة كالدعاوي التي تقع بين اثنين مختلفي المذهب الديني وابي ايها كان قضاء حاكم الصلح فيها لكونه على مذهب المدعى عليه فتحال وان قل قدرها الى محاكم الدرجة الاولى . ثم ان جميع الدعاوي ولو وجب فصلها بحسب ماهيتها بغالبية آراء الاعضاء الا ان للمدعي والمدعى عليه التخلي المذهب ان يردوا الحاكم لاختلاف مذاهبهم غير ان الاحكام مردودين من هذا الوجه لا بد من حضورهم للمحاكمة

(المادة الثامنة) تقتضي المحكمة في الدعاوي الجزائية ان تكون على ثلاثة وجوه

وهي ان يرى في دعوى القباحة شيوخ القرى المتفلدون خبطة حاكم وان اللجنة والجرائم
تنظر بها المحاكم ذات الدرجة الاولى . وان الجنايات تجري محاكمتها في مجالس المحكمة
الكبرى واعلامات الحكم الواجب صدورها من هذا المجلس لا يمكن وضعها موضع التنفيذ
مالم تكمل المعاملات والمراسم الجارية بها في سائر الممالك المحروسة الشاهانية
(المادة التاسعة) ينبغي ان يرى في مجالس تجارة بيروت كل الدعوى العادية
الواقعة بين واحد من ذوي التابعة الاجنبية او احد الداخلين في حماية دولة اجنبية
وبين امرى آخر من اهمل الجبل ترى في المجلس المذكور . على ان المنازعات البادية
بين اللبنانيين والاجانب متى تأتى فصلها بمعرفة محكمين عن نراض من المتنازعين
فيجب والحالة هذه على مأموري لبنان المحليين وقناصل الدول المتحابة الفخيمة ان ينفذوا
اعلام المحكمين — وان تعذر تراضي الخصمين على التحكيم في الدعوى واحيلت الى
محكمة بيروت فيجب تأدية المصاريف على الخاسر دعواه بحسب التعريفة التي وضعها
متصرف جبل لبنان وقناصل الدول جملةً واتفاقاً وقد جرى عليها التصديق من جانب
الباب العالي . . . ومن المقرر انه يجب في الصك الحاوي تراخي المتنازعين على اتخاذ
محكمين ان ينظاه ويمضياه وفقاً لاصوله وان يسجله في بيروت وفي مجالس المحكمة
الكبرى بلبنان

(المادة العاشرة) للمتصرفين حق نصب الحكام الا اعضاء مجلس الادارة فهو لاء
ينتخبون بمعرفة مشايخ القرى كما انه يكون انتخاب المشايخ المذكورين بمعرفة سكان
القرى . ثم ان اعضاء مجالس الادارة يجدد انتخاب ثلثهم كل سنتين ويجوز تكرير انتخاب
من انقضت مدتهم .

(المادة الحادية عشرة) يجب ان يكون الحكام باجمعهم موظفين وان اقدم
احدهم على ارتكاب « الرشوة » او تبين بالتحقيق انه آت مالا يليق بصفة مأمورينه
فهو مستحق للعزل بل مستوجب ايضاً للتأديب على قدر قباحتته

(المادة الثانية عشرة) يجب في مجالس القضاء على الاطلاق ان تكون المدافعة
علنية وان يعهد بضبط الدعوى الى كاتب مخصوص وما عدا ذلك فحيث ان هذا
الكاتب يكون مأموراً باتخاذ سجل لقيود الصكوك المختصة بفراغ وانتقال « بيع »
الاموال الثابتة « العقار » فلا تكون هذه الصكوك معمولاً بها مالم تقيد بحسب اصولها
في السجل المذكور

(المادة الثالثة عشرة) ان المتهمين من اهل جبل لبنان بارتكاب الجرائم في غير الولاية فمرجع الدعوى عليهم هو اللواء الواقع فيه الجرم . وكذا مرتكبوا الجرم من اهالي سائر الولاية داخل حدود جبل لبنان . وبناءً على ذلك فان المتهمين في جبل لبنان سواء كانوا من اهاليه الوطنيين او من نزلائه المعدودين من اهل ديار أخرى اذا فروا الى لواء آخر فكما ان على ضابطه ان يقبضهم بمقتضى الاعلام الوارد من قبل ادارة الجبل و يسلمهم الى حكومة لبنان كذلك يلزم ادارة الجبل ان تلقي القبض على الفارين اليه من المجرمين في احد الولاية اللبنانيين كانوا او غير لبنانيين وتدفعهم الى اللواء المذكور بموجب اشعار ضابطه . ومأمورو الادارة الذين يتسامحون في اجراء الاوامر الصادرة باسترجاع امثال هؤلاء المتهمين الى المحاكم المنوطة بها دعاويهم او الذين يميزون تأخيرات لا يمكن اثبات بنائها على اسباب شرعية فتجري عليهم الجزاء بمقتضى قانون الجزاء كسائر الذين يوارون ويخفون امثال هؤلاء المتهمين عن الحكومة . والحاصل ان العلاقات اللازم اجراؤها بين حكومة لبنان وحكومة الولاية المجاورة كالواصلات الجارية والمتخذة دستوراً للعمل بين باقي الايالات في ممالك الدولة العلية

(المادة الرابعة عشرة) ان سبيل المتصرف الى اقرار حفظ الراحة وانفاذ القوانين في الازمنة العادية انما يكون بمعرفة فرقة ضبطية مجموعة من الاهلين بحسبان سبعة انفار تقدر على كل الف من النفوس من سكانه . ويجب نسخ الحوالية وقرض سلكها وابطال نزول الضبطية على البيوت والاعتياض عن ذلك باسباب اكرامية كاستياق المحكوم عليه الى السجن . فبناءً على ذلك يمنع مأمورو الضبطية بقيد التأديبات الشديدة ان يصادروا اهل البلاد بشيء من الاجرة نقدًا او عينًا . ثم يجمل للضبطية ملابس رسمي او ازياء مميزة لهم في خدمتهم . . وان تبقى طرقات بيروت والشام وصيدا وطرابلس تحت محافظة العساكر الشاهانية الى ان يصدق المتصرف على ان جنود لبنان صاروا اكفاء لتمام جميع الوظائف المنوطة بهم في الازمنة المادية . وهذا الجنود يكرر لدى المتصرف وبارادته وللمتصرف ان يطلب من الحكومة العسكرية بسورية الامداد بالجنود المنظمة في الاحوال الغير العادية ازدعت الضرورة بمدان استشير مجلس الادارة الكبير - ويلزم الضابط المعين بالذات لرئاسة هذا العسكر ان ينظر مع المتصرف في تقرير التدابير الواجب اتخاذها وهو (اي الرئيس الموما اليه) وان كان مختاراً ومستقلاً

بأمور الجند المحضة كاجراء الحركات والنظامات الجندية الا ان عليه مدة وجوده في الجبل ان يلزم معية المتصرف ويجري العمل تحت عهده وفي حال اعلان المتصرف لقائد الجند وافادته رسمياً ان قد زال السبب الذي من اجله ورد العسكر الى الجبل يجب عليه اخراجه منه

(المادة الخامسة عشرة) ان الدولة العلية تحافظ على حقها المعلوم بتحصيل ويركو الجبل المعين الآن ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس وذلك على يد المتصرف على انه يجوز ابلاغ هذا القدير الى سبعة آلاف كيس عند الامكان بحيث ان المال المتحصل يخصص بادىء بدء لادارة الجبل ونفقات منفعه العمومية فان فضل منه شيء يرد الفاضل الى الخزينة وان اقتضت شدة الضرورة الى تحسين مجرى الادارة مزيداً على التكاليف المعينة فيرجع في نسوية الميزيد الى مصاريف الخزينة الجليلة اما وارادات البكاليك اي حاصلات الاملاك الهابونية فحيث انها ليست بداخلة ضمن الويركو فينبغي اذخارها في صندوق الجبل لحساب الخزينة الجليلة . على ان السلطنة السنية لا تقوم باداء مصاريف المنشآت العمومية وسائر النفقات الغير العادية ما لم يتقدم قبولها لها وتصدقها عليها

(المادة السادسة عشرة) يجب تعجيل الشروع في احصاء نفوس اهل الجبل محلاً محلاً وملة وملة ومسح جميع الاراضي المزروعة ونظم خريطة مساحتها
(المادة السابعة عشرة) كل الدعاوي الكائنة بين افراد رهبان الاديرة وخوارنة الكناس يكون فيها المظنون به او المتهم تابعين للحكومة الرهبانية الا ان تطلب الاسقفيات احالة ذلك الى مجلس الدعاوي العادية

(المادة الثامنة عشرة) يتمتع في عموم اماكن الرهبان مطلقاً اجارة اللاجئين اليها ممن تطلبهم الحكومة رهباناً كانوا او من عوام الناس (٥١)

ان الثاني عشرة مادة المسرودة آنفاً هي النظامات الاساسية لجبل لبنان يجب اتخاذها دستوراً للعمل الى ما شاء الله تعالى . ومن مقتضى ارادتي القاطمة السلطانية ان يتوفر على الجميع كمال الاعتناء والدقة في اجرائها ولنفذها حرناً وحرماً والحذر كل الحذر من مخالفتها وابداناً بذلك صدر فراماني هذا العالي الشأن . وقد كتب في اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر لسنة احدى وثمانين ومائتين والفس هجرية الموافقة لسنة ١٨٦٣ مسيحية (٥١)

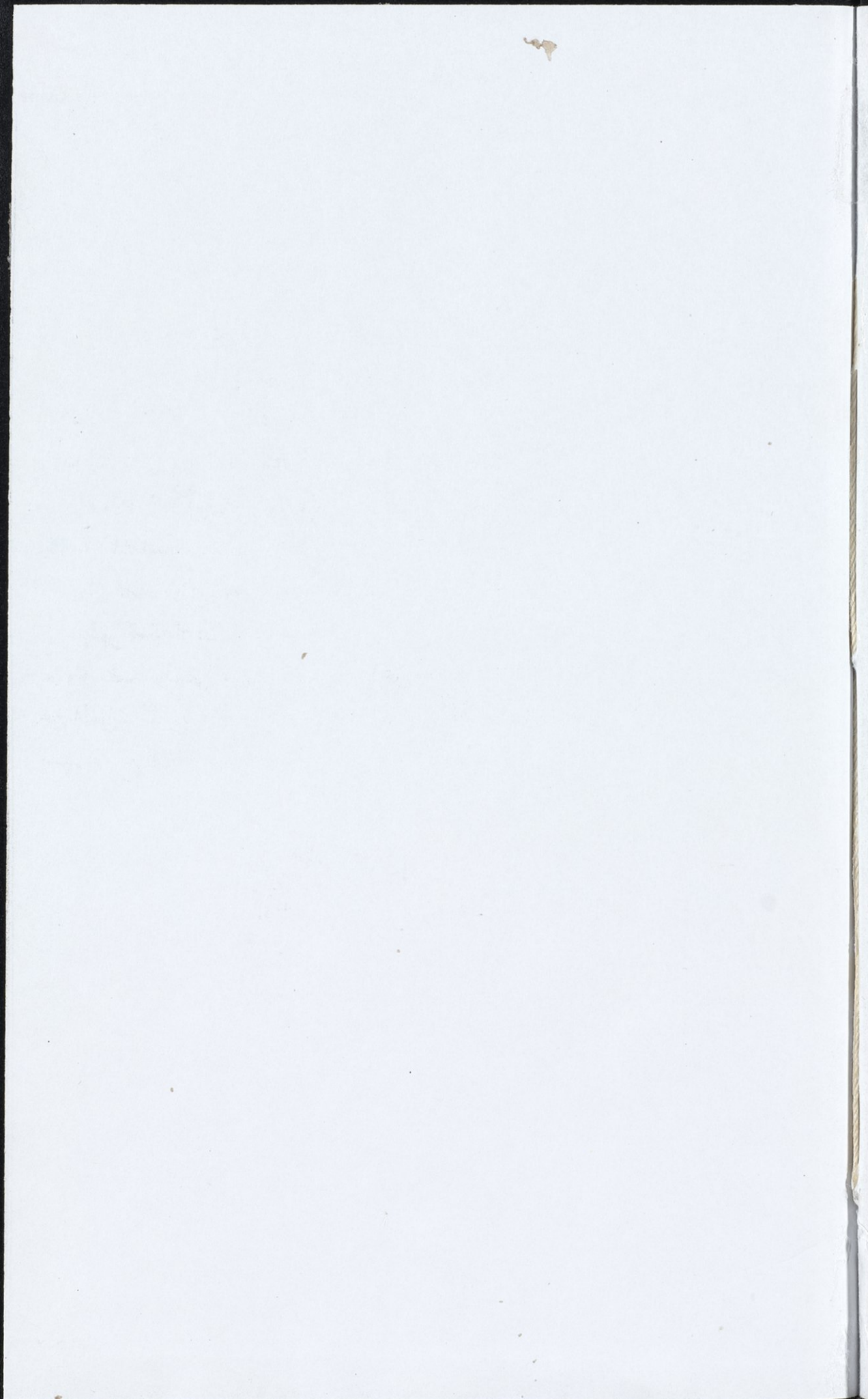
الفصل السابع والمانون

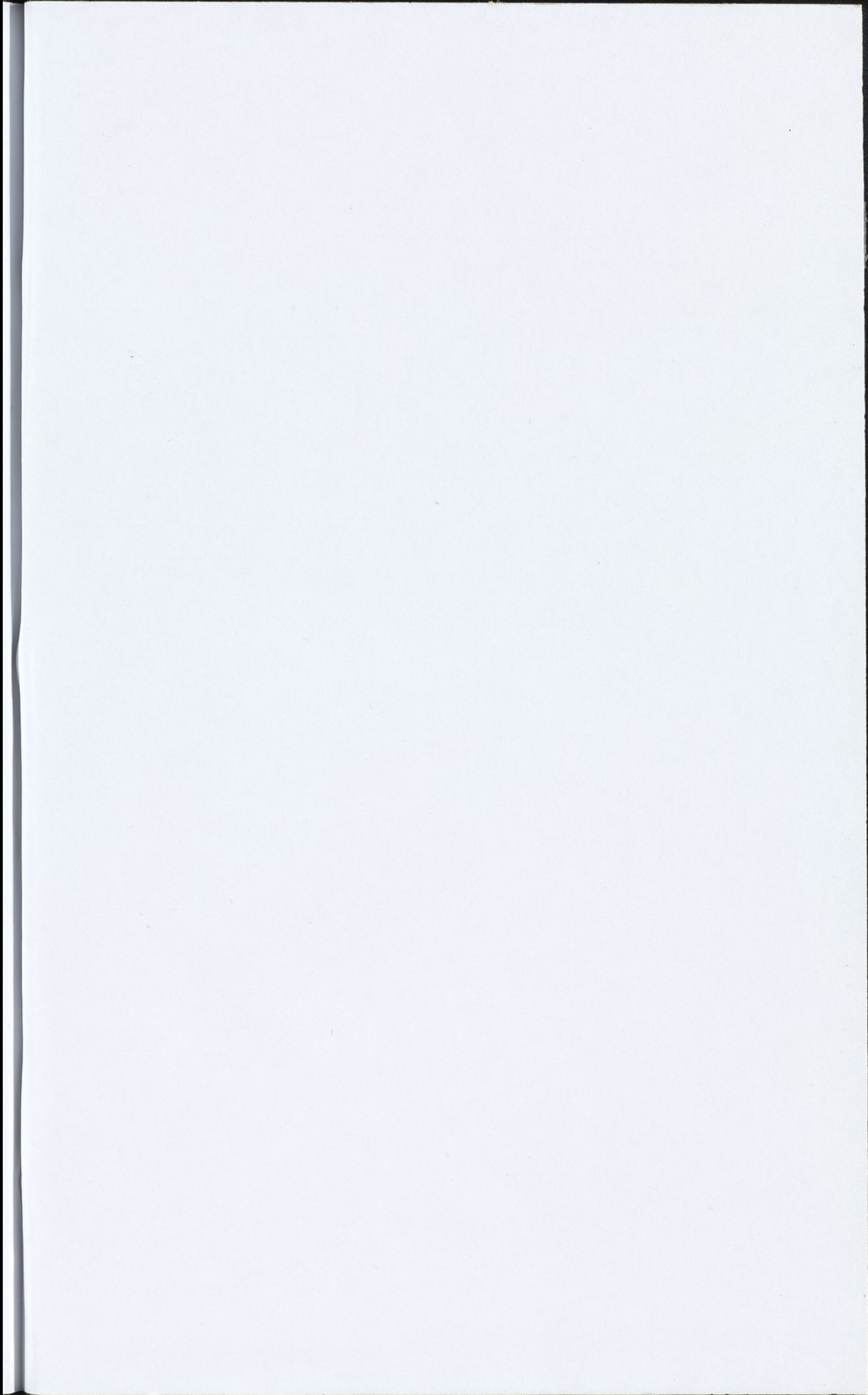
في خاتمة الكتاب

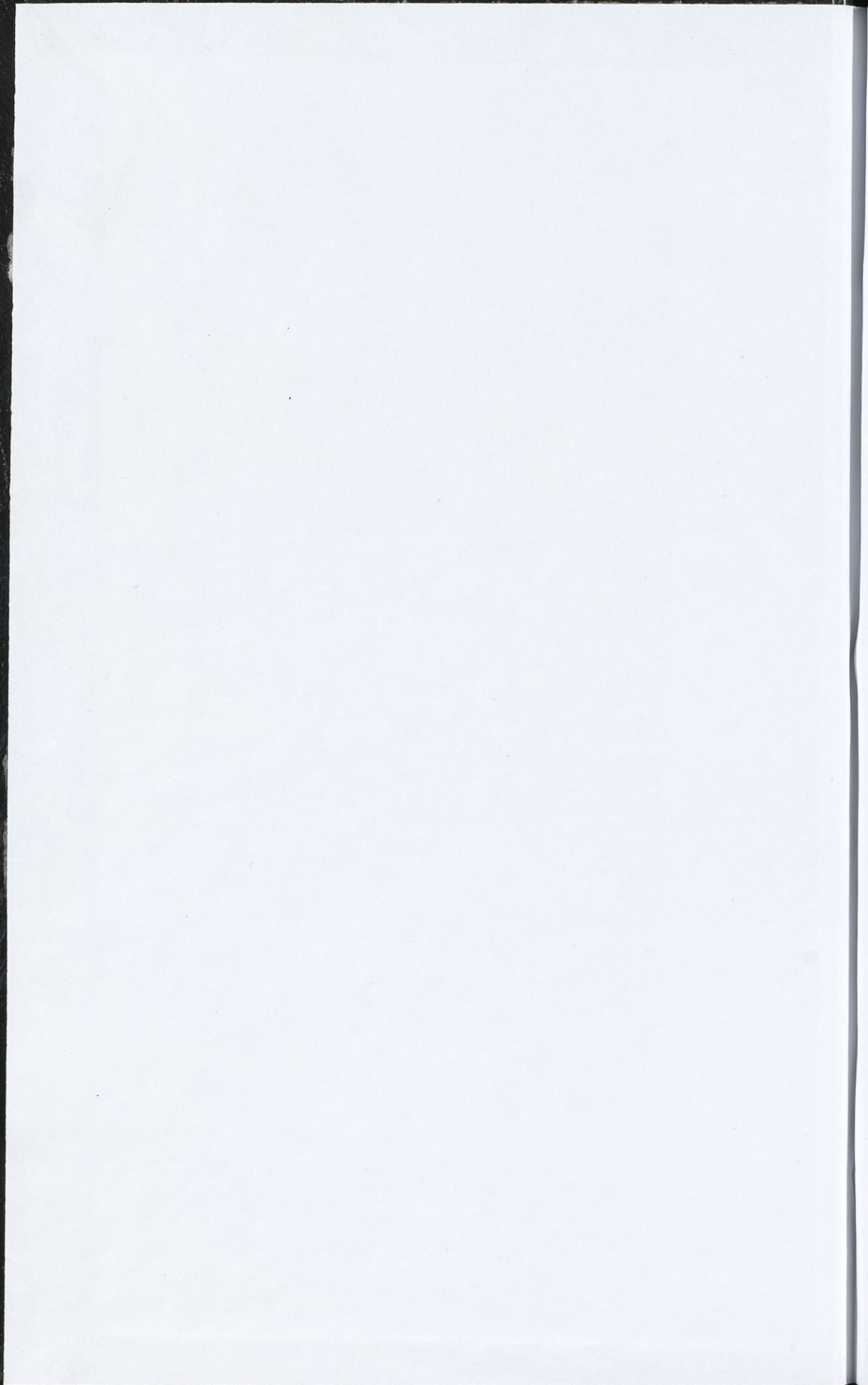
ختم جامع حوادث كتابنا مجموعة في سنة ١٨٧٣ بقوله ان ما دونه على صفحا
 كتابه من حوادث سوريا عمومًا ولبنان خصوصًا لا يقصد به الخط من مقام الد
 العثمانية ولا لاشهار ملامتها بما اوقعته على رعاياها من مسلمين وديروز ونصاري من الا
 والمصائب لان كل ما فعلته كانت تعتقد به واجبًا لبقاء سلطتها وحفظ البلاد ل
 بدون منازع بل لاشهار سوء تصرفها معهم على تلك الطريقة طريقة الخداع والنفا
 وللامة ذلك الشعب الذي ساعدها على تنفيذ غايتها

وان قصده الاول وهو الوحيد يظهر للملاء حقيقة ما اختبره وتوصل الى معرفته
 ولكي يشهر استبداد الامراء وتصرف المشايخ مع الشعب الخامل وان الذي كتبه تحت
 حدوده بنفسه والبعض من الحوادث اخذها عن ثقات القوم وهو يرجو القاري والمعد
 عن الهفوات اللغوية والغرض عن سقم العبارة . وكان الفراغ من جمع كتابه م
 السبت الواقع في ٢٢ ت ٢ سنة ١٨٧٣









OLIN
DS
97
.5
.M57
1908a